بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

قرطبة في شعر شعراء القرن الخامس الهجري

إعداد الطالب

وائلي مصطفى سليمان بني بكر

إشراف الدكتور:

يونس شنوان

٢٠٠٢

قرطبة في شعر شعراء القرن الخامس الهجري

إعداد الطالب

وائلي مصطفى سليمان بني بكر

بكالوريوس في اللغة عربية وآدابها – جامعة اليرموك ١٩٩٨

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها – أدب ونقد

جامعة اليرموك

لجنة المناقشة:

الدكتـــــــــور يونس شنـــوان .....رئيساً ومشرفاً

الأستاذ الدكتور عبـــد القادر الرباعي ..... عضواً

الأستاذ الدكتور حسين يوسف خريوش ..... عضواً

الأستاذ الدكتور صـــــــلاح جـــرار ..... عضواً

٢٠٠٢

الإهداء

إلى أرواحهم الطاهرة ... جدي جدتي ... عمي خالي

إلى أحب الناس بحس صحبتي، تلك التي منحت كل ما ملكت من صادق الود

لأبنائها، وبذلت لهم عصارة عمرها وفكرها، تلك التي حملتني وهنا على وهن فأوصاني

ربي ببرها ... أمي

إلى والدي الذي عاش وتعبَ لأبنائه ليرتقي بهم مصاف النبلاء من الناس

إلى إخواني وأخواتي الذين غمروني بصادق ودهم وكامل محبتهم

إلى أستاذي الدكتور يونس عنوان

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع مع المحبة والتقدير

شكر وتقدير

بعد حمد الله سبحانه وتعالى الذي أعانني على إنجاز هذه الدراسة، أرى من واجبي أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أساتذتي الأجلاء الذين جادوا عليَّ بجهودهم الخيرة، ومنحوني ثمرة خبراتهم الثرية بكل صدق وأمانة.

كل الشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل الدكتور يونس شنوان الذي أشرف على هذه الدراسة منذ أن كانت فكرة، وتابع مراحل إعدادها خطوة خطوة بكل جد وإخلاص، ووفر لها كل عناصر النجاح من مراجع وإرشادات، فكان نعم المشرف والصديق، ومهما حاولت التعبير اعترافاً بفضله، أجد اللسان عاجزاً عن التعبير أمام نبل مشاعره وإنسانيته.

كما أتقدم بوافر الشكر والامتنان إلى كل من الأستاذ الدكتور حسين يوسف خريوش، والأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي، والأستاذ الدكتور صلاح جرار لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة، وتقديم الملاحظات القيمة لإغناء هذا العمل وتصويبه وتوجيهه نحو المسار الصحيح.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تمهيد	
الفصل الأول: تاريخ قرطبة الاجتماعي في القرن الخامس الهجري	
متنزهات قرطبة وآثارها ومعابدها ودورها واسواقها	
مدن قرطبة وقراها	
الحياة الاجتماعية في قرطبة	
الفصل الثاني: القصائد التي قيلت في قرطبة	
تصوير معالم قرطبة وآثارها	
و صف قرطبة	
التغزل بقرطبة	
رثاء قرطبة	
الحنين إلى قرطبة	
الفصل الثالث: دراسة فنية في القصائد التي قيلت في قرطبة	
المقدمات	
التكرار	
التوازي	
الوزن والقافية	
جماليات اللون	
المفارقة التصويرية	
الخاتمة	
المصادر والمراجع	
الملاحق	
ملحق رقم ١	
ملحق رقم ٢	
الملخص باللغة العربية	
الملخص باللغة الإنجليزية	

المقدمـــــــة:

الحمـــدلله حمداً يكافئ جليل نعمائه، ويوافق وافر آلائه، وصلى الله على محمد النبي الأمين، معلم الفصاحة، ورائد البيان. وبعد،

فقـــد عـــرف أهـــل الأندلس بحبهم لوطنهم، وشدة تعلقهم به، فالأندلس أرض خصهّا الله بكثير من المحاسن والخيرات، ولقد أنشأ ملوكها المدن، وشيدوا القصور، واهتموا بالعلم واحترموا رجاله؛ فانبعثت فيها حضارة راقية تباهت بها الأندلس على مـــرّ الأجيال، كل هذا كان من شأنه أن يجعل أهلها يبهرون بتلك الطبيعة ويلهجون بحبها في حلّهم وترحالهم.

ولقد استحوذت الطبيعة بمفاتنها الخلابّة على نفوسهم، وتعلقوا بها تعلّق الفطيم بأمـــه، فبـــثوها في وجدانهم، وأنشدوا فيها أروع أغانيهم، فهي الأم، والوطن. وهي الجمـــال والـــبهاء، وهـــي العـــيش الرغد، فتجلّى حبهم لها في أشعارهم ورسائلهم ومؤلفاتهم وفي كل تصرفاتهم.

ولعلّـــنا نـــدرك أن المولـــى عزّ وجلّ قد حبا قرطبة موقعاً متوسطاً في بلاد الأندلـــس، جعلهـــا مـــن أبهـــى المدن حضارة وأرقاها على مر التاريخ، وتجاوزت شهرتها الحدود حتى قالت عنها الراهبة الشاعرة السكسونية روزفيتا:" جوهرة العالم الســـاطعة مدينة جديدة رائعة، فخورة بقوتها، شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير"[1].

ولهـــذا أخـــذ الشـــعراء يصـــفون تلك المدينة، معبرين عن مشاعرهم تجاهها بأساليب متنوعة وبأبعاد شتى، وبمعان جميلة استلزمتها تلك الطبيعة المُبدعة.

وبعد الاطلاع على ما كتب حول تاريخ قرطبة ودراسة الدواوين الشعرية التي حاولـــت رسم صورة زاهية لها، ولما تحويه تلك المدينة من آثار ومعالم[2]، وجدت

---

(١) هـــنري بيرس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية، ترجمة دكتور الطاهر احمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـــ-١٩٨٨م، ص ١١١.

(٢) انظـــر ســـلمى الخضـــراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ج١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨،ص١٨٣-٢١٧.

وانظـــر عـــبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة ط، ١٩٨٤، ص١٢٥-٢٨٥=

أن هـــناك شـــعراً وفيراً قد تناول قرطبة بمعان وبصور مختلفة. ولقد أشارت بعض الدراســـات إلى ذلك الشعر، ولم تعمد إلى دراسته وتفحصه، ومناقشة لغته وبلاغته، والصورة الفنية التي يكنُّها.

وبناءً على ما تقدم واستكمالاً له ارتأت هذه الدراسة أن تتناول النص الشعري الـــذي صـــوّر "قرطـــبة" ومعالمها محاولة الدخول إلى تلك النصوص، لتغوص إلى أعماقها، مستخرجة مكنونات النص التي عمد إليها شاعرنا الأندلسي، ولتقوم بدراسة تلك النصوص دراسة فنية معمقة وشاملة، مع التركيز على ما تحويه تلك النصوص من مضامين لغوية وإيقاعية، وبلاغية وفنية. ولتحقيق هذه الغاية قُسِّمت هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول.

تـــناول التمهـــيد تعريفاً للمكان لغة واصطلاحاً، وبحثاً في العلاقة بين المكان والإنســـان، ثم عرض لعلاقة المكان بالنص الأدبي، حيث أنّ المكانية تتصل بجوهر العمـــل الفنـــي، وبمكـــنون الشاعر الداخلي، كما حاول التمهيد أن يبرز تلك العلاقة الوثـــيقة بيـــن المكان والزمان، فلا وجود لأحدهما دون الآخر في أي من النصوص الأدبية، إلاّ أنّ تجربة الإنسان هي التي تحدد ميل الحسّ الإنساني تجاه أحدهما.

ويـــدرس الفصل الأول، تاريخ قرطبة في القرن الخامس الهجري حيث ملوك الطوائف والفتن والاضطرابات الداخلية، كما يعرض لآراء عدد من الكتاب والأدباء والمؤرخيـــن حـــول مدينة قرطبة، ويحدد معالم قرطبة ومتنزهاتها، ومناها، ومدنها وقراها، وبخاصة الزهراء والزاهرة، ثم يصور بشيء من الإيجاز الحياة الاجتماعية في قرطبة، ويذكر أيضاً صفات أهل قرطبة وطباعهم.

=وانظر الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجمة الدكتور احسان عباس، دار الثقافة. بيروت، ١٩٩٧م القسم الأول، المجلد الثاني،ص ٩٤١-٩٤٢ ، التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٩٧، المجلد الأول، ص٤٥٥-٦٩٤.

أما الفصل الثاني فيدرس الأشعار التي قيلت في قرطبة

ولقد قسّمت هذه الأشعار إلى ما يأتي:

- مـــا قـــيل فـــي تصور معالم قرطبة، فهل صور ذلك الشعر مدن قرطبة وقراها، ومتنزهاتها؟
- ما قيل في وصف قرطبة، وهي الصورة التي ظهرت فيها قرطبة؟ وما هي الحالة التي وصفت بها؟
- ما قيل في التغزل بقرطبة، وكيف كان غزلهم بها؟ وما صفات تلك المعشوقة؟
- مـــا قيل في رثاء قرطبة، ولماذا بكى الشعراء عاصمة الجاه والكبر؟ وكيف كانت مرثياتهم؟
- مـــا قيل في الحنين إلى قرطبة، وما الدوافع التي ولّدت تلك الأشعار؟ وما الصور والوســـائل التـــي عبر من خلالها الشعراء عن شوقهم وحنينهم إلى قرطبة؟ وهل هناك آثار نفسية ولّدتها الغربة في نفوس شعراء قرطبة؟.

أمـــا الفصل الثالث فقد اعتنى بدراسة هذه القصائد دراسة فنية معمقة، دراسة بلاغية إيقاعية من خلال الجوانب التالية:

المقدمـــات: فهل اعتمد شعراء القرن الخامس في شعرهم المنظوم في قرطبة على المقدمات الجاهلية؟ وهل ظهر لديهم مقدمات أخرى ؟ وما علاقة تلك المقدمات بحال مدينتهم قرطبة.

التكرار في الأشعار التي قيلت في قرطبة

ويدرس أوجه التكرار في تلك القصائد، والغاية من التكرار فيها، وعلاقة ذلك بتشـــكيل معماريـــة القصـــيدة وإيقاعهـــا؟ وهل للتكرار صلة بالصورة الفنية واللغة الشـــعرية فـــي تلك القصائد؟ وهل شكلت كلمات الشاعر المكررة البنية الدلالية التي حاول الشاعر أن يتمثل فيها المعنى الإيحائي الذي أراد أن يصوره.

- **التوازي في الأشعار التي قيلت في قرطبة.**

ويـــدرس صور التوازي وأشكاله التي وردت في هذه الأشعار وما علاقة هذا التوازي بالبناء المعماري للقصيدة؟

- **الوزن والقافية في الأشعار التي قيلت في قرطبة.**

ويـــدرس العلاقة بين التفعيلات والمعنى الدلالي لتلك الأشعار. وهل يمكننا أن نـــربط القافية بحركية القصيدة وحيويتها التي تتولد من خلالها الفكرة الشعورية في نفس الشاعر؟ وما علاقة القافية بالإيقاع الموسيقي في تلك النصوص؟.

وهـــناك العديد من الدراسات السابقة، التي تناولت الحديث عن قرطبة بشيءٍ من التفصيل ومن هذه الدراسات:

- قرطـــبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، عبد العزيز سالم.
- قرطبة في العصر الإسلامي: احمد فكري.
- قرطبة في التاريخ الإسلامي (١٩٨٦): جودة هلال ومحمد محمود صبح.
- قرطـــبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري): عبد الوهاب خلاّف.

ولكـــن هذه الدراسات جميعها عمدت الى تصوير الجانب التاريخي والسياسي والعمرانـــي والإجتماعي والاقتصادي للمدينة، ولم تعمد الى دراسة تلك الجوانب من خـــلال الأشعار التي قيلت فيها، ومن هنا جاءت أهمية الدراسة لتقوم بدراسة العديد مـــن الجوانـــب الهامة في قرطبة من خلال الشعر الذي قيل فيها، لا سيما في القرن الخامس الهجري.

أما الإشكالات التي واجهتني لإنجاز هذه الأطروحة، فكان في مقدمتها مسألة اختيار الشعراء، فعند رصد جميع الشعراء الذين اهتموا بقرطبة في أشعارهم وجدت أنّ بعضـــهم قـــد كانت ولادته ووفاته في القرن الخامس الهجري، ومنهم من كانت ولادته في القرن الرابع الهجري وعاش أكثر أيام حياته في القرن الخامس الهجري، ومنهم من كانت ولادته في القرن الخامس الهجري، وكانت وفاته في القرن السادس الهجـــري، ولهذا احتكمت إلى أن أُعدّ كل من عاش من الشعراء في القرن الخامس الهجـــري بأنه من شعراء هذا القرن، فابن خفاجة مثلاً ولد في عام ٤٥٠هـــ وكانت وفاتـــه في ٥٣٣هـــ. ولهذا عددته من شعراء القرن الخامس الهجري، أما من كانت ولادتهـــم في نهاية القرن الخامس وعاشوا أكثر أيام حياتهم في القرن السادس (ابن بقـــي، القاضـــي عـــياض، الأعمى التطيلي وغيرهم)،فقد عددتهم من شعراء القرن

الخـــامس أيضـــاً، ولهذا تناولت الأطروحة كل شاعر عاش في مدة ملوك الطوائف واهـــتم بقرطـــبة في شعره، ومن هنا عمدت الى هذه المنهجية للحصول على مادة شعرية قيّمة تستحق الدراسة.

وقـــد عمـــدت الأطـــروحة الـــى تبويب الأشعار التي قيلت في قرطبة حسب أغراضها وإلى دراسة هذه الأشعار وتحليلها على ضوء المنهج الاستقرائي الوصفي، أما الدراسة الفنية فستناقش المستوى الإيقاعي والبلاغي في معظم الأشعار التي قيلت فـــي قرطـــبة ضمن المنهج الإسلوبي اللغوي. لدراسة الأساليب الإيقاعية والبلاغية التالية:

- التكرار- التوازي-الوزن والقافية- اللون - المفارقة التصويرية.

تمهيد:

المكان لغةً:

المكـــان لغـــةً: الموضع والجمع أمكنة، وأماكن جمع الجمع، ومكانٌ في أصل تقدير الفعل مَفْعَلٌ، لأنه موضع لكينونة الشيء فيه غير أنّه لمّا كثر أجْرَوه في التصريف مجرى فَعال.

والدلـــيل على أنّ المكان مَفْعَل أن العرب لا تقول في معنى هو منّي مكان كذا وكذا إلاّ مَفعَل كذا وكذا[١].

اصطلاحاً:

هو عنصر من عناصر البناء الفني يتجدد عبر الممارسة الواعية للفنان فهو لـــيس بناءً خارجياً مرئياً ولا حيّزاً محدد المساحة، ولا تركيباً من غرف وأسيجة، ونوافذ؛ بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما، ويحتاج مثل هذا المكـــان إلـــى حـــيز مـــادي ليتوضح عبره، وينمو فيه، فالمكان في الفن اختيار والاختـــيار لغـــة ومعنى وفكرة وقصد"[٢]. ولهذا فإنّ المكان في الشعر يتشكل عن طـــريق اللغـــة التـــي تمـــتلك بدورها طبيعة مزدوجة، وهذا ما تذهب إليه اعتدال عـــثمان؛ إذ ترى أنّ للغة بعداً فيزيقياً يربط بين الألفاظ وأصولها الحسيّة، كما أنّ لكل لغة نظاماً من العلاقات التي تعتمد على التجريد الذهني، لكن المكان الشعري لا يعـــتمد على اللغة وحدها، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بوساطة اللغة علـــى نحـــو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع. غير أنه يظل علـــى الرغم من ذلك واقعاً محتملاً، إذ إنّ جزئياته تكون حقيقية، ولكنها تدخل في ســـياق حلمـــي يتخذ أشكالاً لا حصر لها، يصل إليها الخيال اللغوي فيما يمكن أن يســـمى جمالـــيات اللغة أو جماليات الخيال، وهما بحثان تتوفر عليهما الدراسات الحديثة الآن على حد قولها[٣].

---

(١) ابـــن مـــنظور: لســـان العـــرب، المجلد الثالث عشر، باب النون فصل الميم، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٨هـــ/١٩٦٨م، ص ٤١٤.

(٢) ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسات نقدية، بغداد، ط١، ١٩٨٦، ص ٨.

(٣) اعـــتدال عـــثمان: جماليـــات المكـــان، مجلـــة الأقـــلام، عـــدد ٣ شـــباط ١٩٨٦، الســـنة الحاديـــة والعشـــرون ص ٧٦-٧٧

نقلاً من Gerard Genette. Flgures of Literary

الإنسان والمكان

المكان مساحة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم ويتكون من مواد. والمكان كذلك لا يقتصر على كونه أبعاداً هندسية وحجوماً، ولكنه فضلاً عن ذلك نظام من العلاقات المجردة، يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد الذهني المجرد.

فالإحساس بالمكان- الوطن-"إحساس له أصالته وعمقه في الوجدان البشري لأن المكان يعبّر عن هوية تاريخية ووطنية ونفسية، لاسيما وأنّه يمثل حلقة الوصل المشيمية برحم الأرض- الوطن- الأم، ويرتبط بوداعة وهناء الطفولة وذكريات وغراميات الصبا، ويزداد الإحساس بالمكان تجذّراً وعمقاً إذا ما تعرض المكان للخطر أو الضياع أو الانصهار[١].

إنّ علاقة الإنسان بالمكان حقيقة بالغة في القدم، ووجوده مرتبط بالمكان، وعلى قدر إحساسه بأنه مرتبط بالمكان يكون إحساسه بذاته[٢].

ومن هنا كانت عناية الشعراء بالمكان قديماً وحديثاً فقد اهتم الشعراء الجاهليون بالمكان، فلا يكاد يخلو شعر جاهلي من ذكر الأطلال والديار وعلاقة الشاعر بها. ففيها خاض تجاربه وخلّف ذكرياته.

أمّا الشعر الحديث فقد تعددت الأمكنة فيه وأخذت أبعاداً متنوعة، نفسية واجتماعية وسياسية وجمالية.

والمكان بالنسبة للإنسان أشياء متعددة فهو المأوى والانتماء؛ ولأن العلاقة بينهما متجذرة نرى أن المكان الذي ينتمي إليه الإنسان يتخذ بعض الأحيان طابعاً مقدّساً[٣] وهذا ما سنراه من لدى أبناء قرطبة الشعراء.

المكان في النص الأدبي

تعد البنية المكانية لنص من النصوص تحقيقاً لأنساق مكانية أكثر عمومية يمكن تقصّيها في أعمال الشاعر، وتمثل في الوقت نفسه البنية الثاوية العميقة

---

(١) حاتم الصكر واعتدال عثمان: الشعر ومتغيرات المرحلة، وزارة الثقافة والأعلام بغداد، ط١، ١٩٨٦، ص ٥١.

(٢) نبيلة ابراهيم: خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، مجلد ٩ العددان ١-٢ اكتوبر ١٩٩٠، ص ٤٩.

(٣) موسى ربابعة: ظواهر الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، أبحاث اليرموك م٨، ع٢، ١٩٩٠، ص٥٦.

لمفهوم المكان في ثقافة هذا الشاعر. فالمكان-الوطن-يتحول إلى فكرة، بمعنى أنه يتحول إلى حالة ذهنية تنشأ عن انقطاع خارجي فعلي أو معتزم، وبناءً على هذا التصور نكون أمام قطبين، يمثل أولهما قطب الداخل، ويمثل ثانيهما قطب الخارج، وينشأ عن طريق الجدل بين هذين القطبين تشكل المكان الشعري بما يشتمل عليه من خصائص فيزيقية، وخصائص مجردة في آن واحد(١).

ويرى غالب هلسا في مقدمته التي كتبها في صدر كتاب "غاستون باشلار" الذي قام بترجمته أنّ المكان بالنسبة له كان يحمل خصوصية قوميّة مثلما أنه يعبر عن رؤية، ولكنه عندما قرأ كتاب "جماليات المكان" تبين له أن المكانية تذهب إلى أبعد من ذلك، وهي أكثر تحديداً، إنها تتصل بجوهر العمل الفني ويعني به الصورة الفنية". فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور، إنّ البيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكييف الخيال، إنّه كما يقول باشلار: "يركز الوجود داخل حدود تمنح الحماية"(٢).

فالأدب العالمي يتم التعبير عنه بالصورة وينقل بالتجربة، والمكان بالنسبة له هو المكان الأليف-بيت الطفولة-إنه المكان الذي نمارس فيه أحلام اليقظة ويتشكل فيه خيالنا.

فلم يعد المكان إطاراً للحوادث والمآسي، بل غدا شيئاً أعمق، واستطاع الشاعر أن يكتشفه من جديد، ويحمّله الكثير من مكنوناته الداخلية، وأن يجمع شتات الذات الإنسانية التي كبتها الزمن، ليطلقها من عقالها، ويعيد تركيبها، من جديد في عالم يحلم به(٣).

علاقة المكان بالزمان

الواقع أنّ الزمان لصيق الصلة بالمكان وكلاهما يشكلان محوراً جويلياً لفهم الوجود وهما متداخلان بحيث يستحيل الفصل بينهما، فلا زمان دون مكان، ولا

---

(١) انظر اعتدال عثمان: جماليات المكان، مجلة الأقلام، عدد ٢، شباط ١٩٨٦، ص ٧٩.

(٢) غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسه، بيروت، ١٩٨١، ص ٦-٩.

(٣) حنان حموده: المكان في شعر احمد عبد المعطي حجازي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٣، ص ١٤.

مكان دون زمان، ومع ذلك فإنّ تجربة الإنسان مع الزمان أو المكان تعتمد إلى حد كبير على ميل الحس الإنساني نحو الزمان أو المكان، فإذا كان الإنسان أكثر ميلاً الإخضـــاع سريان الأحداث للتجربة النفسية. فإنّنا عندئذٍ نتحدث عن الحسّ الزمني عـــند الكاتـــب، بمعـــنى أن الكاتب تحت ضغط الإحساس بالزمن. أما عندما يميل الكاتـــب إلـــى أن يوقـــف حـــركة الزمن، ليعايش الأشياء في امتداداتها المكانية، وعلاقـــتها بالأشـــياء الأخـــرى المتجاورة وغير المتجاورة من ناحية، ثم بموقف الكاتب النفسي من ناحية أخرى، فإننا عندئذ نتحدث عن حس الكاتب بالمكان، وعن العلاقات النفسية العميقة التي تربطه به.

ولا يتجلى حس الكاتب العميق بالمكان، ولا تبلغ حدة إيقاع المكان في نفس الكاتب إلا إذا توارى الإحساس بتدفق الزمن(١).

ويـــرى ياســـين نصـــير أن المكان يتمظهر أمامنا باعتباره كياناً مرئياً أو متصـــوراً تخيلياً، لكننا ونحن نتعامل معه نوطنه سمة اجتماعية، إذ لا مكان دون زمن إن لم يكن هو الزمن، والزمن الذي نعيشه هنا زمنه الاجتماعي، أي الوظيفة، التـــي وضـــع فـــيها، فالمكان وسيلة لا غاية، والشعر لا يتعامل مع مكان ميت بل يرفض كل سكونية فيه(٢).

---

(١) نبـــيلة ابراهيم: خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول مجلد ٩ العددان ١-٢ اكتوبر ١٩٩٠، ص ٥٨.

(٢) ياسين نصير: اشكالية المكان في النص الأدبي دراسات نقدية، ص ٤٠١.

الفصل الأول

تاريخ قرطبة الاجتماعي في القرن الخامس الهجري

متنزهات قرطبة

مدن قرطبة وقراها

الحياة الاجتماعية في قرطبة

قرطبة في القرن الخامس الهجري

شـــهدت الأندلس في القرن الخامس الهجري أحداثاً هامة أثرت في مجرى تـــاريخ الأندلـــس كلّه، حتى نهاية دولة الإسلام في الأندلس، وأبرز تلك الأحداث سقوط الخلافة المروانية بالأندلس، فإنه مع انقضاء الربع الأول من القرن الخامس الهجري انفرط عقد الجماعة الخلافة في الأندلس، ولم تعد قرطبة عاصمة الأندلس الموحـــدة، وانقضت أيام الخلافة المروانية، يبدأ رسمياً عصر دول الطوائف الذي استمر إلى أواخر القرن. والواقع أن الدويلات شبه المستقلة كانت قائمة منذ أوائل القـــرن الخـــامس الهجري وقبل سقوط الأمويين، كما أن بعضها استمر بعد دخول المرابطيـــن، وفي هذه المدة نلحظ وجهين اثنين للأندلس: أحدهما قائم مضطرب، وهـــو ما يخص انقسام البلاد وتجزأها، والثاني مشرق وضّاء وهو يخص الجوانب الثقافـــية والحضارية، فقد كانت الأندلس هذه المدة مركز إشعاع فكريّ وحضاريّ. وكان المجتمع الأندلسي -في هذه المدة- مجتمعاً مترفاً على الأغلب.

لقد كانت بداية القرن الخامس الهجري فترة قاسية على قرطبة بعد أن عاش أهلهـــا في نعيم وافر أجيالاً عديدة. فمنذ اشتعال نار الفتنة في جمادى الآخرة سنة (٣٩٩هـــ) إلـــى ســـقوط الخلافة الأموية في (١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـــ)، تعرضـــت قرطـــبة لفتـــنة مبـــيرة والتي يسميها مؤرخ الأندلس العظيم ابن حيّان القرطبي "الفتنة البربرية" والتي نتج عنها تدمير أجمل ضواحي قرطبة "الزاهرة".

وفي عام (٤٠١هـــ) اقتحم البربر مدينة الزهراء وحاصرها شهراً ونصفاً، نتج عنه اقتحام البربر لأحياء قرطبة عنوة في(٢٦ شوال سنة ٤٠٣هـــ) [١].

ولقـــد بويـــع المستعين بالله أبو أيوب سليمان بن الحكم[٢] بقرطبة في ربيع الأول سنة (٤٠٠هـــ) بعد وقعة كانت له على أميرها قبله محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي القائم على الدولة العامرية، ثم خلعه المهدي بوقعة أخرى،

---

(١) احمـــد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، المجلد الأول، ص ٤٢٩.

(٢) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عـــبد الرحمـــن بـــن معاويـــة بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي. انظر: ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجمة الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٣٥-٣٦.

قـــال: "ووســـط هـــذه الأرباض قَصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها، وكانـــت هـــذه الأربـــاض بدون سور فلمّا كانت أيام الفتنة صنعَ لها خندق بدور بجميعها وحائط مانع[١].

من هذا نجد أنّ قرطبة من أعظم مدن الأندلس في القرن الخامس الهجري، فـــلا شـــبيه لهـــا بجميع المغرب ولا بالجزيرة ومصر، وما يدانيها في كثرة أهل، وســـعة رقعـــة، وفســـحة أسواق، ونظافة محالّ، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفـــنادق. ويزعم قوم من أهلها الواصلين إلى مدينة السلام أنّها كأحد جانبي بغداد، وذلـــك أنّ عبد الرحمن بن محمد صاحبها ابتنى في غربها مدينة وسمّاها الزهراء فـــي ســـفح جـــبل حجـــر أملس، يعرف بجبل بطلش، وخط فيها الأسواق وابتنى الحمامـــات والخانات والقصور، والمتنّزهات، واجتلب إليها العامة بالرغبة، وأمر مـــناديه بالـــنداء في جميع أقطار الأندلس :"ألا من أراد أن يبتني داراً أو أن يتخذ مســـكناً بجـــوار الســـلطان فله من المعونة أربع مائة درهم". فتسارع الناس إلى العمـــارة، وتكاثفت الأبنية، وتزايدت فيها الرغبة، وكادت الابنية تتصل بين قرطبة والزهـــراء ونقـــل إليها بيت ماله، وديوانه، ومحبسه، وخزائنه، وذخائره، وقد نقل جمـــيع ذلك وأعيد إلى قرطبة تطيراً منهم بها وتشاؤماً بموت رجالهم فيها، ونهب سائر ذخائرهم[٢].

وتحكـــي أن العمـــارة في مباني قرطبة والزهراء اتّصلت إلى أن كان يمشي فيها بضوء السُرُج المتصلة عشرة أميال[٣].

وقـــال بعض العلماء أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكانت مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعاً وسبعين داراً وهذه دور الرعيّة.

أمّـــا دور الأكابر والوزراء والكتاب والأخيار وخاصة الملك، فستون ألف دار وثلاثمائـــة دار، وعـــدد الحوانيـــت ثمـــانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون[٤] وقيل أن دور الرعية مائة الف دار وثلاثة عشر ألف دار[٥].

---

(١) التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) ابن حوقل: أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ١٠٧.

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد الثالث، ص ٢١٦.

(٤) المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٥٤١.

(٥) ابـــن عـــذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثاني، تحقيق ومراجعة ج. س كولان، و أ.ليفي برونفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـــ/١٩٨٠م، ص ٢٣٢.

متنزهات قرطبة وآثارها وقصورها،ومعابدها.

١- **قصر الرصافة:** وهو متنّزه الخلفاء المروانية، بناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامـــه للنزهة والسكن في أكثر الأوقات[١]، ولقد نقل إليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وفيه يقول قاسم بن عبود الرياحي[٢] (الخفيف)

واعتَـبِر فـي مـآلِ أمرِ الخلافَهْ اسْـقنيها إزاء قصـر الرُّصـافهْ

٢- **المـرج النَّضـير (مـرج الخـز):** وهو الذي يقول فيه أبو الحسن الوَقْشيّ[٣] (البسيط)

فـيه النعيمُ بحيث الروض والنَّهَرُ لله يـوم بِمَـرْج الخـزّ طـابَ لَنا

٣- **فحـص السـرادق:** وفـيه يقول ابن سعيد: "ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحـص السرادق، مقصود للفرجة، يسرح فيه البصر، وتبتهج فيه النفس" وهو معلم هام من معالم قرطبة يقع جوفي نهر قرطبة بالطرف الشرقي من المدينة، وسـمي بذلك لأن خلفاء بني أمية اعتادوا أن يبرزوا السرادق في هذا الفحص قبل التوجه للغزو" وفيه يقول الشريف الأصم القرطبي[٤] (الطويل)

ولا تسـأموا من ذكرِ فَحصِ السرادقِ ألا فَدَعُـوا ذكـر العُذَيْـبِ وبارقِ

٤- **القـنطرة:** وهي من أعظم آثار الأندلس، ولها سبعة عشر قوساً، وقد ذكر ابن حـيان أن بانيها السمح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيـز -رضي الله عنه-وشيّدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها، ولقد قيل فيها: إنّها إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بـن عـبد الله الغافقـي. طولهـا ثمانمائـة ذراع، وعرضها عشرون ذراعاً، وارتفاعها ستون ذراعاً، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً[٥].

---

(١) التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. المجلد الأول. ص ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه. ص ٤٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٨٠

٥- **الرصـــيف والسُّـــدُّ والمنبر:** والرصيف طريق يربط بين مدينة قرطبة ومدينة الزهـــراء، وأرضيته مرصوفة بالحجارة وهو من بناء أمراء بني أمية، وهناك أرصـــفة رومانية أخرى قديمة حرص بنو أمية على ترميمها[١] أمّا السُّدُّ: فهو من متنّزهات قرطبة الجميلة التي يرتادها الوُشّاحون والشعراء، وتسمى الأرحا القائمة على السدّ المنبر ويعتبر من متنزهات قرطبة المطلّة على النهر[٢].

٦- **القصر الخلافي:** ويقع داخل المدينة، وهو بناء روماني قديم، وفيه من المباني الأولـــية والآثـــار العجيـــبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف، توارثه الملوك، فوسع فيه أمراء بني أمية، وشيدوا به قاعات جديدة، ومجـــالس وقصـــوراً. تأنقوا في تزيينها حتى بلغت الغاية في الفخامة والبهاء، وساقوا إليها المياه من جبال قرطبة، وظلّ هذا القصر مركزاً للولاة حتى كانت أيـــام عـــبد الرحمن الداخل، وكان هذا القصر من الاتساع، بحيث كان متّصلاً بســـورها القبلـــي والغربـــي في آن واحد[٣]. وكان قصر قرطبة يضم قصور داخلـــية ذكر منها: المجدد، والحائر، وقصر الوزراء، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، والسرور، والتاج، والبديع[٤].

٧- **المسجد الجامع (الجامع الكبير):** يقع هذا المسجد على امتداد الواجهة الشرقية للقصـــر الخلافي وإلى شمال قنطرة قرطبة، ويفصل بينها وبين القصر الطريق الأعظـــم المســـمى بالمحجة العظمى. وفيه يقول الحميري: "وجامع قرطبة من أجـــلّ أبنية قرطبة كبر مساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمم بـــه الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف"[٥].

---

(١) التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٥-٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أبـــو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري: صفة جزيرة الأندلس، قطعة منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره ليفي بروفنسال- القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٥٥.

ويـــنقل المقـــري عن بعض المؤرخين أنّه ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناءً وأتقن صنعه ومن بدائعك أنه كلما اجتمعت منه أربعة سواري كان رأسها واحداً بالإضافة إلى الرخام المنقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله"(١).

واســـتمر بناءه سبع سنين "بناؤه عبد الرحمن الداخل في قرطبة وأنفق عليه ثمانين ألف دينار(٢)، ومن أعاجيبه أنّ الشمس تدخل في كلّ يوم من أيام السنة من طاق تختلف عن الأخرى في اليوم التالي، حيث بني له أكثر من (٣٦٠) طاقاً(٣).

وكـــان بقرطـــبة مركزان تجاريان، أحدهما يقع في "الشرقية"، والآخر تجاه "باب العطارين"(٤).

ويوجـــد فـــيها مصـــلّيان وهما المصارة والربض: والمصلى ساحة فسيحة يجـــتمع فيها المسلمون لأداء صلاة الاستسقاء وصلاة العيدين في العراء، ويعرف مصـــلى المصـــارة بالمصلّى العتيق وهو غربي قرطبة، ويقع أيضاً بجوار "منية الناعورة" على شاطئ نهر قرطبة، ويقع مصلى الربض بجوار ربض شقنده القديم(٥).

٨- **حـــير الزجّالـــي:** يقـــع خارج باب اليهود بقرطبة، وهو من أجمل المتنزهات وأبدعهـــا فـــي قرطبة، ويصفه الفتح بن خاقان بقوله: "وهذا الحير من أبدع المواضع وأجملها وأتمّها حسّاً وأكملها..." (٦).

٩- **القصر الفارسي:** من القصور المقصودة للنزهة والفرجة في ظاهر قرطبة من الشمال(٧).

١٠- **بـــرج الشرقية:** برج ضخم أشبه ما يكون بالقلعة، كان يقصد به حماية مدينة قرطبة، وإغلاق الطريق على الأعداء(١).

---

(١) التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٥٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧٥-٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥١٩.

(٤) عـــبد العزيـــز ســـالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، مؤســـسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤، الجزء الأول، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٥) ابـــن حـــيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمود علي مكي، (وزارة الأوقاف) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة أحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (١٤١٥هـــ-١٩٩٥م)، انظر المصدر السابق أيضاً.

(٦) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٧٥-٤٨٠، ٦٣٥.

(٧) المصدر نفسه: ص ٤٧٣.

ويوجـــد في قرطبة دار للضرب في موضع يقال له باب العطارين وليس في دراهمهـــم مقطّعـــة، ولهـــم فلوس يتعاملون بها ستين فلساً بدرهم، ودراهم تسمى طبليّا"(٢).

وهـــناك دار الطراز: وهي بجوار قصر قرطبة من الجهة الغربية (٣)وقيل أن هناك سجن يقع على النهر بالقرب من القنطرة (٤).

١١- **وادي قرطـــبة:** هو من أجمل المواضع التي يقصدها أهل قرطبة للنزهة، فقد كان محفوفاً بالبساتين والدور والقصور والمنيات، وينبع من (شقورة)، ويمرُّ النصـــف مـــنه إلـــى (مرسية) مشرقاء والنصف الآخر إلى قرطبة وإشبيلية مغـــربا، يصـــفه الرازي: "ونهرها الساكن في جريه اللين في انصبابه الذي تؤمن مغبة ضرره في حمله"(٥).

وهناك العديد من المنَى، أهمها:

منـــية الـــناعورة: تقـــع على شاطىء قرطبة، وهي متصلة بمصلّى فحص المصـــارة العتـــيق أنشأها الأمير عبد الله وكان قد اشتراها أيام والده الأمير محمد فأنشـــأها منية عجيبة واسعة الخطة أرادها للفرجة فأوسع خطتها وأكثر غراساتها واقتصد مع ذلك في الإنفاق عليها(٦).

منـــية نصـــر: بناها الأمير عبد الله على شاطىء النهر أيضاً بعدوة الربض إلى جانب مقبرة الربض العتيقة، وصارت إليه بعد نصر مخترعها وكلّف بها فشيّد بنيانها وأتقن مصانعها"(٧).

---

(١) عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ٢١٧.

(٢) أبـــو بكر احمد بن محمد الهمذاني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، طبع في مدينة ليدن. مطبعة بريل سنة (١٣٥٢هـــ١٨٨٥م)، ص ٨٨.

(٣) ابن حيان، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، قطعة نشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي، بيروت، ١٩٦٥، ص ٩٢.

(٤) عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. الجزء الأول. ص ٢١٨.

(٥) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٨٠.

(٦) أبـــو مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيان. المقتبس في تأريخ رجال الأندلس، نشر الأب ملشور.م. انطوانيه، بولس كنتز الكتبي بباريس سنة ١٩٣٧، ص ٣٨.

(٧) ابن حيان: المقتبس في تأريخ رجال الأندلس. القسم الثالث، ص ٣٨-٣٩.

منـــية ابـــن عـــبد العزيز: تقع في الصحراء الممتدة ما بين قرطبة ومدينة الزهراء غربي قرطبة[١].

منـــية عجـــب: ولقد أقيمت في الربض القبلي في مواجهة السد والرصيف وعجب هذه هي (جارية الحكم الربضي) [٢].

منـــية أبـــي الحكـــم في القرشية:وهي تقع على نهر قرطبة بمكان يسمى بالشمامات أو الشاعات[٣].

المنـــية المصـــحفية: ويرى ابن عذارى أنها كانت بالبقعة المعروفة بألش غربي قرطبة، أقامها الحاجب جعفر بن عثمان في خلافة حكم المستنصر[٤].

المنـــية العامـــرية: وهـــي من المنيات المشهورة بمدينة قرطبة منذ أواخر القرن الرابع الهجري، أسّسها المنصور محمد بن أبي عامر في سنة ٣٦٩هـــ إلى جانب مدينة الزهراء[٥].

منـــية قنتيش: تقع غربي قرطبة على الوادي الكبير في الطريق الممتد من قرطبة إلى إشبيلية وقادس[٦].

منية الرصافة: وهي التي بنى فيها عبد الرحمن بن معاوية قصر الرصافة تقع شمال قرطبة منحرفة إلى الغرب[٧].

مقابر قرطبة:

تعددت المقابر بقرطبة ولعلّ أقدمها كانت مقبرة الربض العتيقة في الربض القبلـــي الـــذي أقيمـــت فـــيه فيما بعد مقبرة ثانية كان يطلق عليها أحياناً، روضة الصلحاء.

---

(١) عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ٢٠٨.

(٢) الشـــيخ الأمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. معجم البلدان. المجلد الخامس، دار صادر، للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ص ٢١٨.

(٣) ابن حيان: المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ص ٤٣-٢٢٨.

(٤) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس. المغرب. تحقيق ج.س كولان وإليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

(٥) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المجلد الأول، ص ٤٧١.

(٦) احمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٧١م، ص ١٨٢.

(٧) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٦٦-٤٦٧.

ومن مقابر قرطبة: من الجهة الغربية مقبرة قريش وتقع خارج باب عامر، ومقبرة منتعة شمال غرب مقبرة قريش، ومن الشمال مقبرة أم سلمة خارج باب اليهود، ومقبرة اليهود شمال مقبرة أم سلمة، ومن الشرق مقبرة البرج، وتقع غرب باب عباس بالقرب من السكة العظمى، وفي الجنوب مقبرة الربض[١].

مدن قرطبة وقراها:

يقسم صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب[٢] قرطبة إلى خمسة مدن وهذا ما ذهب إليه في تقسيمه لكتاب الحلة الذهبية في حلى الكورة القرطبية[٣] وهذه المدن هي:

١- قرطبة ٢- الزهراء ٣- الزاهرة

٤- شقندة ٥- وَزْغَة

بالإضافة إلى القرى والحصون[٤] التالية:

- بلكونة - القصير - المدور - مراد.

أمّا بلكونة فهي قرية من أعمال قرطبة وهي مركز كورة باسمها.

والقصير: حصن من أعمال قرطبة يقع إلى الشرق منها على النهر. وبينها وبين قرطبة ثمانية عشر ميلاً. وفي هذه الكورة وادي يعرف بوادي القصير.

والمدور:- حصن حصين مشهور، ومعقل عظيم من أعمال قرطبة يبعد عنها ستة وثلاثين ميلا، ويشير ابن سعيد وابن الخرّاط إلى أن المدور أيضاً كورة أو أقليم، ويبدو أن حصن المدور قديم إذ كان للروم به اعتناء في القديم وعليه اعتماد.

ومُرّاد:- كورة إلى الغرب من قرطبة فيها حصن سكنته قبيلة مراد فنسب إليها.

---

(١) انظر احمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف، الجزء الأول، دار المعارف ١٩٨٠، ط٣، ص ٣٥-٣٦.
انظر ابن سعيد المغربي: المُغرب في حلى المغرب، ص ٢٢٢-٢٣٤.

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٥٧.

(٤) ابن سعيد المغربي: المُغرب في حلى المغرب، ص ٢٢٢-٢٣٤.

أمـــا وزغة:- فهي من مدن قرطبة، وشقندة كانت في قديم الزمان مدينة ثم خربت وصارت قرية وهي مجاورة لقرطبة مطلة عليها[١].

أمّـــا الزاهـــرة:- "فهـــي مديـــنة متصلة بقرطبة، من البلاد الأندلسية بناها المنصـــور بن أبي عامر لمّا استولى على دولة الخليفة هشام، وكان قد وقف على الـــبقعة التـــي بنيت فيها الزاهرة وكانت ملوك المروانية قبله تتخوف ذلك، وكان ألهمهـــم بشـــأن الحكم، فنظر فيها وقاس على مجالها البقعة المدعوة "بألَش" وهي غربـــيّ مديـــنة الزهراء فأمر حاجبه أبا أحمد الصقلي بالسبق إلى بنائها طمعاً في مزية سعدها. وأنفق عليها مالاً كثيراً"[٢].

يقـــول المقـــري: "فارتـــاد موضـــع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصـــور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسق منها كل امـــتداد معجز منظم، وشرع في بنائها، وحشد الصنّاع والفعلة وجلب إليها الآلات الجلـــيلة، وتوسع في اختطاطها وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها وبالغ في رفـــع أسوارها وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة وصار بناؤها من الأنباء الغريبة وبنى معظمها في عامين"[٣].

ويقـــول :" وفـــي ســـنة سبعين وثلاثمائة انتقل إليها ونزلها بناحيته وعامته فتـــبوأها وشـــحنها بجميع أسلحته وأمواله وامتعته واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمـــل في داخلها الأهواء، وأطلق بساحاتها الأرحاء. ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكـــتابه وقوّاده وحُجّابه، فابْتَنَوا بها كبار الدور وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المســـتقلات المفـــيدة، والمنارة المشيدة، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة، وتناهى العلو في البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة"[٤] وفيها يقول صاعد اللغوي[٥]: (البسيط)

---

(١) انظـــر ابـــن ســـعيد المغربـــي : المغـــرب في حلى المغرب ، ص ٢٢٢ -٢٣٤ ، والتلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول. ص ٤٥٦.

(٢) محمد عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق احسان عباس. مكتبة لبنان. ١٩٧٥. ص ٢٨٣.

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المجلد الأول. ص ٥٧٩.

(٤) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٥٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٨١.

تَحفُهُـا مـن فُـنون الأيكِ زاهرة ... قـد أورَقَتْ فضّة إذ أورقت ذهبا
بَديعَـة الملـكِ مـا يَنفكّ ناظِرُها ... يـتلُو عَلى السّمع منها آيةً عَجبَا
لا يُحْسِنُ الدهرُ أن يُنْشي لها مَثَلاً ... ولَـوْ تَعَنَّـتَ فـيها نَفْسَـه طَلَبَا

الزهراء:

وصف ابن خلكان الزهراء قائلاً :"الزهراء بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء وبعدها همزة ممدودة، وهي من عجائب أبنية الدنيا، وأنشأها أبو المظفر عبد الرحمـن بـن محمـد بن عبد الله المَلَقَّب بالناصر، أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة، في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، ومسافة ما بينها وبين قرطـبة أربعـة أمـيال وثلـثا ميل، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسـبعمائة ذراع وعـدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وعرضـها مـن القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب وكان الناصر يقسم لها ثلث جباية البلاد[١].

وهي مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى على الحد الأوسط وسطح الثلث الأوسط على الثلث الأسفل، وكل ثلث منها له سور فكان الحد الأعلى منها قصوراً يعجز الواصفون على وصفها، والحد الأوسط بساتين وروضات والحد الأسفل فيها الديـار والجـامع ثم خرب ذلك كله، وأصابه ما أصاب قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس[٢].

وأورد ابن خلكان أن الناصر قد بدأ في بناء الزهراء في أول يوم من محرم سنة (٣٢٥هـ) [٣] وكانت في غاية الإتقان والحسن وفيها يقول الشاعر السميسر[٤] (السريع)

وَقَفْـتُ بالزَّهـراء مُسْـتَعْبراً ... مُعْتَـبراً أنـدُبُ أشْـتاتا

---

(١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة١٩٤٨، الجزء الرابع، ص١١٧.

(٢) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢٩٥.

(٣) التلمساني: نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٥٢٤، نقلاً عن ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤،ص١١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٦٥ .

فقلـــت: يـــا زهـــرا ألا فارْجِعـــي قالـــت: وهـــل يـــرجع مَـــنْ ماتا؟

ولقـــد اســـتمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى آخر دولة الناصـــر وابنه الحكم وذلك نحواً من أربعين سنة، ولقد بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة والذي أبهر جميع الناس الذين أطبقوا على أنه لم يُبنَ مثله في الإسلام ألبتة[١].

أمّـــا عـــدد فتـــيانها فقـــد أرّخ بعضهم أنه وصل إلى ثلاثة عشر ألف فتى وســـبعمائة وخمســـين فـــتى، وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة[٢] وكان منها حمامان واحد للقصر وثان للعامة[٣].

وفيها يقول ابن زيدون[٤]: (البسيط)

إنـــي ذَكَـــرْتُكِ "بالزَّهْـــرَاءِ" مُشْـــتَاقا والأُفْقُ طَلْقٌ، وَمَرْأى الأرْضِ قَدْ رَاقَا
وَلِلنَّسِـــيمِ اعْـــتِلالٌ - فـــي أصَائِلِهِ كَأَنَّـــهُ رَقَّ لِـــي، فاعْـــتَلَّ إشْـــفَاقا
والرَّوْضُ-عَنْ مَائِهِ الفِضِّيِّ - مُبْتَسِمٌ، كَمَـــا شَقَقْتَ - عَنِ اللَّبَّاتِ - أَطْوَاقا

ويقول أيضاً: [٥] (الطويل)

الأهَـــلْ إلـــى (الزَّهْـــرَاءِ) أوْبَةُ نَازِحٍ تَقَصَّـــى تَنَائِـــيَها مَدَامِعَـــةٌ نَـــزْحَا

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المجلد الأول. ص ٥٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٨.

(٤) ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص ١٣٩.

(٥) ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص ١٦٠.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في قرطبة:

عاش المجتمع الأندلسي في صراعات دائمة بين عناصر وأديان كثيرة ومن هذه العناصر العرب، البربر، المسالمة والمولدون، أهل الذمة (النصارى). اليهود، الصقالبة[١].

أما الصقالبة فهم ضرب من المماليك كانوا يجلبون من بقاع أوروبية متعددة ولقد اشتراهم مسلمو الأندلس لاستخدامهم في الجيش.

وقـــد وجد منهم أكثر من (١٥) ألف في قرطبة في القرن العاشر الميلادي، وفي الزهراء وحدها وجد أكثر من ثلاثة آلاف[٢].

وقد كانت الطبقة السائدة في قرطبة قبل الفتح الإسلامي قوطاً مسيحيين، ثم أصبحت خليطاً من الأجناس والأديان عندما دخلها الآلاف من العرب حيث استمر ســـير الهجرة يتدفق على قرطبة طيلة خمسين عاماً وهذا ما شجّع قرطبة على أن تصبح مدينة عربية إسلامية.

وجاء البربر وتفرقوا في سائر مدن الأندلس، وفي القرن الرابع دخلت إلى الـــبلاد طائفـــة جديدة منهم كانوا طارئين على الأندلس في عصر الخلافة والدولة العامرية وفي مرحلة الفتنة أيضاً.

ولكـــن القوط الذين بقوا في قرطبة استعربوا، وانجذبوا نحو تعاليم الإسلام الســـمحة. ومـــن الفئات الأخرى التي كانت تعيش في قرطبة اليهود، وكان عددهم قليلاً[٣].

ويصـــف ابن سعيد أهل قرطبة بأنهم: "أهل رياسة ووقار، والعلم فيهم صفة متوارثة، أمّا عامتها فهم أكثر الناس فضولاً وأشدهم تشنيعاً وتشغيباً، ويضرب بهم المـــثل، بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضى بأمورهم"[٤].

---

(١) حسن احمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الاندلسي، دار الجيل- بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٩م، ص ١٩-٥٠.

(٢) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الثاني، ص ١٠٢.

(٣) انظر، احمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، ص ٢٤١-٢٤٣.

(٤) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٢٦.

وقـيل فـيهم: "إنهـم مشهورون بالرقة والظرف وحدة الذكاء وكرم الخلق والـذوق الكـامل في المآكل والملابس وإليهم تكون الرحلة في رواية الشعر فهي مركز الكرماء ومعدن العلماء"(١).

ولقد قال الأدريسي في فضائلهم: "وأشهر من أن تذكّر، ومناقبهم أظهر من أن تسـطر، وإلـيهم الانتهاء في الثناء والبهاء، وهم أعلام البلاد، وأعيان العباد، ذكروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب"(٢).

ومـن عمل قرطبة معدن البلور وبأقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جلـيل.. وبجبال قرطبة معدن التوتيا الطبية(٣). "وفي هذه المملكة (قرطبة) معدن الفضـة الخالصـة فـي قـرية كرتش ومعدن الزئبق والزنجفر في بلد بسطاسة، لأجزائها خواص مذكورة في متفرقاتها وأرضها أرض كريمة النبات"(٤).

ولقـد أنشـأ الأندلسـيون الأسـواق في كل مناطقهم في الجبال والسهول والصـحاري والأوديـة، وعمـرت أسـواقهم بالمنـتجات الزراعية والحيوانية والصـناعية، ومن الأخبار الدّالة على الحياة التجارية ونشاط الأسواق الأندلسية ما يـروى أنّ المنصور أحب أن يتعرف على مقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الحطب في اليوم الواحد فانتهى عدد ما أحصي له إلى ستة الآف جمل"(٥) .

ومـن مظاهـر الحضارة في قرطبة ما قاله الشقندي: إنّ المرء يسير فيها مسافة عشرة أميال على ضوء السرج المتصلة هذا في زمن لم يوجد فيه بعد ذلك بسـبعمائة عـام في شوارع لندن إلا مصباح واحد(٦) ومن محاسن قرطبة ظرف اللـباس والـتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم

(١ التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول ، ص ٤٦١.

(٢) الأدريسـي، أبـو عبدا لله محمد بن محمد بن عبد الله بن أدريس المحمودي، الحسني المعروف بالشريف الاندلسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق عالم الكتب، ط، ١٤٠٦هـ-١٩٨٩م).

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٥٥.

(٥) لسان الدين بن الخطيب: أعمال الاعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ط بيروت، سنة ١٩٥٦م، ص ١٠٤.

(٦) أنظـر جـاك س. ريسـلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة احمد فؤاد الأهواني، ط١ الدار المصرية للتأليف والنشر، ص ١٥٥. التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مجلد ١. ص٤٥٦.

وكســـر أواني الخمر حيثما وقع عليه احد من اهلها عليها وهي اكثر بلاد الاندلس كتـــباً واشـــد الناس اعتناءً بخزائن الكتب حتى صار ذلك عندهم من الات التعيين والرياسة"[١].

وقـــد قيل: إنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها[٢].

يقول أبو الحسن بن بسام :"ومن أفقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر وفرســـان النظم والنثر وبها أُنشئت التأليفات الرائعة وصنفت التصنيفات الفائقة"[٣] ولقد بلغت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر ثلاثة آلاف ألف دينار[٤].

وفي مجال الغناء ومجالس اللهو، "فقد كثر في عهد ملوك الطوائف المغنون وكـــثرت المغنيات واشتهرت بعض المدن الأندلسية بالخلاعة والمجون"، ولم يكن ملـــوك الطوائف بأقلّ غراماً في اللهو والغناء ممن سبقهم، ومثال ذلك المعتمد بن عـــباد، والمـــأمون بن ذي النون، ولقد تسربت الآت البذخ وحبّ اللهو والغناء من قصور الحكام ومجالس السادة إلى عامة الشعب"[٥].

كمـــا شـــاعت أدوات الغناء في قرطبة، فقد أفسح الكتاب باباً لتلك الأدوات ومـــنها العـــود والرباب والطنبور والمزهر والطبل، وكان العود على رأسها يليه الطنـــبور حيـــث أقام "الطنبوريون" في قرطبة اتحاداً فيما بينهم[٦]، وقد تحدث ابن حـــزم حـــول مجالس اللهو والغناء التي كان يعقدها بعض كبار رجال الدولة في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والأُلاف".

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٦٢.

(٢)الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣.

(٤) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٥٩.

(٥) سـعد إسـماعيل شـلبي: البيـئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٥٤-٥٥.

(٦) مصطفى محمود الحلوة، محطات الغناء في الأندلس، دراسة في شعر الغناء، ١٩٩٣، ص ٧٣.

الفصل الثاني

القصائد التي قيلت في قرطبة

تصوير ووصف معالم قرطبة وآثارها

التغزل بقرطبة

رثاء قرطبة

الحنين إلى قرطبة

تصوير ووصف معالم قرطبة وآثارها في الأشعار التي قيلت في قرطبة

عمد الشعراء الأندلسيون في القرن الخامس الهجري، لا سيما شعراء قرطبة، إلى التغنّي بمعالم مدينتهم الشماء. فهي الوطن والأم والحبيبة ولهذا لا نكاد نجد شاعراً منهم إلا وتغنّى بها إمّا واصفاً إيّاها، أو مصوّراً لبعض معالمها وآثارها، وإن لم يفعلوا ذلك وصفوا تلك الرياض الجميلة التي كانوا يقضون بها أجمل أيام حياتهم.

ومن هؤلاء الشعراء رئيس كتاب الأندلس ابن أبي الخصال، الذي عمد إلى تسجيل العديد من معالم قرطبة وتصويرها، فكانت قصيدته سجلاً جغرافياً لتضاريس قرطبة من مدن، وقرى، وجبال، وقصور، ورياض. والقارئ لهذه القصيدة يرى نفسه أمام مدينة عظيمة، فتبهره معالمها ليحدق البصر بها واصفاً إياها بلسان عذب ينساب كالماء الزلال.

وهنا سننتقل مع شاعرنا "الجيانيّ" ابن أبي نضال إلى تلك المدينة، فلقد ارتحل إلى قرطبة وسكنها فبعد أن أحبها وأحبته، يأخذنا معه في رحلة خيالية يتذكر فيها ما أحبه من أماكن في قرطبة بعد أن قضى فيها زماناً هنيئاً. يقول: [1] (الطويل)

على تلكَ من حالٍ دعوتُ سميعا ... وذكّرتُ رَوضاً بالعُقابِ مَرِيعا

وشَمْلاً بشعب المذحجيّ جمَيعا ... وسِرْباً بأكنافِ الرُّصافةِ ريعا

وأحداق عين بالحِمَامِ تَقَلَّبُ

فيدخلنا أولاً إلى "روض العقاب" ذلك المكان الذي أراعه جماله الباهر، ولتكن أولى محطات رحلتنا منظراً جميلاً ورائعاً يجعلنا نتطلع بشغف للمسير إلى الأمام لنصل إلى "شعب المذحجي" ويصف لنا حال الناس في هذا الشعب، فهم أصحاب شمل واحد، بعد هذا تحط راحلتنا في أجمل خيرات الأرض في "الرصافة"، وهي أكثر مكان تلعب فيه العصافير وتمرح.

([1])رسائل ابن أبي الخصال الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلس: تحقيق د. محمد رضوان الدايه، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ص ٥١٣، ٥١٤.

ونسير مع شاعرنا حتى نصل إلى قصر الخلافة الذي توارثه الملوك عبر الأجيال فوسع فيه أمراء بني أمية وشيدوا فيه قاعات جديدة ومجالس وقصوراً يقول[1]: (الطويل)

ولم أنْس مَمْشانا إلى "القَصْرِ ذي النَّخْلِ" بحيثُ تجافى الطُودُ عن دَمِثٍ سَهْلِ
وأشْرَف لا عن عُظْمِ قَدْرٍ ولا فضْلِ ولكنَّهُ للْمُلْكِ قامَ على رِجْلِ

يقيهِ تَبَاريحَ الشّمال ويحجبُ

وينتقل بنا إلى منطقة "أم عمرو" تلك الرقعة التي أصبحت بالية جرداء تندب وتبكي كل من يزورها: [2] (الطويل)

فكم مُوجعٍ ينتابُه برَسِيسِهِ ومُعتبرٍ ألْقى بأرحُلِ عِيسِهِ
يَرى أُمَّ عمرو في بَقايا دَرِيسِهِ كسَحْقِ اليَمانِي مُعتلِيه نفيسِهِ

ورُقعتهُ تَسْبِي العيونَ وتُعجبُ

ببيضاءَ للبيضِ البَهالِيلِ تَعْتَزِي وتعتَزُّ بالبانِي جَلالاً وتَنْتَزِي
سوى أنَّها بعد الصَّنيع الْمُطَرَّزِ كسَاها البِلى والثُّكل اسمالَ مُعْوِزِ

فتَبْكِي وتُبْكِي الزّائرين وتندبُ

ثم ينقلنا الشاعر إلى ذكرى مدينة عريقة بناها الناصر بن محمد أحد أشهر خلفاء بني أمية، ومجدد دولتهم في القرن الرابع الهجري، ويصفها لنا وصفاً جميلاً حيث هي مكان الأمر والنهي ومركز الخلافة ومقام الخشع المتنسكين، بالإضافة إلى أنها حصنٌ منيعٌ يصعب على أي غادر جشع دخوله، يقول[3]: (الطويل)

وكم لكَ بالزَّهْراءِ من مُتَرَدَّدٍ ووقفةِ مُستَنٍّ الْمَدامعِ مُقْصَدِ
يُسكّنُ من خَفْقِ الْجَوانحِ باليدِ ويهتكُ حُجْبَ النّاصرِ بن مُحَمَّدِ

---

(1) رسائل ابن أبي الخصال الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلس: تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧م، ص ٥١٣، ٥١٤.

(2) المصدر نفسه: ص ٥١٤.

(3) المصدر نفسه: ص ٥١٤.

ولا صَولة تُخشى هناكَ وتُرْهَبُ !

كـــأنْ لم يكن يُقْضى بها النَّهْيُ والأمْرُ ويُجبـــي إلـــى خُزّانِها البَرُّ والبَحْرُ
ويُسْـــفرُ مَخْفُـــوراً بذمّـــتها الفَجْـــرُ ويوسَـــمُ مَخْـــتُوماً بطينَـــتِها الدَّهْرُ

فأيَّامُه تُعْزى إليها وتُنْسَبُ

فـــبعد أن دُمِّـــرت المديـــنة، أخـــذ شاعرنا يسلط الأضواء على ذلك الفن المعماري البديع الذي بنيت فيه القصور في مدينة الزهراء.

فكـــان يجلب إليها الماء من أعالي الجبال، حتى إذا ما دخلت تلك القصور تبصـــر بمسير الماء فيها، ففي قصورهم يسير الماء تحت السقوف ويمشي وأعمدة القصـــر تارة، وأحياناً يهوي على أرضية القصر ليظهر لك وكأنه كواكبُ ونجوم تتساقط على أرضية هذه القصور إنّ هذه القصور رُسمت في نفس الشاعر وكأنها فـــتاة حسناء ناعمة لا يعيبها شيءٌ. بل إن كل ما يحيط بها يزيدها جمالاً وأبهة لا سيما تلك القيان اللائي كُنّ يعملن في تلك القصور.

ومـــا أجمل أن تزين العصافير هذه القصور فتَلحّنُ فيها أنغام الحبّ لتخلق مـــنها موسيقياً يعزف تلك الأنغام. مدويّةً في أرجاء المعمورة، وكأنّها بخوُر يفوح رائحـــة زكية تملأ الآفاق ولكن.. يا للحسرة لقد أصبحت تلك القصور آثاراً دامسة وأطـــلالاً باكـــية، بعد أن ردمتها الأنهار بفيضاناتها. وأي نوع هذه الأنهار، أهي مائـــية، أم بشـــرية بربرية قاهرة؟ وكأني بكليهما قد أصاب هذه المدينة، يقول[1]: (الطويل)

قُصـــورٌ كـــأنَّ الماءَ يَعْشَقُ مَبْنَاها فَطـــوراً يُـــرى تاجاً لمفرقِ أعلاها
وطَوراً يُرى خَلْخالَ أسْوَقِ سُفلاها إذا زَلّ وَهْـــناً عـــن ذوائبِ مَهْواها

تقولُ: هَوى بدرٌ أو انْقضَّ كوكَبُ

أتاهـــا على رَغمِ الجِبالِ الشَّواهِقِ وكُـــلٌّ مُنـــيفٍ للـــنُّجومِ مُـــراهِقِ
وكـــمْ دَفعـــتْ بالصَّدرِ منهُ بعائقِ فـــأودِعَ فـــي أحشـــائِها والْمَفارقِ

([1]) رسائل ابن ابي الخصال: ص٥١٥-٥١٦.

حُساماً بأنْفاسِ الرِّياحِ يُذَرَّبُ

هـــي الْخَوْدُ من قَرْنٍ إلى قَدَمٍ حُسْنا تناصَـــف أقْصاها جَمالاً مع الأدْنى
ودُرّج كـــالأفلاكِ مَبْنىً على مَبْنى تَوافَقْـــنَ في الإتقانِ واختلفَ الْمَعْنى

وأسبابُ هذا الْحُسْنِ قد تتشَعَّبُ

كـــم احتضَنَتْ فيها القيانُ الْمَزاهِرا وكـــم قَدْ أجابَ الطَّيْرُ فيها المَزامِرا
وكم فاوَحتْ فيها الرّياضُ المَجامِرا وكـــم شَـــهِدَتْ فيها الفراقدُ سامِرا

عليهِمْ من الدُّنيا شُعاعٌ مُطَنَّبُ

ومـــا لكَ عن ذاتِ القِسِيِّ النَّواضحِ وناصِـــحَةٍ تُعـــزى قَديمـــاً لناصِحِ
وذي أثَـــرٍ باقٍ على الدَّهْرِ واضحِ يُخَـــبِّرُ عـــن عَهْـــدِ هُـــنالِكَ صالحِ

ويَعْمُر ذِكرى الذّاهبينَ ويخربُ

وبعـــد أن دخلنا قصور الخلفاء، ننتقل إلى قصور أخرى تضاهيها في الدقة والجمـــال بـــناها المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد، فلقد بـــنى المنصـــور قصراً له يتقدم قصر الخلافة مسافة ثلاثة أميال، كان هذا القصر تحدّياً للصحراء، وموئلاً لكل تائه، ومورداً لكلّ وارد، يقول: [1] (الطويل)

وإنَّ لـــــنا بالعَامِـــــريِّ لَمَظْهَـــــرا ومُستَشْـــرفاً يُلْهِـــي العُـــيونَ ومَنْظَرا
ورَوْضاً على شَطَّيْ خُضارة أخْضَرا وجَوْسَـــقَ مُلْـــكٍ قـــد عَـــلا وتجَـــبَّرا

لَهُ تِرَةٌ عندَ السِّماكين تُطْلَبُ

تَخـــيَّرَهُ مـــن عُـــنفوانِ المَـــوارِدِ وأثْبَـــتَهُ فـــي مُلْـــتَقى كُـــلِّ وارِدِ
وأبْـــرَزَهُ للأَرِيَجِـــيِّ المُجـــاهِدِ وكُـــلِّ فَـــتىً عـــن حَوْمَـــةِ الدّين ذائِدِ

حَفِيظَتُهُ في صَدْرِهِ تَتَلَهَّبُ

تَقـــدَّمَ عـــن قَصْـــرِ الخِلافَةِ فَرْسَخا وأصْحَرَ في الأرضِ الفَضاءِ لِيُصْرِخا
فخالَـــتْهُ أرضُ الشِّـــركِ فيها مُنَوِّخا كذلـــك مـــن جـــاس الدّيـــارَ ودوَّخـــا

---

[1] رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥١٧.

فرَوْعَتهُ في الأرْضِ تَسْرِي وتَذْهَبُ

ففي كل هذه الأماكن كانت للشاعر أيام جميلة قضي فيها مع أصحابه أجمل اللحظات،ولكـنّه الآن لا يعلم عنهم شيئاً فلقد غيبوا وغابت أخبارهم معهم، يقول: [1] (الطويل)

وكَـم رَسْـم دَارٍ للأحـبَّةِ قد عَفَا وكـانَ حديـثاً للوفـودِ مُعَـرِّفا

فأصبحَ وحْشَ المُنتدى يُتجَنَّبُ

ولله فـي الـدَّارات ذاتِ المَصانعِ أخِـلاَّءُ صِـدْقٍ كالـنُّجومِ الطَّوالعِ

وسينتقل الشاعر الآن مناواة مدينة ليعلل سبب بعده عنها.

وهـنا لا بد لشاعرنا أن يمدح ليكون له العفو. فنراه يسقي ماء قرطبة لكل أهلهـا فهـو إن لـم يسقَ ماءَها ضمآن. ونراه يعرض بحقها وفضلها عليه وعلى غـيره، فلا أحد ينكر ذلك، كيف وهي منارة للدين والعلم، ارتقت بهما دون سائر المـدن، ليس هذا فحسب، بل كانت موئلا للخلفاء، وساحة كبرى تصارع فيها جلّ ملـوك الطوائف، وساحة حرب، أيضاً تسيل فيها دماء كل من يخالف المُلك فيها، لتستمر الحياة دون دماء في الأجيال اللاحقة، يقول[2]:"(الطويل)

أقُرطُـبَةٌ لـم يَثْنِـي عنكِ سلوانُ ولا بَعْـدَ إخوانـي بمغناكِ إخْوانُ

وإنِّـي إذْ لـم أُسْـقَ ماءَك ظمآنُ ولكـنْ عَداني عنكِ خَطْبٌ له شانُ

ومَوطِـئُ آثارٍ تُعَدّ وتُكتَبُ !

لـكِ الحَقُّ والفضْلُ الذي ليسَ يُدْفَعُ وأنـت لِشَـمْسِ الدِّين والعِلْمِ مَطْلَعُ

ولـولاكِ كـان العِلْمُ بالجهل يُرفَعُ وكُـلُّ التُّقى والهَدْيِ والخيرِ أجمعُ

إليك تَناهى، والحسودُ مُعَذَّبُ !

ألـم تَـكُ خُصَّتْ باختِيار الخَلائف ودانَـتْ لَهُـمْ فيها مُلوكُ الطَّوائف

وعَـضَّ ثِقـافُ المُلْكِ كُلَّ مُخالِفٍ بكـلِّ حُسـامٍ مُرْهَفِ الحدِّ راعِف

([1])رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥١٨.

([2])المصدر نفسه: ص ٥١٩.

به تُحقَنُ الآجالُ طَوْراً وتُسْكَبُ

وعندما حلّ شاعرنا قرطبة كان لابد له من أن يرى كعبتها، نعم إنه الجامع الكبير الذي تدارس فيه المسلمون أمور دينهم، وحلّوا الكثير من مشاكلهم فيه، ولكم زارتــه الوفــود من كل بقاع الأرض، فهو بناء إسلامي رفيع لا مثيل له في تلك البقاع يقول[1]: (الطويل)

إلــى مُلْكِها انقادَ المُلوك وسلَّمُوا وكَعْبَــتَها زارَ الوُفــودُ ويَمَّمُــوا
ومنها استَفادوا شَرْعَهُم وتعلَّمُوا وعــاذُوا بهــا مــن دَهْرِهِمْ وتحرَّمُوا

فنَكَّب عَنْهُم صرفُهُ المُتَسَحِّب

ولــم تكــن قرطــبة إلاّ جســراً لكلّ أمور الدنيا التي يسطر معالمها الدين الإســلامي الــذي يوحِّــد بين الناس من شتى البقاع، وبيتاً رفعت قواعده وأعمدته بالــتقوى من قبل خيار التابعين وأفضلهم، فكان صيتها يملأ الآفاق، وظلّ الإسلام نبراسها على مرّ العصور، ولهذا خاب كل من فكر لها بأذى.

أمــا كرام الناس وأفضلهم (من التابعين) فقد شادوا، وبنوا، وانشأوا كل ما تفخــر بــه قرطــبة من مساجد، وقصور، وقناطر، وغيرها من المباني الصامدة الخــالدة على مر الأجيال، ولذلك يرى ابن أبي الخصال أنّهم قوم يستحقون الثناء والإجلال، يقول[2]: (الطويل)

علوتِ فَما في الحُسْنِ فوقك مُرْتقى هَــواؤُك مختــارٌ وتُــرْبُك مُنْتَقى
وجِسْــرُك للدُّنــيا وللدّيــن مُلْتَقى وبيــتُك مــرفوعُ القَواعِــدِ بالتُّقى

إلى فضلِه الأكْبادُ تُنْضى وتُضْرَبُ

تَولّــى خــيار التّابعيــنَ بــناءَهُ وخَطُّــوا بأطــرافِ العَوالي ثَناءَهُ
ومَــدُّوا طويــلاً صِــيتَهُ وثــناءَهُ فــلا خلــعَ الإســلامُ عــنه بهاءَه

ولا زَالَ سعْيُ الكائِديهِ يُخَيَّبُ !

---

(1) رسائل بن أبي الخصال: ص ٥١٩.

(2) المصدر نفسه: ص ٥١٩.

وتــابع فــيه كــلّ أروعَ أصْــيَدِ طويــل المَعالــي والمكــارم واليَد
فَشــادُوا وزادُوا سَــيِّداً بعد سَيِّد وبــادُوا جَمــيعاً عــن منيعٍ مُخَلَّدِ
يقومُ عَلَيْهِمْ بالثَّناءِ ويَخْطُبُ

ولا بد لهذا البيت (قرطبة) من مصابيح تنيره، ويرى شاعرنا مصابيح هذه المديــنة وكأنهــا نجــوم مشتبكة، تنير سماء قرطبة، وتحفظها من كل لاه "عابث" ويشــبهها بالصقور التي تنقض على الأرض وكأنها نيازك تسقط من السماء، وهنا نلحظ التناص القرآني يقول[1]: (الطويل)

مصَــابيحُهُ مثلُ النُّجومِ الشَّوابك تُمــزّقُ أثْــوابَ اللَّيالِــي الحَوالــك
وتحفَظــهُ مــن كُــلِّ لاهٍ وسالكٍ أجَــادِلُ تــنقَضُّ انقِضــاضَ النّيَازِكِ
فأبْشارُهمْ بالطّبْطبِيَّةِ تُنْهَبُ !

ويصــف لنا ابن أبي الخصال تلك المدينة الإسلامية، وما يحلُّ بها في ليلة القدر في شهر رمضان حيث يأتي الناس إليها من كلّ فج وصوب، فتزخر المدينة بالــناس وتضــاء السروج والمصابيح حتى تصبح وكأنها جبالٌ من الزهور تشع ضــوءاً غــبقاً جميلاً وافراً، ولو أنه كان يستمد نوره من الفجر لفنى وانتهى ذلك النور.

ولا ننســى رائحــة عــود الــنَدّ التي تملأ كلّ أجواء المدينة، فترى أهلها يتنفســونها، وأجســامهم وثــيابهم تفوح بها، ويعيش الناس في تلك الطقوس حتى الصــباح حيــث تقطــف أزهار المصابيح، وتنتهي مراسم ذلك الحفل الديني الذي أحيته المدينة، يقول[2]: (الطويل)

أجــدّك لــم تَشْهَدْ بها لَيْلَةَ القَدْرِ وقد جاشَ مَدُّ النّاسِ منه إلى بَحْرِ
وقد أُسْرِجَتْ فيهِ جبالٌ من الزّهرِ فلو أنَّ ذاكَ النّور يُقْبَسُ من فجْرِ
لأوْشَكَ نور الفجر يَفْنى ويَنْضُبُ

---

(1) رسائل ابن أبي الخصال، ص ٥٢٠ .

(2) المصدر نفسه.

الليالـــي التـــي قضيت في قرطبة ويكون الجواب... لا، وهل يرجع الشباب بعد أن حلّ المشيب، يقول[1]: (الطويل)

وكَـــم كُرْبَةٍ ملءَ الجوانحِ والقَلْبِ طرَقْتُ وقد نامَ المُواسُونَ من صَحْبِي
بِرَوْعَـــتِها مثوى الوَلِيِّ أبي وَهْب ونَاديتُ في التُّربِ المُقَدَّسِ: يا رَبِّي!
فَعُدْتُ كَما يهوى الفؤادُ ويَرْغَبُ

ألا لَيْـــتَ شِـــعري هل تَخُبُّ رِكابُ و هَـــل يتَقاضـــى النَّازحينَ إيابُ
وهَـــل لِلَّيالـــي المُذْنِـــباتِ مَـــتابُ ألا إنَّـــه بَعْـــدَ المَشـــيبِ شَبابُ
وعُمْرٌ إلى رأدِ الغَرارة يُقْلَبُ

فـــإذا انقلبـــت الموازيـــن، وعاده هذا العمر الغرير، سيتذكر ما كان لأهل قرطبة من أثر في نفسه، فهو يراهم أهل خير وشجاعة لا يعرفون للخوف طريقاً، وهـــم أحسن من يرحبون بالجار، ولهذا يطلب من صاحبه (إذا ما حلت منيته قبله) أن يجعل قبره في قرطبة فيجاور أهلها الأخيار، ويأمره بحفظ ذلك العهد لأنه حقاً لا يهوى إلاّ قرطبة، ولا يحب أن يموت بغيرها، يقول[2]: (الطويل)

فـــيا صـــاحِي إن حـــانَ قَبْلَك مَصْرَعِي وكنتَ على عَهْدِ الرِّضى والهوى مَعِي
فخُـــطَّ بضـــاحِي ذلـــك التُّرْبِ مَضْجَعِي وذَرْنـــي فجـــارُ القَـــوْمِ غَـــيْرُ مُرَوَّعِ
فَعِنْدهمُ للجارِ أهْلٌ ومَرْحَبُ

رَعـــى اللهُ مَنْ يَرعَى العُهودَ على النّوى ويـــبدو علـــى القَـــولِ المُحبَّرِ ما نَوى
ولبَّـــيْهِ مـــن مُســـتحكمِ الـــوُدِّ والهَـــوى يـــرى كـــلَّ وادٍ غَـــيْرَ واديهِ مُجْتَوى
وأهْدى سَبِيليهِ الّذي يُتَنكَّبُ

نخلـــص إلى القول: إن ابن أبي الخصال قد امتلك أداة شعرية طيِّعة تمكن بهـــا مـــن خوض غمار الأدب بثلاث من سبله تحت منظومة رئيسية هي الوصف والغزل والرثاء.

([1]) رسائل بن أبي الخصال: ص ٥٢١.

([2]) المصدر نفسه: ص ٥٢٢.

فقد تغزل بقرطبة تارة، ورثاها تارة أخرى، وتارة ثالثة وصفها وصفاً دقيقاً. كل هذا جاء تحت منظومة سار عليها من البداية. وهي تصوير معالم قرطبة ووصف آثارها، فبعد أن تحدث عن جل معالمها انتقل إلى قرطبة ليفتح ذراعيه أمامها متغزلاً، وليحدق البصر بها واصفاً، وليذرف الدمع شوقاً إليها راثياً.

أما ابن شهيد (أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن شهيد (ت ٤٢٦) فقد تحدّث في ديوانه مصوراً العديد من معالم قرطبة منها باب اليهود، يقول[١]: واصفاً باب اليهود "والذي يقع في خارجه حائر الزجالي" بقرطبة" (المتقارب)

لقد أطْلَعُوا عِنْدَ بابِ اليَهُو ... دِشَمْساً أَبَى الحُسْنُ أنْ تُكْسَفَا
تَراهُ اليَهُودُ على بابِهَا ... أَميراً فَتَحْسَبُهُ يُوسُفَا

ويقول أبو عامر في قصيدة "رثاء قرطبة" في الأبيات (١٤-١٨) [٢]: (الكامل)

والقَصْرُ قَصْرُ بَنى أُمَيّةَ وافِرٌ ... من كُلِّ أَمْرٍ والخِلافةُ أوْفَرُ
والزاهِرِيَّةُ بالمَراكِبِ تُزْهِرُ ... والعامِرِيّةُ بالكَواكِبِ تُعْمَرُ
والجامِعُ الأَعْلَى يغصُّ بكُلِّ مَن ... يتلو ويَسْمَعُ ما يَشاءُ ويَنْظُرُ
ومسالِكُ الأَسْواقِ تشهد أنَّها ... لا يَستَقِلُّ بسالِكيها المَحْشَرُ

ويصف في هذه الأبيات قصور بني أمية، التي زخرت بجميع الأمور وعلى رأسها الخلافة، ويورد لنا أيضاً "الزاهرة" وكذلك "العامرية" ويتحدث أيضاً عن الجامع الكبير الذي يمتلئ بالمصلّين، والقارئين لكتاب الله، والسامعين، وكذلك بالزوار الناظرين لإبداع بنائه، ومن هنا نلمح قوة العلاقة التي تربط الشاعر بمدينته وأثر تلك المدينة المستحق في وجدان الشاعر.

ويتحدث الشاعر "ابن عمار" ت٤٧٧هـ عن "قصر الدمشق"، وهو قصر شيّده بنو أمية، وأبدعوا فيه، ونمقوا ساحاته، وجعلوه من الجمال ما يضاهي قصرهم بالمشرق، يقول صاحب القلائد: "إنّ ابن عمار قد "حلّ ذلك القصر، والدنيا قد أعطته عفوها، وسقته صفوها، وبات فيه مع لمةً من اتباعه، كلهم يحيونه

---

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي: جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه د. محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٠.

بكـــأس، ويفدونه بنفوسهم من كل بأس، فطابت له تلك الليلة، وأطربه بسيط الأنس ومديده فقال[1]: (الخفيف)

كـــلُّ قَصْـــرٍ بعـــد الدمشـــق يُـــذَمُّ ... فـــيه طـــابَ الجَـــنى وفاح المشمُّ
مـــنظرٌ رائـــقٌ، ومـــاءٌ نمـــيرٌ ... وثـــرىً عاطـــرٌ، وقصـــر أشَـــمُّ
بِـــتُّ فـــيه واللـــيلُ والفجرُ عندي ... عَنْـــبرٌ أشـــهبٌ ومســـكٌ أحـــمُّ"

ولقد مر الشاعر الوزير أبو محمد بن الجبير (ت ٥١٨هـ) على دار الملك بقرطـــبة المطلةً على النهر بعد أن أصبح إماماً، فرأى خيلاً معَيبَةً في أعلى الدار فقال مندهشاً مستغرباً هذا المنظر[2]: (الوافر)

بـــدَارِ المُلْـــكِ مـــن صَرْفِ الزَّمانِ ... حـــوادثُ تَجْتَلـــيهَا الـــنَّاظِران
تَبَدَّلـــتِ الحوافِـــرُ مـــن خـــدودٍ ... وغُـــرُّ الخَـــيْلِ مِـــنْ غُرِّ الغَوَاني
مَطـــالِعُ أَوْجُـــهِ الغـــيدِ الحِسَـــانِ ... غُضِضْـــنَ بكُـــلِّ يَعْـــبُوبٍ حَصانِ
كـــأَنَّ نُســـورَ أَيْديهـــنَّ فـــيها ... يَطَـــأْنَ غُـــرابَ عَيْنِـــي أَوْجَنَاني

وفـــي الـــنفح يـــورد المقّري عدداً من الشعراء الذين صوروا معالم قرطبة ووصفوها.

مـــنهم الشـــاعر قاســـم بـــن عَـــبّود الرياحي حيث يذكر لنا متنزه الخلفاء المروانييـــن الذي بني في منية الرصافة في شمال غرب قرطبة (قصر الرصافة)، ويذكـــره لـــنا مـــن خلال حادثة حصلت مع أبي الحسن المريني (الوشاح المبرز) يذكـــرها لوالد ابن سعيد، يقول[3]: بينما أنا أشرب مع ندماني بإزاء الرصافة إذا بإنسان رث الثياب، مجفوّ الطلعة، قد جاء فجلس معنا فقلنا له: ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة؟ فقال:

---

(1)ابـــن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١-٢، ص ٢٥٥. وانظر التلمساني: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٧٠، ٦٧٦.

(2)ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١-٢، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(3)التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الاول، ص ٤٦٨-٤٦٩.

لا تعجلـــوا علـــيَّ، ثـــمَّ فكـــر قلـــيلاً ورفـــع رأســـه

فأنشدنا[1]: (الخفيف)

اسْـــقنيها إزاء قصـــر الرُّصـــافهْ ... واعتَـبْر فـي مـآلِ أمرِ الخلافَهْ

وانظـر الأفـق كـيف بُدّل أرضاً ... كـي يطـيلَ اللبيـبُ فيه اعترافهْ

ويَـرى أن كـلَّ مـا هـو فـيه ... مِـن نعـيمٍ وعـزِّ أمـرٍ سَخافهْ

كـلُّ شـيء رأيْـته غـيرَ شـيء ... مـا خـلا لـذةَ الهوى والسُّلافهْ

فقـام المرينـي بعد أن سمع هذا وقبّل رأسه، وقال: إنَّ العقلاء لتعجز عن شـعرك.. علـى الـرغم مـن أن الناس يزعمون بأنه موسوس أحمق، وبعد ذلك نادمهم، وأنشد لهم حتى غادرهم، وقد أخذ السكر به ما أخذ.

ومـن الشـعراء الذين تحدثوا عن "السد والمنبر" أبو الحسن المريني وهو يـرى أن تذكره لأيام الصبا التي قضاها بالسد والمنبر أصبح مفروضاً عليه، لأن شوقه يتأجج إليها، ويصف لنا جمال ذلك المكان وروعته، ويطلب من صاحبه في نهاية الموشحة أن يبلغ سلامه لقصر الرصافة ودار الخلافة.

يقول[2]: (مخلع البسيط)

فـي نغمـة العـود والسُّـلافهْ ... والـروض والـنهر والـنديمْ

أطـال مـن لامنـي خلافـهْ ... فظـلّ فـي نصـحه مُلِـيمْ

دَعْنـي علـى مـنهج التّصـابي ... مـا قـامَ لـي العـذرُ بالشّـبابْ

ولا تُطـلْ فـي المُـنى عِتابـي ... فلَسْـتُ أصْـغي إلـى عِـتابْ

لا تَـرْجُ ردّي إلـى صـواب ... والكـأسُ تفـترُّ عـن حُـبابْ

والغُصْـنُ يُـبدِي لـنا انعطافـهْ ... إذا هَفـا فوْقـه النسـيمْ

والـرّوْض أهـدى لَـنا قِطافـهْ ... واختـال فـي بُـرْدِهِ الرقـيمْ

يـا حَـبّذا عهـديَ القديـمُ ... ومـن بـه همـتُ مُسْـعِدي

ريـمٌ عـن الوصْـل لا يَـريمُ ... مُوَلَّـعٌ بالـتوَدُّدِ

([1]) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٦٨-٤٦٩.

([2]) المصدر نفسه، ص٤٧٦-٤٧٨.

مـــا تـــمّ إلاّ بـــهِ النعـــيمُ ... طوعـــاً علـــى رغـــم حُسّـــدِي
مُعْـــتدلُ القـــدّ ذو نَحافـــهْ ... أسْـــقمني طَـــرْفُه الســـقيْم
ورام طرْفـــي بـــه انْتصـــافهْ ... فخـــدّ فـــي خـــدّه الكلـــيْم
غَـضُّ الصِّـبا عاطـرُ المقـبَّلْ ... أحلـى مـن الأمْـن والأمـلْ
ظامـي الحشـا مُفْعَـمُ المخلخـلْ ... حُلـو اللّمـى سـاحرُ المقـلْ
لكـل مـن رامـه توَصَّـلْ ... لـم يخـش ردّاً بمـا فعـلْ
أشـكو فيُـبدي لـيَ اعـترافهْ ... إن حـاد عـن نهجـه القويـمْ
لا أعـدَمُ الدهـر فـيه رافـهْ ... فحـقّ لـي فـيهِ أن أهـيمْ
لله عصـرٌ لَـنا تقضّـي ... بالسّـدّ والمنـبر البهـيجْ
أرى ادّكـاري إلَـيْه فرضـا ... وشـوقه دائمـاً يهـيجْ
فكـم خلعْـنا علـيه غَمْضـا ... وللصَّـبا مسـرحٌ أريـجْ
وردّ أطـال المُـنى ارتشـافَهْ ... حـتى انقضـى شـربه الكـريمْ
لله مـا أسْـرَع انحـرافهْ ... وهكـذا الدهـرُ لا يديـمْ
يـا مَـنْ يحـثّ المطـيَّ غـربا ... عـرّجْ علـى حضـرةِ الملـوك
وانـثر بهـا إن سَـفَحْت غَـرْبا ... مـن مدمـع عـاطل سـلوك
واسـمع إلـى مـن أقـام صـبّا ... واحـكِ صـداه لا فُـضَّ فـوك
بَلّـغ سـلامي قصـر الرَّصـافهْ ... وذكّـرُ عهـديَ القديـم
وحـيّ عنـيّ دار الخلافـهْ ... وقـفْ بهـا وقفـة الغـريم

ومـن المعالم القرطبية الزاهية "منية الزبير"[1]، ولقد وصفها لنا الشاعر أبو بكـر بـن بقـي(ت ٥٤٠ هـ) فـي أيـام تفـتح أزهار اللوز يقول فيها: [2]

(لبسيط)

سَـطْرٌ من اللوز في البُستان قابلَني ... ما زادَ شيء على شيء ولا نَقصا
كأنّمـا كـلُّ غُصْـنٍ كُـمُّ جارية ... إذا النسـيمُ ثَـنى أعْطافه رقَصا

---

(1) الزبير بت عمر المثلم: هو ملك قرطبة من ولاة الملثمين المرابطين.

(2) التلمساني، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول،ص٤٧١-٤٧٢.

ثم قال: (الطويل)

عجبتُ لمن أبقَى على خمَرِ دنّه غَـداة رأى لَـوْز الحديقـة نوَّرا

وقال (الطويل)

سـقى الله بُسـتانَ الزبـير، ودام في مجاريـه سيل النّهر ما غَنّتِ الوُرْقُ

فكائـنْ لـنا مـن نعمـة فـي جَنابه كـبزّتِه الخضـراء طالعُهـا طَلْقُ

هو الموضعُ الزاهي على كل مَوْضع أمـا ظلّـهُ ضـافٍ أمـا ماؤه دَفْقُ

أهِـيمُ بـه فـي حالة القُرْب والنوى وحُـقّ له منّـي الـتذكّرُ والعِشْـقُ

ومِـنْ ذلـك الـنّهر الخفوقِ فُؤاده بقلبـيَ مـا غُيِّبْتُ عن وَجْهه خَفَقُ

ويرى ابن بقي هذا المكان أزهى مكان في قرطبة بظله ومائه الذي يتذكره دائماً، وهو يعشق ذلك البستان، ويخفق قلبه له كلما سمع جريان مياه النهر فيه.

ويصـف أبو الحسين بن الوزير أبي جعفر الوقشي يوماً له ولأصحابه في مرج الخز (المرج النضير)، وكانت تسبح أمامهم إوز قائلاً[1]: (البسيط)

لله يـوم بِمَـرْج الخـزّ طـابَ لَنا فـيه النعيمُ بحيث الروض والنَّهَرُ

ولـلإوزّ عَلـى أرْجائـهِ لعـبٌ إذا جـرتْ بُـددَتْ ما بيننا الدُّرَرُ

والشـمسُ تجـنحُ نحو البين مائلةً كـأنّ عاشـقها في الغربِ ينتظرُ

والكـأسُ جائلـةٌ باللـبّ حائـرةٌ وكُلـنّا غفـلاتِ الدهـر نبـتدرُ

فرد عليه والد ابن سعيد قائلاً[2]: (الطويل)

ألا حـبّذا يَـوْمٌ ظَفـرْنا بِطيـبه بأكـناف مـرْج الخزّ والنهر يَبْسمُ

وقـد مَرِحـت فيه الإوزّ، وأرسلت علـى سُـندُسٍ دُرّاً بـه يَتَـنظّمُ

ومُـدَّ بـه للشـمس فَهْـوَ كأنّـه لـثامٌ لهـا مُلقىً من النّور معصمُ

أدرْنـا علـيه أكؤسـاً بعثـتْ بـه مـن الأنـس مَيـتاً عاد وهو يُكلَّمُ

غدوْنـا إلَـيْهِ صـامتين سـكينةً فرُحْـنا وكـلّ بـالهوى يـترنّمُ

---

(1) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ٤٧٤.

(2) المصدر نفسه .

ومـــن متـــنزهات قرطـــبة "فحص السرادق" الذي يقع في الطرف الشرقي للمدينة ولقد وصفه الشريف الأصم القرطبي قائلاً[1]: (الطويل)

ألا فَدَعُـــوا ذكـــر العُذَيْـــبِ وبـــارقِ ... ولا تسأموا من ذكرِ فَحصِ السرادقِ
مجـــرُّ ذيـــول السُّـــكرِ من كلّ مُتْرف ... ومجرى الكؤوسِ المترعات السّوابقِ
قصَّرتُ عليه اللّحْظَ ما دُمْتُ حاَضِراً ... وفِكـــريَ فـــي غَيْـــبٍ لمرْآه شائقي
أيـــا طيـــبَ أيّـــام تقضّـــتْ بروْضةٍ ... علـــى لمـــح غُـــدْرانٍ وشـــمّ حدائقِ
إذا غـــرَّدَتْ فِـــيها حَمـــائمُ دوْحِهـــا ... تخيّلـــتْها الكُـــتّابَ بيـــنَ المهـــارقِ
ومـــا باختيار الطّرفِ فارقْتُ حُسنْها ... ولكـــن بكـــيدٍ مـــن زمـــانٍ مُنافقِ

وهـــو يرى أن هذا الفحص مكان يجتمع فيه كل من يرى في الكأس عنواناً لـــترفه ورقي حياته، وهو دائم الجلوس فيه، وأن غاب بات في شوق لرؤيته، فهو يتحسر على تلك الأيام التي قضاها بذلك الفحص؛ ففراقه له لم يكن باختياره، ولكن لكيد ذلك الزمان المنافق الخداع.

مـــن هـــنا نرى أن الشاعر يريد أن يلغي حياة البادية والصحراء (العذيب، بارق) وينتقل إلى حياة التحضر (الخمرة) في قرطبة، ولهذا شكلت المدينة هنا ذلك الأمل المنشود الذي يسعى إليه الريفيّ (البدويّ).

وأخيراً يذكر لنا السميسر (أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري) الزهراء في رثائه لها، باكياً عليها لما حلّ فيها من دمار يقول[2]: (الكامل)

وَقَفْـــتُ بالزَّهـــراء مُسْـــتَعْبِراً ... مُعْتَـــبِراً أنـــدُبُ أشْـــتاتا
فقلـــت: يـــا زهـــرا ألا فارْجِعي ... قالـــت: وهـــل يـــرجع مَنْ ماتا؟
فلـــم أزل أبْكـــي وأُبْكـــي بهـــا ... هـــيهاتَ يُغنـــي الدمـــعُ هـــيهاتا
كأنَّمـــا آثـــار مَـــنْ قـــد مضى ... نـــــوادبٌ يندبـــــنَ أمواتـــــاً

([1]) التلمساني، نفخ الطيب من غضن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٧١-٤٧٢.

([2]) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول ٥٢٧-٥٢٨.

الحدث جللُ، والخطبُ وخيم، مدينة عنوانها الدمار والهلاك، وشاعرنا يقف علـــى أطلالها مستعبراً، يندب كل من شتت شمله من أصحابه قاطعاً الأمل بعودة الزهـــراء كما كانت.. لأن شبح الدمار ما زال يهددها.. فكل من يحل فيها يند بها، حتى آثار أولئك الذين قد ترسم أرواحهم الأمل المنشود.

وقـــد حـــاول العديد من الشعراء أن يصفوا قرطبة، هذه المدينة التي بلغت بحضارتها مبلغاً عظيماً جعلها تسمو على غيرها بكل ما تحمله من معاني الصمود والرقي على مر العصور.

ولقـــد اهتمـــت قصـــائد شعراء القرن الخامس الهجري بهذا الاتجاه فجاء وصـــفهم لقرطبة – على الأغلب– بين القصائد التي حاولوا أن يبرزوا فيها معالم قرطـــبة وآثارهـــا والتي خلّدت في نفوسهم أثراً عميقاً، وزرعت في قلوبهم ثمرة الحب والفخر بهذه المدينة الرائعة.

ولهـــذا نرى شاعرنا أبا الخصال يصف قرطبة ويتحدث عن مدى تعلقه بها بعد أن يصور لنا معالم قرطبة، ويصوّر جمالها ورقيّها.

ولعلـــه يبدأ بذلك الوصف معتذراً لتلك الحبيبة قرطبة عن نأيه وبعده عنها، موضـــحاً بأن سبب ذلك البعد لم يكن إلا لأمر عظيم، لم يفصح عنه، ولهذا يتودد إليها قائلاً[1] (الطويل)

أقُرطُـــبَةٌ لـــم يَثْنِنـــي عـــنكِ سلوانُ ولا بَعْـــدَ إخوانـــي بمغناكِ إخْوانُ
وإنِّـــي إذْ لـــم أُسْـــقَ مـــاءَك ظمآنُ ولكنْ عَداني عنكِ خَطْبٌ له شانُ
ومَوطِـئُ آثارٍ تُعَدّ وتُكتَبُ !
لـــكِ الحَـــقُّ والفضلُ الذي ليسَ يُدْفَعُ وأنـــت لشَمْسِ الدِّين والعِلْمِ مَطْلَعُ
ولـــولاكِ كـــان العِلْـــمُ بالجهل يُرفَعُ وكُلُّ التُّقى والهَدْيِ والخيرِ أجمعُ
إليك تَناهى، والحسودُ مُعَذَّبُ !

فهي شريان الحياة الدائم، وشمس العلم، الساطعة ونور الدين المنير.

---

(1) رسائل بن أبي الخصال : ص ٥١٩.

وحق لابن أبي الخصال ذلك القول؛ لأن لقرطبة أفضالاً وحقوقاً كثيرة على أهلها، بما تمنُّ عليهم من رقي حضارتها، ولهذا يجب أن لا يسمح أهلها لأيِّ حاسد أن يدوس أرضها وأن يشرب ماءها، يقول[1] (الطويل)

ألـم تَـكُ خُصَّتْ باخْتِيار الخَلائف ... ودانَـتْ لَهُـمْ فيها مُلوكُ الطَّوائف
وعَـضَّ ثِقـافُ المُلْكِ كُلَّ مَخالِفٍ ... بكُـلِّ حُسامٍ مُرْهَفِ الحدِّ راعِف
به تُحقَنُ الآجالُ طَوْراً وتُسْكَبُ

إلـى مُلْكِهـا انقادَ المُلوك وسلَّمُوا ... وكَعْبَـتَها زارَ الوُفـودُ ويَمَّمُـوا
ومـنها اسـتَفادوا شَرْعَهُم وتعلَّمُوا ... وعـاذُوا بها من دَهْرِهِمْ وتحرَّمُوا
فنَكَّب عَنْهُم صرفُهُ المُتَسَحِّب

فهـي سـاحة عظـيمة تصارع على أرضها أجلّ الملوك وأعظمهم، فكان عريـنها مهـداً تقلب على جنبيه العديد من الأمراء والخلفاء، وعرشاً تزاحم على الجلوس على كرسيه أجلّ ملوك الطوائف.

أمّا مسجدها فهو (كعبة) أهل الأندلس، ومنبع دينهم وشرائعهم، وهو مدرسة أهل الدين وجامعتهم.

ولهذا ارتقت قرطبة واعتلت في موازين الحسن والجمال إلى درجة لم تعلُها أيـة مديـنة أخرى، فهي حسنة الهواء والارض، ليس هذا فحسب بل، إنّ قواعد بيتها قد أسست بالتقى على أيدي خيار التابعين.

ولقـد تـتابع على بنائها وتشييدها الكثير من الأمراء والملوك، الذين ماتوا وخلفـوا وراءهم صروحاً شامخة، وإذا ما نظر العاقل إلى صنعهم رأى أن أولئك الصناديد يستحقون الثناء والتعظيم، يقول[2] (الطويل)

علـوتِ فَما في الحُسْنِ فوقك مُرْتقى ... هَـواؤُك مخـتارٌ وتُـرْبُكِ مُنْتَقى
وجِسْـرُك للدُّنـيا وللدِّيـن مُلْـتقى ... وبيـتُك مـرفوعُ القَواعِـدِ بالتُّقى

---

(1) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥١٩.

(2) المصدر نفسه: ص ٥١٩-٥٢٠.

إلى فضْله الأكْبادُ تُنْضى وتُضْرَبُ

تَولّـــى خـــيار التّابعيـــنَ بـــناءَهُ وخَطُّـــوا بأطـــرافِ العَوالي ثَناءَهُ
ومَـــدُّوا طويـــلاً صِـــيتَهُ وثـــناءَهُ فـــلا خلـــعَ الإســـلامُ عـــنه بهاءَه

ولا زَالَ سعْيُ الكائِديهِ يُخَيَّبُ !

وتـــابع فـــيه كـــلَّ أروعَ أصْـــيَدِ طويـــل المَعالـــي والمكـــارم واليَدِ
فَشـــادُوا وزادُوا سَـــيِّداً بعـــد سَيِّد وبـــادُوا جَمـــيعاً عـــن منيعٍ مُخَلَّدِ

يقومُ عَلَيْهِمْ بالثَّناءِ ويَخْطُبُ

وتعد المصابيح -التي أصبحت كالنجوم تضيء كل سماء المدينة- من أهم ما شيد أولئك الملوك، ويتابع شاعرنا واصفاً لنا قرطبة ومصابيحها إذا ما حلت بها ليلة القدر.

وهـــنا يصبح ليلها نهاراً وتفوح فيها رائحة عود الند الذي يعبّ دخانه حتى يمـــلأ الآفـــاق، فتراه يخترق كل جسم وكل ملبس، وتستمر أهازيج هذه الليلة حتى الصـــباح. وشـــاعرنا ما زال يصف لنا هذا وهو ممتليء نشوةً وفرحاً، وكأنه يحيا أحلى أيام عمره، تزداد فرحته وتكبر، ويتأجج شوقه ويشتعل ليصرخ قائلاً: سلام، يقول[1]: (الطويل)

مصَـــابيحُهُ مـــثلُ الـــنُّجومِ الثَّـــوابكِ تُمـــزّقُ أثْـــوابَ اللَّيالِي الحَوالك
وتحفَظُـــهُ مـــن كُـــلِّ لاهٍ وســـالكِ أجَـــادِلُ تنقَضُّ انقِضاضَ النّيَازِكِ

فأبْشارُهمْ بالطّبْطبيَّةِ تُنْهَبُ !

أجـــدّك لـــم تَشْـــهَدْ بهـــا لَـــيْلَةَ القَدْرِ وقد جاشَ مَدُّ النّاسِ منه إلى بَحْرِ
وقـــد أُسْـــرِجَتْ فيهِ جبالٌ من الزّهرِ فلو أنَّ ذاكَ النّور يُقْبَسُ من فجْرِ

لأوْشَكَ نور الفجر يَفْنى

إلـــى أنْ تـــبَدَّتْ رايَةُ الفَجْرِ تزحفُ وقـــد قُضِيَ الفَرْصُ الذي لا يُسَوّفُ
تَولَّـــوا وأزْهـــارُ المَصـــابيح تُقْطَفُ وأبْصارُها صَوْنَا تُغَضُّ وتُخْطَفُ

كما تُنصَلُ الأرْماحُ ثُمَّ تُرَكَّبُ

سَـــلامٌ علـــى صَحْرائها وقُصورِها ســـلامٌ علـــى أوْطانهـــا وقـــبورِها
سَـــلامٌ علـــى غُـــيّابِها وحُضـــورِها ولا زَالَ سُورُ اللهِ من دون سُورِها

([1]) رسائل ابن أبي الخصال: ٥٢٠-٥٢١.

فَحْسْنُ دِفَاعِ اللهِ أحْمى وأرْهَبُ

فســـلام على صحرائها، وسلام على قصورها، وسلام على أوطانها(مدنها وقراها) وسلام على قبورها، وسلام على غيّابها، وسلام على حضورها ولكن هل تستحق قرطبة هذا السلام كله؟!

ولذا يعلّل الشاعر ذلك بقوله:

بأنهـــا مديـــنة مقدســـة جليلة تعهد الله بحمايتها، وهي مدينة تحترم كل من يعشقها وترفعه إلى أعلى المراتب.

وتشفع لكل ساكنيها، وتغيثهم. وترفع الظلم عنهم، ويقبل الدعاء لكل ساكنيها فأهلها قريبون من الله محبوبون عنده، يقول[1] (الطويل)

ففـــي ظَهـــرها المعشوقِ كُلُّ مُرَفَّعِ وفـــي بطنها المَنْشُوقِ كلُّ مُشَفَّعِ

مَـــتى تَأتِـــهِ شَـــكْوى الظُّلامةِ تُرْفَعِ وكُـــلّ بعـــيدِ المُسْـــتَغَاثِ مُدَفَّعِ

من اللهِ في تلكَ المَواطن يَقْرُبُ

ويجـــدد الشـــاعر ولاءه لقرطبة طالباً من صاحبه أن يجعل قبره فيها، فنعم المحل هي ونعم المقام، ونعم الجار أيضاً.

فـــيا صـــاحِي إن حانَ قَبْلَك مَصْرعِي وكنتَ على عَهْدِ الرِّضى والهوى مَعِي

فخُـــطَّ بضـــاحِي ذلك التُّرْبِ مَضْجَعِي وذَرْنـــي فجـــارُ القَـــوْمِ غَـــيْرُ مُرَوَّعِ

فَعِنْدهمُ للجارِ أهْلٌ ومَرْحَبُ

أمـــا شـــاعر الطبيعة والوصف "ابن خفاجة" فلقد تغنى بقرطبة واصفاً إياها ببلد العلم والفتيات الحسان.

فقد نشأت منارة العلم فيها على أساس متين، قوامه الدين الإسلامي الأنيس، وكتب ابن خفاجة هذه القصيدة إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين يســـأله الشفاعة لصديق من أهل الجزيرة، وتحتوي هذه القصيدة المكونة من اثنين وأربعين بيتاً على أربعة أبيات يطلب فيها ابن خفاجة من ابن حمدين أن يحسن إلى قرطبة، بلد العلم، والجاه بلد العز والكبرياء، يقول[2]: (الكامل)

([1]) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٢٠-٥٢١.

([2]) ديوان ابن خفاجه: تحقق سيد غازي ،ط٢، ١٩٧٩ ،ص٢٢٨-٢٣٠.

أَحْسَنْ بِقُرْطُبَةٍ وَقَدْ حَمَلَتْ بِهِ ... حُسْنَ الفَتَاةِ ولِينَ خُلْقِ العَانِسِ
وَتَتَوَّجَتْ بِمَنَارِ عِلْمٍ سَاطِعٍ ... قَدْ قَامَ فَوْقَ قَرَارِ دينٍ آنِسِ
وتَخَايَلَتْ عِزّاً بِهِ فِي عِصْمَةٍ ... صَحَّتْ بِهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ناخِسِ
تُزْهَى بِرَيْطٍ لِلصَّبِيحَةِ أَبْيَضٍ ... يَنْدَى وبُرْدٍ لِلعَشِيَّةِ وَارِسِ

وقد خاطب الاستاذ الأديب أبو القاسم بن العطّار صاحب كتاب القلائد عند رحيله إلى قرطبة مقارناً بين اشبيلية وقرطبة قائلاً[1]: (الوافر)

كَتَبْتُ إليك يا ربَّ الكتابَهْ ... حروفاً خطَّها قلم المَهَابَهْ
وبَيْنَ جَوانحي للشَّوْقِ نَارٌ ... تجوّلُ بَيْنَ أَجْفَانِي سَحَابَهْ
لَئِنْ تَاهَتْ بِكَ الدُّنْيا بهاءً ... لَقَدْ هامَتْ بِكَ العُلْيَا صُبابه
بقُرطُبَةَ البَيَانُ تَعُبُّ عباً ... ولَيْسَ بمِصْرِنا مِنْهُ صُبَابَهْ
ولَوْ رَفَعَتْ عُيونُ المَجْدِ بَنْداً ... تَلَقَّى مِنْكَ رايَتَها عَرابَهْ
عَبَرْتَ إلى المكارمِ بَحْرَ بِيدٍ ... عَلَى وَجْناءَ سارِيةٍ سَحابَهْ
وأَمَّا حِمْصُ مُنْذُ رَحَلْتَ عَنْهَا ... فَيَأْبَى وَجْهُهَا إلاّ كآبَهْ

وهنا يرى ابن العطار قرطبة أغزر بقاع الأندلس علماً وبياناً، فهي قاعدة البيان ومنارة المجد وسحابة الكرم والسخاء، وهي منبع العلم الذي لا ينضب، وهو يعزي ذلك كلّه إلى وجود ابن خاقان فيها، فمنذ خروجه من إشبيلية إلى قرطبة لم يعد يبشر وجهها إلا بالكآبة، ولهذا ارتحل ابن العطار وراءه إلى بحر العلم والمجد قرطبة.

ويحاول ابن شرف القيرواني من خلال مدحه للأمين بن السقّاء[2] مدبّر الدولة الجهورية بقرطبة "أن يصور لنا حال قرطبة، عندما حلت عليها الفتنة سنة (٣٩٩هـ) ، مشبّهاً إياها بمدينة القيروان بعد أن غزتها بعض القبائل من أعراب بني هلال، بأمر من الفاطميين في مصر، رداً على استقلال المعز عنهم، كقبيلتي زغبة ورياح، فلقد فتك هؤلاء بالقيروان ودمروا ما دمروا، وتركوها وراءهم يبابا

---

(١)ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤، ص ٨٨٣-٨٨٤.

(٢) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء: استعان به الوليد بن جهور في إدارة شؤون الدولة ولكنه لم يفلح في ذلك وحاول الاستيلاء على السلطة من بني جهور ولكنهم قضوا عليه بعد=

وهـــــذا مـــــا حـــــلَّ بقرطـــــبة أيـــــام الفتـــــنة،

يقول[1]: (الوافر التام)

فَـــيا أخَـــوَيَّ مـــن أسَـــدٍ وسَـــعْدٍ ... أحـــيٌّ حـــيٌّ زُغْـــبَةَ أمْ دَفِيـــنُ؟

فـــلا اشـــتَمَلَتْ مســـاكِنُها بشَـــمْلٍ ... ولا هَـــذَا القَـــرَارُ بـــهِ سُـــكُونُ

ولا سَـــرَتِ الـــرِّياحُ علـــى رِيـــاحٍ ... لواقِـــحَ مُـــزْنَةٍ أنَّـــى تَكُـــونُ

فقَـــدْ دَارَتْ عَلَيْـــنَا مِـــنْ رَحَاهَـــا ... طَحُـــونٌ كـــلَّ مـــا لاقَـــتْ زَبُونُ

فَـــلاَ وَطَـــنٌ لَـــنَا إلاَّ المَطَايَـــا ... وإلاَّ المَـــاءُ طَـــوْراً والسَّـــفِينُ

لَعَلَّـــكَ أيُّهَـــا الـــبَرْقُ اليَمَانِـــي ... إذَا كَشَّـــفْتَ عـــن خَـــبَرٍ تَبِيـــنُ

أفِـــي وُكُـــنَاتِهَا عُقْـــبَانُ قَـــوْمٍ ... كَعهْـــدِي أمْ خَلَـــتْ منهَا الوُكُونُ

وبيْـــن قِـــبَابِ صَـــبْرَةَ والمُصَـــلَّى ... نُهَـــى ومَهًـــا وآسَـــادٌ وعِيـــنُ

وأجْـــبالٌ تمـــورُ بَهـــا المَذَاكِـــي ... وأقمـــارٌ تَمِـــيسُ بَهـــا الغُصُـــونُ

وقُرْطُـــبَةٌ أُعِـــيدَتْ قَـــيْرَوَاناً ... لَـــنا لَمَّـــا دَهَـــتْ تلـــكَ الفُـــتُونُ

وكـــيفَ يضـــيعُ مِـــثْلِي فـــي مكانٍ ... يكـــونُ بِـــهِ أبـــو الحَسَـــنِ الأمينُ

أيأمَـــنُ أن تكـــونَ الـــنُّونُ رَاءً ... وقَـــدْ وَجَبَـــتْ لَـــهُ رَاءٌ ونـــونُ

فهذه النونية لم تكن إلاّ لحنَ نشيده وقيثارة إلهام عزف عليها الشاعر ألحان الحزن والشوق لقرطبة باكياً ما أحلَّ بها.

وفـــي "الـــنفح" نـــرى القاضـــي أبـــا الفضل عيّاض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـــ) يصور لنا مشهد ارتحاله عن قرطبة بعد أن يحدثنا عن أبرز ملامح العلاقات الاجتماعية التي عاشها بين أهل قرطبة فلقد ودّهُ أصحابه، وحماه جيرانه، وبـــرّوا بـــه حتى أصبح يشعر أنه يعيش بين أهله وأقاربه، ولهذا نراه يخرج منها

= أن ضج الناس من قسوته. انظر ديوان ابن شرف القيرواني ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني (٣٩٠-٤٦٠هـــ) تحقيق الدكتور حسن ذكرى حسن، نشر مكتبة الكليّات، الأزهرية، ص ١٠٦ (الحاشية).

(1) ديوان ابن شرف القيرواني: ص ١٠٦-١٠٧.

مودعاً أهلها بالدموع الغزار وبالقلب الحزين، داعياً الله أن يرعى جيرانه فيها وأن يسكب عليهم غيوماً سكوباً غزاراً يقول[1]: (الطويل)

أَقــولُ وَقَــدْ جَــدَّ ارْتحالي وغرَّدتْ ... حُدَاتــي وزُمَّــتْ للفــراقِ رَكائبي
وقَــدْ غَمضَتْ مِنْ كَثْرةِ الدَّمع مُقْلَتي ... وصــارَتْ هواءً من فُؤادي ترائبي
ولَــمْ تَــبْقَ إلاَّ وَقْفَــةٌ يَسْــتَحثُّها ... وَداعــيَ للأَحْــبابِ لا للحبائــبِ
رَعَــى اللهُ جــيراناً بقُرطُبَةَ العُلَى ... وَسَــقَّى رُبَاهــا بالعهــاد السَّواكبِ
وَحــيَّا زمانــاً بَيْــنَهُمْ قَــدْ ألفْــتُهُ ... طلــيقَ المُحَــيَّا مُسْتَلانَ الجوانبِ
أَإخوانَــنَا بــاللهِ فــيها تَذَكَّــروا ... مَعَــاهِدَ جــارٍ أَوْ مَــوَدَّةَ صاحبِ
غَــدَوْتُ بهِــمْ مِنْ برّهمْ واحْتفائهم ... كَأَنِّــيَ فــي أَهْلــي وبَيْنَ أقاربي

أمــا الشاعر أبو محمد عبد الحق بن عطية فيصف لنا أهل قرطبة بالحياء والكرم، يقول[2]: (المنسرح)

أســتَوْدِعِ اللهَ أهــلَ قُرْطُــبة ... حيــث عهــدْتُ الحــياء والكَــرَما
والجــامع الأعْظَــم العَتــيق ولا ... زال مَــدَى الدّهــر مأمــناً حَرَما

ويقول[3]: (البسيط)

بــأربعٍ فاقَــتِ الأمصــارَ قُرطــبةٌ ... منهُــنَّ قَــنْطَرَةُ الــوادي وجامعها
هاتــان ثنــتان، والزهــراء ثالــثة، ... والعلــم أكــبر شيء وهْوَ رابعها

ولهذا انمازت قرطبة عند الكثير من شعرائها بميزتين بارزتين لديهم وهما:

تفوقها في العلم على سائر المدن.

جامعها الأعظم الذي يشكل منارة الدين الإسلامي فيها.

كما انمازت أيضاً ببناء قنطرتها العظيمة وكذلك بمدينة الزهراء الشامخة.

---

(1) ابــن خاقــان: قلائــد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ١-٢، ص ٦٨٩، وانظر التلمساني: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٥٤٥.

(2) التلمساني : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، المجلد الأول، ص٦١٦.

(3) المصدر نفسه.

وكما وصف ابن رشيق قرطبة إبان الفتنة، كان ابن شهيد قد وصف ما حل بها في تلك الفترة في قصيدة له قائلاً[1]: (الطويل)

أرى أعْيُـــناً تـــرنُو إلـــيّ كأنَّمـــا ... تُسَـــاورُ مـــنها جانبـــيَّ أراقِـــمْ
أدور فـــلا أعْـــتامُ غـــير مُحَـــاربٍ ... وأسْـعَى فـلا ألْقَـى أمـرءاً لي يُسالِمُ
ويجْلِـبُ لِـي فَهْمِـي ضُـروباً مِن الأذَى ... وأشْـقَى أمْـرِىءٍ في قَرْيَةِ الجهْلِ عالِمُ
وأوْجَـعُ مَظْلُـومٍ لقَلْـبٍ وذِي حِجـىً ... فَـتى عَربـيٌّ تـزدريه أعـاجِمُ
غَنِيـتُمُ، علـى مـا تزعمُونَ، عن الورى ... لقـد سَـفِهَتْ تِلْـكَ الحُلُـومُ الـزَّوَاعِمُ
وهـل يُقْدِمُ البازِي على الطَّيْرِ في الضُّحى ... إذا زالَ عـن ريـش الجـناحِ القَـوادِمُ
سَـلامٌ علَـيْكُم لا تَحِـيّةَ شـاكِرٍ ... ولَكِـنْ شَـجىً تَنْسَـدُّ مـنه الحلاقِـمُ
ومـا قُرعـتْ سِـنى علَـيْكُم نَدامـةً ... وأوشِـكْ غَـداً أنْ يَقْـرعَ السِّـنَّ نادِمُ
علَـيْكُم بـداري فاهْدِمُوهـا دعائِمـاً ... ففـى الأرْضِ بـنَّاءُونَ لـي ودَعـائِمُ
لئِـن أخْرجتْـنى عـنكُم شـرُّ عُصْـبة ... ففـي الأرْضِ إخْـوانٌ علـىّ أكـارِمُ
وإنْ هَشَـمَتْ حقّـى أُمـيّةُ عِـنْدها ... فهاتـا علـى ظهْـرِ المحجّـةِ هاشِـمُ
ولا غـرو مِـن تَـرْكِ القَلانِـسِ جانِـباً ... إذا عرفَـتْ حَقِّـي هُـناكَ العمـائِم
ولمّـا فَشـا بـالدَّمْعِ مِـنْ سِـرِّ وجْدِنـا ... إلـى كاشـحِينا مـا القُلـوُب كواتِـمُ
أمَـرْنا بإمْسـاكِ الدُّمُـوعِ جُفُونَـنا ... لِيشْـجى بمـا تطـوِى عَـذُولٌ ولائِـمُ
فظَلَّـتْ دُمُـوعُ العيْـنِ حـيْرى كأنَّهـا ... خِـلالَ مآقِيـنا لآلٍ توائِـمِ
أبـىَ دَمْعُـنا يَجْـرِى مَخافـةَ شـامِتٍ ... فـنَظَّمهُ بَيْـنَ المحاجِـرِ نـاظِمُ
وراقَ الهَـوى مـنَّا عُـيُونٌ كَـرِيمةٌ ... تَبسَّـمْنَ حـتى مـا تَـرُوقُ المباسِـمُ

فابـن شـهيد يصـف ما حلّ بقرطبة وقد دخلها البربر، وعاثوا فيها حيث دمّـروا مـا شـاءوا، ويشبه لنا حالهم وعيونهم وهم يراقبون أهل قرطبة بأفاعي ترصـد فريسـتها... بـل عدوها، فلا سلام ولا اطمئنان، البلد في ظلام الحرب الدامـس... والناس في تيه وضياع، فلم يعد أحدٌ منهم يفكر في ما سيصنع... فلم

---

(1) ديـوان ابن شهيد : جمع وتحقيق يعقوب زكي، ص ١٥٣-١٥٤.وانظر الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول،ص ٣٢١.

يعد للعلم والعقل مكان... وكيف سيكون ذلك وقد أصبح الأعجمي السفيه يتصرف بالعربـــي التائه كما يريد، لا بل لا بد لهذا المسكين أن يبادره السلام الذي أجبرت حنجرته عليه.

ويخاطب ابن شهيد أولئك السفهاء بأسلوب تهكمي ساخر، وقد يكون هؤلاء خصـــومه وحساده القرطبيين، ويأمرهم بأن يهدموا بيته فلم يعد للقرطبي شأن ولا جـــاه، وهـــل ســـينفعه بيته وهو يحيا هذه الحياة القسرية.. لا أهل... ولا أرض؟! ولكن ما الحل؟!

أيبكون.. ليشمت الأعداء بهم، أم يمسكون دموعهم ليقهرنهم بهذا الصمود؟

وهل سيتطلعون إليهم بعيون مطأطئة أم سيقهرونهم بعيون حادة باسمة للقاء معشـــوقة طـــال غيابها؟ ويرى ابن شهيد أنه قد آن الأوان للعيون أن تتوقف عن الدموع، وللقلوب أن ترفض الخضوع لتحيا قرطبة بأمان.

التغزل بقرطبة:

لقـد كانـت قرطبة مركزاً للحضارة الأندلسية، ومنبعاً للدين وللعلم والأدب تسابق جميع أهل الأندلس على وروده، ولهذا نرى أنهم يتزاحمون على العيش في أكنافها، ملوكاً وعامةً.

ولقـد أحـبّ الشـعراء قرطبة، وهاموا بها أيمّا هيام، فكلّ من دخلها منهم عشقها، ومنهم من أصيب بالوله كلما شاهدها، فاكتفى بالوقوف على أطلالها باكياً معبراً عن (عشقه الأبدي) لها.

فهذا شيخ حضرتها وفتاها أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد يعبر عن حبه لقرطبة قائلاً[1]: (المتقارب)

عجُـوزٌ لَعَمْـرُ الصِّـبا فانِـيهْ ... لهـا فـي الحشَا صُورةُ الغانِيهْ

زَنَـتْ بالـرِّجالِ علـى سِـنِّها ... فَياحـبَّذَا هِـي مِـن زانِـيهْ

تُـريك العُقُـول علـى ضَـعْفِهَا ... تُـدارُ كمـا دارتِ السّـانِيهْ

فقـد عنِيـتْ بهَواهـا الحُلُـو ... مُ فهْـى براحـتِهَا عانِـيهْ

تَقَاصَـرُ عـن طُولِهَـا قُونكَـةٌ ... وتَـبْعُدُ عـن غُـنْجِهَا دانـيهْ

تَردَّيْـتُ مِـن حُـزْنِ عيْشِـي بها ... غَـراماً فَـيا طُـول أحْزَانِـيهْ

فهو يشبه قرطبة بعجوز تنتظر نهاية أجلها -عندما حل بها الدمار-، ولكنه يرسـم لها أيضاً في قلبه صورة حيّة تجسد ملامح امرأة جميلة غنيت بحسنها عن الزيـنة والتجمـيل،ولهذا تسابق الكثير من أبنائها على لئم كأس حبها الأبدي حتى الـثمالة للظفـر بذلك الحب، ولهذا عشقتهم جميعاً حتى أوقعتهم على سن رمحها وأشـغلت عقولهـم كثيراً، وأخذت تدور بهم من مكان الى آخر كما تدور الأرض بهـا، فـأخذ الكل يحلم بها ويحلم أن يفوز بها فيحيا وإياها حياة هانئة سعيدة ولكن هيهات هيهات لهذه المعشوقة الذليلة الأسيرة أن يكون لها ذلك فمن الذي سيرضى بحبّها؟

([1]) ديوان ابن شهيد: ص ١٦٨.

إنّــه شاعرنا ابن شُهيد حيث رضي بغرامها على الرغم من أنَّ حياته ملأى بالأحزان، ولكن يالطول أحزانه، وكأنَّ الحزن قد أصبح مهراً لمن يريد أن يخطب تلك العجوز البخراء، السمكة الدرداء، فحق لخطيبها أن يظلّ في بثّ شاغل وبرح قاتل وصبر يغيض ودمع يفيض[1].

ولــم يكن ابن شُهيد وحده من تجرع كأس العشق الأبدي لقرطبة، فهذا أبو عيســى لــبون بــن عبد العزيز بن لبون (لبون أو ليون) وهو من شعراء عصر الطوائف يقول متغزلاً بقرطبة[2].

لا شيء أحلَىَ من الوصالِ
لا سيّما حُلوْة الدَّلالِ
والرَّشْف للباردِ الزُّلالِ
من ثْغرِ مستظرَفِ اللآلي
وفاضِحِ الغصنِ النضيرِ بلا نظيرِ

هَويتُ حُوريّةَ المعانِى
لِذكرىَ الحُور في الجِنانِ
فحُسنُها آيةُ الحسانِ

وهي غِنًى لي عن الغوانى
حَظّي بها حظُّ الأميرِ من السرور

كيف يَلومُ العَذولُ فيهِ
والمسكُ والراحُ طعمُ فيه
وهْو عديمٌ بلا شبيهِ
قد لَحظ الشمسَ لحْظَ تيهِ
وراش كالظبْيِ الغَريرِ سهمَ الفُتورِ

---

(1) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول،ص ٢٠٨.

(2) ديوان الموشحات الأندلسية: تحقيق سيد غازي، ج١، ص١٣٨-١٤٠.

كم صدّها عنّى الحسودُ
فلم يكن صدّهُ يُفيدُ
أرادتْ للذى أريدُ
فحبُّها حيث لا مزيدُ
دانى المحلِّ من ضميرِي بلاَ نكيرِ
غبَطْتُها قُرْب مَن تُجِلُّهْ
في كل حينٍ ولا تَمَلُّهْ
بالمُكْث في مَوْضعٍ يَحُلُّهْ
فهْى تُغنِّى بما تدلُّهْ
أقرطبة كان سديرِى ليّ الأميرِ

فابــن لبون يرى في قرطبة عشيقته الجميلة التي يصبغ عليها أعظم مزايا الجمال فهي:

حلــوة الدلال، وثغرها باسم، يشع نوراً كالآلىء الثمينة النادرة، وهي باردة الرشــف، وهي تتمايل كالغصن الطريّ الرّيان، وهي آية في الحسن والجمال، لا يماثلهــا في معاني جمالها إلاّ الحور العين في الجنة، وهي غنية عن التجمل بأي مــن مظاهر الزينة، ولا بد لعشيقها أن يكون من اصحاب السعادة والسرور، وأن يمتلك من السرور ما يمتلكه شخص وصل إلى مرتبة الإمارة.

وهو يرى أنّ قرطبة قد خُلقت وكأنها قطعة من الجنة (تفوح مسكاً ولا شبيه لها بين الأمصار)، فلا ينبغي لأحد أن يلومه، على حبّه لها، فهو لم يرَ شمسها إلا تائهة؛ ولذا أصبح قتيل حبها، يلهث وراءها كالظبي الصغير الذي لا تجربة له في الحــياة، حتى أصابه سهم حبّها، فكان قتيلها بعد ما قدم من أجلها ما قدم، وبعد أن عانى ما عانى، ولهذا يتأوّه الشاعر ويتحسر على قدره، فقد حسده الكثير على حبه لقرطــبة وحــاولوا صدّه عنها، ولكن هيهات أن يكون لهم ذلك، فقد أرادت له أن يكون قتيل حبّها، وكان يبغي ذلك فهذا هو حبّها ولا زيادة فيه، فمن أراد أن يعشق قرطبة فليقدم روحه من أجلها؟.

وقد عاش شاعرنا معها في غبطة وسرور، ولم يملُّها، ومكث عندها كثيراً، وغنت له ولم تذلّهُ، فهي مكان إمارته، وموطن صموده وإبائه وعش زوجيته.

لقد جعل ابن شهيد قرطبة عجوزاً بخراء وترضّى بحبها، وجعلها ابن لبون حوريّة، وكان قتيل حبّها، وجاء أبو أحمد عبد الله بن السيد البطليوسي ليجعلها حبيبته العذراء التي تختال بثوبها الناعم الموشّى أمامه، ويقول فيها مجيباً شاعراً قرطبياً مدحه[1]: (البسيط)

قُلْ للّذي غاصَ في بَحْرٍ منَ الفِكَرِ ... بذِهْنِهِ فَحْوىَ ما شَاءَ مِنْ دُرَرِ

لله عَذْراءُ زُفَّتْ مِنْكَ رَائحَةً ... تَخْتَالُ مِنْ حَبْرِها المرقوم في حِبَرِ

صَدَاقُهَا الصِّدْقُ مِنْ وُدِّي، ومَنْزِلُها ... بَصِيرَتي وَسَوادُ القَلْبِ لا بَصَرِ

هَزَّتْ بَدائِعُها عِطْفيَّ مِنْ طَرَبٍ ... لِحُسْنِهَا هِزَّةَ المَشْغُوفِ للذِّكَرِ

كأَنَّما خامَرَتْني مِنْ بَشَاشَتِهَا ... رَاحٌ وسُكْرٌ بلا رَاحٍ ولا سَكَرِ

ما كُنْتُ أحسبُ أنَّ النيِّراتِ غَدَتْ ... تصيدها شِرَكُ الأوهامِ والفِكَرِ

ولا توَهَّمْتُ أيّامَ الرَّبيعِ تَرى ... في ناجِرٍ غَضَّةَ الأنْوارِ والزَّهَرِ

أمَّا الجزاءُ فَشَيءٌ لَسْتُ مُدْرِكَهُ ... ولَوْ بَدَرَتُ إلى التَّوْجيه بالبِدَرِ

لكن جَزائي صَفَاءُ الوُدِّ أُضْمِرُهُ ... إذا القُلوبُ انْطَوَتْ مِنْهُ على كَدَرِ

جَاراكَ ذِهْنِي في مِضْمارِها، فكَبَا ... ذِهْني، وفُزْتَ بخَصْلِ السَّبْقِ والظَّفَرِ

وهَلْ بَطَلْيَوْسُ في نَظْمٍ مُنَاظِرَةً ... يَوْماً لِقُرْطُبَةٍ في حُكْمِ ذي نَظَرِ؟!

فهو يطلب من ذلك الشاعر القرطبي الذي مدحه أن يحكم رجلاً غاص في بحار الفكر وكان ذهنه كالدرر علماً ومعرفة، يحكّمه في فضل قرطبة وبطليوس..

ولهذا يحكي له قصة حبه لقرطبة:

فهي عذراء تفوح بالعطر وترتدي ثوباً مطرزاً جميلاً أخذت تختال به أمامه.

أمّا مهرها فهو مودته الصادقة لها، وبيتها عقله وقلبه وعينه أيضاً.

---

(1) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ج٣-٤،ص ٧١٨-٧١٩.

وقد بهرت هذه العذراء الشاعر بجمالها وحسنها، فهزّت مشاعره وأحاسيسه، وكأنه يريد خطبتها، ولهذا نراه يحيا في جوّ من الراح والنشوة على الرغم من أنه لم يشرب (الخمر)، وهو يرى أنّها صاحبة عقل وفكر، ومن هنا كانت قرطبة منبع الحضارة، والعلم، ومكان خضرة ونعيم، فكان الربيع يحلُّ بها في كانون الثاني (يناير).

ويرى الشاعر نفسه حائراً لا يعرف كيف سيجازي هذه المدينة على ما قدمته له. ولكنه يضمر لها الودّ والحب في قلبه، وأخيراً يخاطب ذلك الرجل بعد أن رسم له صورة قرطبة الجميلة العذراء، مستفهماً متعجباً، أهناك مفاضلة بينها وبين بطليوس عند إنسان ذي نظر؟

أمّا ملك إشبيلية المعتمد بن عبّاد الذي وصل إلى رئاسة قرطبة فيرثي هذه المدينة بجو حزين يبرز من بينه خيط نور رفيع يشع ملامح الفرح لعرس الملوك لملك إشبيلية الذي يعقد قرانه على ملكة مدن الأندلس قرطبة، بعد أن منعت الكثير ممن جاءوها بالسيوف والنبال ولهذا جاء المعتمد قرطبة كالليث منتصراً قوياً، فكل الناس عامة وملوكاً هنا يراقبونه ويهابونه.

فهو يرثي قرطبة لما توالى عليها من نكبات، في الوقت الذي يجعلها شريكة حياته، ومنتهى أمله، قائلاً[1]: (البسيط)

مَنْ للملوك بشَأْوِ الأَصْيَدِ البَطَلِ ... هَيْهَاتَ جاءتْكُمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ

خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الحسناءَ إذ مَنَعَتْ ... مَنْ جَاءَ يَخْطِبُهَا بالبيض والأَسَلِ

وكم غَدَتْ عاطلاً حتَّى عَرَضْتُ لها ... فأَصْبَحَتْ في سُرَى الحُلِيّ والحُلَلِ

عِرْسُ الملوكِ لنا في قَصْرِها عُرُسٌ ... كلُّ الملوك به في مَأْتَمِ الوَجَلِ

فَراقِبُوا عن قَريبٍ لا أَبا لَكُمُ ... هُجُومَ لَيْثٍ بدرعِ البَأْسِ مُشْتَمِلِ

---

(1) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١-٢، ص ٦٧.

فهـــي مدينة الكمال التي لا يعرف النقص طريقها، ولهذا تزين القرطبيون بجمالها، فكانت عمامتهم وإزارهم اللذين تفخر بها الأجيال أينما كانوا وأينما حلوا.

وبيـــن لـــنا الشاعر أسرار الجمال في قرطبة، بادئاً بقصر بني أمية، الذي احتضـــن الخلافـــة الأموية، والذي احتضن الكثير من الجاريات الحسان، وناقش الكثـــير مـــن أمـــور الدولـــة الإسلامية. ومن أسرار جمالها أيضاً مدينتا الزاهرة والعامـــرية، ومدينة الزهراء التي بناها الناصر لدين الله الخليفة الأموي، ولعل ما يـــزيدها جمالاً إلى جمالها ذلك الجامع الكبير الذي يمتلىء بأهلها، للتلاوة وسماع الذكـــر، وللفـــرجة على روعة البناء ودقته وفخامته، وكذلك أسواقها الكبيرة والتي تزخر بالناس وكأنهم في يوم الحساب.

ولكـــن، يا للحسرة، فقد دمّرت هذه الجنة وعصفت ريح الفراق بأهلها، ولم تعـــد مدنهـــا وقراها قادرة على تحقيق النصر، والفوز لكل من يلجأ إليها، بعد أن كانت الموئل الذي يلتجئ إليه الخائفون – فهي مكتهم – فتفرق أهلها، وحلت طيور البربر، ونزلت أرضها، وصنعت ما صنعت بأهلها.

وإن كانت القصور، والمدن، والقرى، والجامع، والأسواق، معالم ومظاهر جمـــال وصـــفها الشـــاعر، فـــلا بدَّ من وجود مظاهر جمالية تخيرها الخالق لهذه المديـــنة، ومـــنها ماء الحياة الذي جاد به على اكبر الانهار وأعظمها من الفرات ودجلة والنيل، فأصبحت وكأنها قطعة من الجنة تروى بنهر الكوثر. نعم إنها الجنة الخضراء اليانعة ربوعها، والمتبخرة ظباؤها، والخصبة التربة. فلا غرابة أن نرى الشـــاعر يتأســـف ويتأسى، بل ولا غرابة أن يتيه ويبكي كالمجنون كيف لا؟ وقد خسر الجنة !!

تلـــك الجـــنة التي كان يشعر ساكنوها في كل مكان فيها بكرامة عالية، لا يعادلها في الدنيا شيء. ولا يسمعون فيها إلا أمراً واحداً لأميرها الذي يأمر بكل ما يريد فتكون له السلطة، ولأمره التنفيذ، ولمنفذيه السلام والأمان، يقول[1](الكامل)

يـــا جَـــنَّةً عَصـــفَتْ بهـــا وبأَهْلِهـــا ... رِيـــحُ الـــنَّوى فـــتَدَمَّرتْ وتَدَمَّـــرُوا

آسَـــى علَـــيْكِ مِـــن المَمات وَحَقَّ لي ... إذ لـــم نَـــزَلْ بـــكِ في حَياتِكِ نَفْخَرُ

---

[1] ديوان ابن شهيد: تحقيق يعقوب زكي، ص ١١٠-١١١.

كانَـتْ عراصُـك للمُـيَمِّمِ مَكَّـةً ... يـأوِى إلَـيْها الخـائفُون فيُنْصَرُوا

يـا مَـنْزلاً نَزَلَـتْ بـه و بأهْلِـه ... طَـيْرُ الـنَّوى فَتَغَـيَّرُوا وتَـنَكَّرُوا

جـادَ الفُـراتُ بسـاحَتَيْك ودِجْلَـةٌ ... والنَّـيلُ جـادَ بهـا وجـادَ الكَوْثَرُ

وسُـقِيتَ مِـن مـاءِ الحَـياةِ غمامةً ... تحـيا بهـا مـنكَ الرِّياضُ وتُزْهِرُ

أَسَـفِي علـى دارٍ عَهِـدْتُ ربوعَها ... وظِـباؤُها بفـنائِها تَتَبَخْـتَرُ

أَيّـامَ كانَـتْ عَيْـنُ كُـلِّ كَـرامةٍ ... مِـن كُـل ناحِـيَةٍ إلَـيْها تَـنظُرُ

أَيّـامَ كـانَ الأَمْـرُ فـيها واحِـداً ... لأَمِـيرها وأَمِـيرِ مَـن يـتَأَمَّرُ

أَيَّـامَ كانَـتْ كَـفُّ كُـلِّ سَـلامةٍ ... تسـمو إلَـيْها بالسَّـلامِ وتَـبْدُرُ

وبعـد أن عـرض الشـاعر لكلّ ما أجّج نار الشوق والبكاء في قلبه، نراه يحـزن على سرواتها، وروائها وحماتها وثقاتها، ويتحسر على الأنهار وصفائها، وبهائهـا، وسـنائها، ولهـذا تتقطّع كبده على ما حل بعلمائها، وحلمائها، وأُدبائها، والظرفاء منها أيضاً، يقول[1]: (الكامل)

حَزَنـي علـى سَـرَواتِها ورُواتِهـا ... وثِقاتِهـا وحُماتِهـا يَـتَكَرَّرُ

نَفْسِـي علـى آلائِهـا وصـفائِها ... وبَهائِهـا وسَـنائِها تَتَحَسَّـرُ

كَـبِدِي علـى عُلَمائِهـا حُلَمائِهـا ... أُدَبَائِهـا ظُـرَفائِها تَـتَفَطَّرُ

وقد غادر ابن شهيد قرطبة، وكانت آنذاك تحيا أيام هناءة ورغد، الكل يحيا فـي بحر الأمن والسلام، والمدينة تعيش ببهاء وصفاء ورقة لا تضاهيها في ذلك مديـنة. ولكن دوام الحال من المحال، فكان الدمار مصيرها، والفراق مآل أهلها، فتشردوا، وتمصروا، من شيوخ وعلماء، ومن أدباء وظرفاء ومن عامة وحلماء.. ومـن ثقاة وحماة، فما كان من شاعر أديب عاش في هذه الجنة -التي لم تدم له- بعـد أن عصـفت به ريح النوى إلا أن أخذ يبكي راثياً تلك المدينة، التي أصبحت أطـلالاً، وإنـه ليحق له أن يندبها وأن يجعل رأسه معفراً في ترابها، وأنه لشرف عظيم أن يعفر الإنسان بتراب جنّته.

---

[1] ديوان ابن شهيد، ص ١١٢.

ويعد السميسر أيضاً من أولئك الشعراء الذين قدموا العزاء لقرطبة من خلال مرثياتهم الدامعة، ولقد رثى السميسر الزهراء -إحدى مدن قرطبة- بعد أن حل الدمار بها، وأصبحت أطلالاً، لا بل مواتاً لا حراك بها، فهو يقف بها محدقاً بما حل بها، مندهشاً لرهبة الموقف، معتبراً، نادباً كل من يعلق على شريط ذاكرته آنذاك صارخاً بأعلى صوته لحن الخلود، ولكن هيهات هيهات هل بعد الموت رجعة؟!!

وبهذا يبكي شاعرنا الزهراء، وغيرها من المدن، التي أصبحت أطلالها نوادبا يبكين كل من سكنها وأحبها يقول[1]: (السريع)

وَقَفْتُ بالزَّهراء مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِراً أندُبُ أشْتاتا

فقلت: يا زهرا ألا فارْجِعي ... قالت: وهل يرجع مَنْ ماتا؟

فلم أزل أبكي وأُبْكي بها ... هيهاتَ يُغني الدمعُ هيهاتا

وهذا ما يؤكده الوزير أبو الحزم بن جهور فيقول[2]: (الخفيف)

قلت يوماً لدار قوم تَفانَوْا: ... أين سُكّانُكِ العزاز عَلَيْنا؟

فأجابت: هُنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا، ولست أعلم أينا

مما سبق نجد أن الشعراء قد تفننوا أو تأنقوا في الحديث عن قرطبة، فمنهم من كان لقرطبة النصيب الأوفى في قصيدته، ومنهم من تحدث عن أحد آثارها أو قراها، واصفاً أو متغزلاً، أو راثياً، ومنهم من تحدث عنها حديثاً جميلاً ودقيقاً في مقطوعات شتى.

وهنالك عدد من الشعراء جاء ذكر قرطبة في أشعارهم -عفو الخاطر- أو لخدمة عرض ما هدف إليه الشاعر.

---

(1) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٥٢٧-٥٢٨.

(2) المصدر نفسه: ص ٥٢٥.

فعـند النظر إلى قصيدة الوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز نراه يودّع الوزيـر أبـا محمد بن عبدون ويذكر فضله ومكانته في قرطبة ولهذا لم يكن ذكر قرطبة إلا لخدمة غرضه وهو مدح ابن عبدون، يقول[1]: (البسيط)

فـي ذِمَّـةِ المَجْـدِ والعَلْياءِ مُرْتَحِلٌ فارَقْـتُ صَبْرِيَ إذ فَارَقْتُ مَوْضِعَهُ

ضَـاءَتْ بـهِ بُـرْهَةً أَرْجَاءُ قُرطُبَةٍ ثُـمَّ اسْـتَقَلَّ فَسَـدَّ البَيْـنُ مَطْلَعَـهُ

ومن ذلك أيضاً قصيدة طويلة للأعمى التطيلي تحتوي على خمسة وخمسين بيتاً يرثي بها بعض النساء. ويذكر فيها قرطبة في البيت الواحد والعشرين قائلاً[2]:

(البسيط)

فـذاكَ أسْـقِي بـه قـبراً بقرطـبةٍ شـهدتُهُ فرأيـتُ الفضْـلَ قـد قُبرا

ولقد ذكر الشاعر ابن أبي الخصال قرطبة في قصيدة من اثنين وثلاثين بيتاً ،جاءت في إحدى رسائله، وهي في غرض الزرزوريات يصف فيها طائر الهدهد وقصـته مـع سيدنا سليمان، ويرد ذكر قرطبة في البيت قبل الأخير، حيث يوازن الشاعر بين بيته بقرطبة ومورد رزقه في غيرها يقول[3]: (السريع)

قُرْطُـبةٌ داري وفـي غَـيْرِها رزقـي فـذا ظـلٌ وذا مَـوْرِدُ

---

[1]انظـر ابـن خاقـان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص ٤٧٨، وانظر العماد الاصفهاني، خريدة القصر وجـريدة العصـر، القسـم الرابع، الجزء الثاني، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، مصر، ص ٤٣٢. حيث يروي البيت الثاني:

ضاءت به برهة أرجاء قرطبة ثم استقلَّ فَسَّر البيت مطلعه.

[2]ديـوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته، (أبو جعفر احمد بن عبد الله بن أبي هريرة (-٥٢٥هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس. نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م، ص ٤٤.

[3]رسائل ابن أبي الخصال: ص ٢٤٣.

الحنين إلى قرطبة:

فاق شعراء الأندلس شعراء المشرق العربي في شعر الحنين إلى الوطن في الكم والكيف، فقد توسّعوا فيه نتيجة لاغترابهم (المتجدد) من مدينة إلى أخرى داخل أندلسهم، ولرحيلهم من مغربهم إلى المشرق أيضاً[1].

ولذلك تعد الغربة من أبرز الدوافع التي حفزت الشعراء على الحنين، بل دفعت بهم إليه بقوة العشق الفطري للبيت الصغير الذي نشأوا فيه وألِفُوه، فهم الآن في ديار جديدة، لم يكن لهم سابق عهد بها، ولم تربطهم بها روابط النشأة والألفة والتكيف، وهذا ما حدا بهم إلى أن يشعروا بفقدهم لكل شيء مادي ومعنوي في الواقع الجديد الذي آلوا إليه.

وتولد عند شعرائنا ما يسمى بالحنين إلى الوطن الكبير -الأندلس-، وكذلك الحنين إلى الوطن الصغير، ويتمثل ذلك في حنين كل شاعر إلى بلده، ومسقط رأسه، أو أعظم مدينة مر بها، ولهذا كان الحنين فيما سنتناوله من الأشعار- حنيناً إلى الوطن الصغير قرطبة.

ولقد كان الشاعر الأندلسي ذا إحساس رقيق، مرهف. وكان تعلقه بمدينته تعلقاً مشيمياً حميماً بكل ما تحويه البيئة الأندلسية من طبيعة، وأهل وحنان. وللبيئة دور مهم في حياة الإنسان الأندلسي، فلقد كانت الأندلس جنة خلد، يقول فيها ابن خفاجة[2]: (البسيط)

يا أهل أندلس للّه دَرُّكُمُ ... ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشْجارُ

ما جنَّةُ الخُلْدِ إلاَّ في دِيَارِكم ... ولو تخيّرْتُ هذا ما كنتُ أختارُ

فالبيئة الأندلسية مليئة بالماء، والأنهار، والأشجار، والظلّ، ولهذا لا بد أن يجد الشاعر (الإنسان) الأندلسي فارقاً كبيراً، إذا ما خرج من هذه البلاد، بل إنّ خروجه من مدينة إلى أخرى -داخل الأندلس كان يشعره بالفارق البيئي الذي يولد عنده شعوراً عميقاً بالفقد والنقصان والإنسان بطبيعته لا يرضى بذلك، ولهذا يلجأ

---

[1] عدنان صالح مصطفى : في الشعر الأندلسي، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدوحة، قطر، ط١، (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص ١٠٧.

[2] التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٦٨٠.

شـــاعرنا الأندلسي إلى ترديد اسم مدينته في جو مليء بالمعاناة والشقاء والحنين، فكـــان عندما يشاهد ما يشبه ما لديه أو يجد الفرق بين ما يملكه وما يشاهده كبيراً، يـــتذكر دياره وأوطانه، ولهذا نرى أن هبوب الرياح من دياره كان يذكي مشاعل الحزن، ويؤجج نيران الشوق والحنين في قلبه، ولذا نراه حائراً، باكياً يتمنى العودة إلـــى ديـــاره مهما كلّفه ذلك، أما إحساسه بالحنين، فهو أصدق وأعمق من بكائه، ولذلك تنساب ألفاظه وكأنها حبات ندىً تقطر على أزهار قرطبة، فتدب الحياة بها، فينتشـــي شاعرنا محدقاً ببصيص الأمل الذي يعيده إلى مدينته بعد أن هُجِّر عنها، واستولى عليها غيره.

ولقـــد ارتقى ابن زيدون في شوقه وحنينه إلى قرطبة، ووصل إلى مرتبة لم يصـــل إلـــيها أحـــد ممـــن رقت قريحتهم، وبكت عيونهم شوقاً وحنيناً إلى مسقط رأســـهم[1]، لا ســـيما وأن ابن زيدون قد كُبِّل بالأغلال، وحرم الحرية، وانقطعت أخـــبار أهله عنه، وأخباره عنهم، فقد تضاعفت مأساته، فقدانٌ للحرية، ودخول في السجن الذي يضفي على الشاعر الحزين المشتاق شعوراً بالكآبة والحزن واللوعة. ولعل إحساس الشاعر بهذه المشاعر يقوده إلى أن ينطق بالحنين الصادق تجاه أهله ووطنه، ليشكل حنينه إلى كليهما مزيجاً مريراً لا يَفضُل أحدهما عن الآخر.

هذا بالإضافة إلى ما تورط به، ليمثّل بطلاً لإحدى أشهر قصص الحب في الأندلـــس، إنها قصة تمثل العلاقة الأرستقراطية بين رجل مخزوميّ النسب يدعى ابن زيدون، وصاحبة أموية من بيت الخلافة تدعى ولاّدة بنت المستكفي.

فجـــاء شاعرنا وروى لنا هذه القصة متلذذاً بذكريات الماضي، هائماً بتلك الغـــادة، باكياً على أطلالها، مؤانساً إياها في كل مكان، ولم يفق حبّه لها حبُّه لتلك الطبـــيعة الفاتنة التي حباها الله مدينة قرطبة، فهتف قلبه بكلا الحبيّن داعياً بالسقيا لأطـــلال المحـــبوبة، رغـــم أنّهـــا مدينة لا تعرف العطش ولكن الشاعر أراد لها الديمومـــة والاســـتمرار، ولم تكن السقيا عنده إلا إخراجاً لدوافع داخلية في شكل

---

[1] عدنان صالح مصطفى: في الشعر الأندلسي، ص ١٣٢.

موضـــوعي[1] أراد بهـــا الشـــاعر أن يحمي المدينة من كل أسباب القلق والخوف لتســـتمر الحياة برغد وهناءة، فالسقيا تعبير أراد به الشاعر أن يجسد حالة الحزن والفراق المفعمة بالبكاء، لتبكي السماء محبوبته -قرطبة-ولاده- ولعل في ذلك ما يخفف اللوعة والمعاناة.

ولـــذا ســـطر بكـــاء الســـماء علاقة وفاء اعتز بها الشاعر أمام محبوبته، فتزخرفـــت الأرض وأضـــاءت نـــوراً وبشرا كالنجوم، فابن زيدون يريد أن ينير الطريق أمام مدينته لتسير إلى الأمام بفرح ونشوة، متمنياً لها الديمومة والاستمرار في هذا العيش الرغد الذي تحيا به نساء قرطبة كالدمى، يقول[2]: (الطويل)

سَقَى الغَيْثُ أَطْلاَلَ الأَحِبَّة بالحِمى
وحَاكَ عَلَيْهاَ ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَما
وَأَطْلَعَ فِيَها لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمًا
فَكَـــمُ رَفَلَـــتْ فِـــيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى إِذِ الْعَـــيْشُ غَـــضٌّ وَالـــزَّمَانُ غُلاَمُ

ويصور لنا ابن زيدون مدى حبه لتلك المحبوبة، من خلال ضعفه وتواضعه أمـــام جبروتها، فهو هائم بها ولكنها عزيزة متكبرة ترفل في ثياب الغنى، لا تسمع لأنيـــنه وشـــكواه، فهو يبثها الفراق والحزن طامعاً بالوصل ولو قليلاً عله يستطيع النوم.

ويشغل نفسه ويعللها بوصف مزايا الجمال فيها، فهي كقضيب من الريحان تشـــبه الـــبدر، عيناها ساحرتان، وخدها ناعم كالمخمل الحريري، وكلامها كاللؤلؤ المنثور، وريقها رطب كالخمرة، فلا بد له أن يبهر بهذا الجمال ويبحث عن أجمل مكان ليلتقي بتلك الفاتنة، يقول[3]: (الطويل)

أَهِيمُ بِجَبَّار يَعِزُّ وَأَخْضَعُ
شَذَا الْمِسْكِ - مِنَ أَرْدَانِهِ - يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ - أَشْكُوهُ الجَوَى - لَيْسَ يَسْمَعُ

---

[1] حسين خريوش: ظاهرة السقيا وأبعادها الدلالية في القصيدة العربية، مجلة جامعة البعث، العدد ١١، ايلول ١٩٩٢.، ص ١٧،

[2] ديوان ابن زيدون: ص ١٢٨.

[3] المصدر نفسه: ص ١٢٨-١٢٩.

فمَا أَنَا–فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ– أَطْمَعُ وَلاَ أَنْ يَـــزُورَ المُقْلَتيْـــنِ مَـــنَامُ

قضِيبٌ – مِنَ الرَّيحَانِ – أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ

لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ

وَدِيبَاجُ خَدَّيهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ

وَأَلْفَاظُه – في النُطْقِ – كَاللُؤلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَـيُهُ – فِـي الاُرْتِشَافِ – مُدَامُ

ولعلـــه هـــنا يختار أجمل ما رآه داخل القصر، ذلك القصر الذي قضى فيه أيـــام طفولـــته، وأيـــام لهوه ولهذا يدعو لهذه البقعة القرطبية بالسقيا أيضاً، ويدعو الحمام أن يغني على أغصان شجرها، وما الحمام إلاّ ترنيمة أراد أن يبث الشاعر مـــن خلالها حنينه وولهه إلى مسقط رأسه ومكان ولادته ونشأته "قرطبة"، يقول[1]: (الطويل)

سَقَى جَنَبَاتَ القَصرِ صَوب الغَمَائمِ

وَغَنّىعَلَى الأغْصَانِ وُرْقُ الحَمائِم

"بِقُرطُبَةَ" الغَرَّاءِ دَارِ الكارِمِ

بـــلاَدٌ بِهـــاَ عَـــقَّ الشَّـــبَابُ تَمَـــائمى وَأنجَبَـــنى قَـــوْمٌ – هُـــنَاكَ – كِرَامُ

ومـــن هـــنا يـــبدأ الشاعر بالتصريح بشوقه وولعه، بعد أن رسم لنا صورة الحنين الذي أراده بإعادة ذكرياته أيام لهوه مع ولادة في القصر، حيث كان يشرب الخمرة صباح مساء، يقول[2]: (الطويل)

فَكَمْ لِيَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وإِصْبَاحِ

بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ

يُقَدِّمُ أَفْوَاهَ الْكئوسِ بِتُفَّاحِ

إذا طَلَعَتْ – فِي رَاحِهِ – أَنْجُمُ الرَّاحِ فَإِنَّـــا – لإِعْظَـــامِ المـــدَامِ – قـــيَامُ

ويتذكر أيضاً أيام رحلاته مع أصحابه، حيث كانت تلك الأيام في حياته من أجمـــل مـــا يتذكر، فقد جلس مع أصحابه على جسر (البنتي)، وكان يجلس معهم

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٢٩.

[2] المصدر نفسه.

أيضـــاً علـــى الأرض التي فرشت بالأعشاب والأزهار ليسقون الخمر من فتيات رقيقات، يقول[1]: (الطويل)

وَيَوْمٍ لَدَى "البُنْتِيِّ" فِي شَاطِىءِ النَّهْرِ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَـــدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الخَصْرِ بِفِـــيه – مِـــنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ – نظَامُ

أمّـــا يومـــه الآخر فهو بالرَّصافة إحدى ضواحي قرطبة حيث نشأ الشاعر وشـــب فـــي ربوعها الغنَّاء، وهنا مرّ مع أصحابه على روض جميلٍ مليئٍ بأزهار الأقحوان تفوح فيه رائحة البنفسج، ولعله يتذكر تلك الأيام بكل دقائق الأمور فيها، وهذا ما يصبغ على حنينه صفة الصدق والتقدير، يقول[2]: (الطويل)

وَيَوْمٍ "بِجُوفِيِّ الرُّصَافَةِ" مُبْهِجٍ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الأَقْحُوَانِ المُدَبَّجِ
وَقَابَلَنَا فِيهِ نسِيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلاَحَ لَـــــنَا بِخَـــــدٍّ مُضَـــــرَّجٍ تَـــرَاهُ أَمَـــامَ الـــنَّوْرِ وَهْـــوَ إِمَـــامُ

وينتقل ابن زيدون بعد هذا ليصبغ الكرم على أيام اللهو والرفاه التي قضاها "بالعقاب"، ويصور مشاهد له وأصحابه عند "العقيق وجسره"، حيث كانوا يجلسون علـــى الأعشاب والأزهار الملّونة، تسقيهم الخمر تلك المرأة، ذات الخصر الرقيق وذات العيون التي تشبه السهام بحدتها.

وكأن هذه الصورة أخذت الحيز الكبير في خيال شاعرنا، فنراه يكررها في حنينه في جل قصائده التي عبرت عن ذلك: (الطويل)

وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ العُقَابِ السَّوَالِفِ
وَلَهوْ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ المَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِيثِ الشَعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُـــوا فـــي وَشْيِ تِلْكَ المَطَارِفِ فَلَـــيْسَ – عَلَـــى خَلْعِ العِذَارِ – مَلاَمُ

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣٠.

[2] المصدر نفسه.

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِندَ "العَقِيقِ" وَجِسرِهِ
قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَظَبْيٍ يُسَقِّينَا سُلافَةَ خَمْرِهِ
حَكَى جَسَدِي – فِي السُّقْمِ – رِقَّةَ خَصرِهِ لوَاحِظُــهُ – عِــنْدَ الــرُّنُوِّ – سِهَامُ

وهنا لا بد للون أن يظهر بشكل جلي، فالأسود والأبيض والأحمر والأصفر ألــوان جاءت لتحكي قصة الشوق والألم التي يحياها الشاعر، فقد أصبحت حياته كالجحيم بعد أن كانت ناصعة النقاء مزركشة بألوان الوداعة والحب والهدوء.

وهنا تصل درجة الشوق إلى أوجها، وينفجر ذلك الحنين المكبوت ليخاطب ذلــك الزمان الذي طمست رسومه هذا الزمان الذي طالما رق نسيمه، فلا كدر في العــيش، ولا نقص في الحياة، فقد أضاءت نجوم هذا الزمان أرجاء قرطبة لتهدي كــل ظــالٍ غــرق فــي ظلمــات اللــيل، وبما يخاطب هذا الزمان؟ إنّه السلام، يقول[1]:(الطويل)

فَقُلْ لزَمانٍ قَد تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثَّتْ – عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي – رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقَّ فيهِ – بالْعَشِيِّ – نَسِيمُهُ
وَلاَحَــتْ لسَــارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : عَلَــيْكَ مِــنْ الصَّــبِّ المَشُوقِ سَلامُ

ولقــد جــاء السلام هنا بعد حالة حزينة سكبت بسببها الدموع الغزار حيث جسدّ من خلاله الشاعر كل مشاعر الحب والولاء لوطنه، ولهذا يعد ابن زيدون من أشــهر شعراء القرن الخامس الهجري الذين احتوت قصائدهم أغراضاً ومجالات شتى، حاول نسجها بأسلوب بارع محكم، ولهذا نراه يعبر عن عظم المدينة وقوتها، وعــن هيجان شوقه لها، وفي الوقت نفسه يعدد لنا الكثير من معالمها، التي يصفها وصفاً جميلاً دقيقاً، يعبر عن ولهه وتعلقه الأبدي بها ليشكل بالتالي منظومة الحنين

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣١.

إلـــى قرطبة. من هنا نجد أن هذا المكان (قرطبة) قد تجلى في أشعار ابن زيدون من خلال الأبعاد التالية

* تصوير معالم قرطبة
* وصف قرطبة والتغزل بها
* الحنين إلى قرطبة

وهـــذه الأبعـــاد فـــي الحقـــيقة تشكل وجهاً واحداً وهو الشوق والحنين الى الوطن.

ولقـــد رتّب ابن زيدون قصائده في قرطبة ترتيباً جميلاً متناسقاً يجعلنا أمام مخـــرج ســـينمائي، أراد أن يضعنا أمام مدينة باهرة الجمال في معالمها، وأماكن اللهـــو فـــيها، وفي لياليها، ورياضها، لينطلق من تلك الصورة إلى أجواء "مواكب الذكريات، حيث يتذكر تلك الأماكن، ثم يصرح بحنينه إلى تلك الأماكن والذكريات في (حنين الذكريات) وبعدها يشتاق لرؤيتها فيراها في "معاهد صبوات"، ثم يرسل آهاته بعد أن قضى حياته شريداً بزفرات تؤجج نيران الشوق في صدره في (زفرة الشريد)، وأخيراً يدمى قلبه، ويتشرد لبّه وتهيجه الذكريات، أن "لا أهل ولا وطن، لمن هُجِّر عن وطنه.

ويـــتجلى المكان بشكل واضح ومعبر في موشحه "ابن زيدون" الثانية حيث يسير على نفس المنهج السابق مصوراً، وواصفاً ومشتاقاً إلى قرطبة.

وليحملنا الآن عبر مشاعره إلى مواكب ذكرياته لتسير بنا إلى معالم قرطبة، فـــنراه يعيد ذكرياته بها، متغزلاً، ويصفها في جو خريفي يشيع في النفس مشاعر الحنيـــن والألم لتشتعل نيران الشوق في القلوب، حتى تترقرق بذلك العيون ساكبة دموع الفراق الغزار.

ويـــبدأ قصـــيدته بتشخيصه لأصدقاء يبثهم شكواه وهمومه وليعبر لهم عن حالة الشوق التي يحياها.

هذه الأجواء النفسية التي تسيطر على خياله، لا بُدَّ لها من مسبب، وما هو إلا الفـــارق البيئـــي الذي يعاني منه الشاعر، فريح الشمال ولمع البرق المتألق من أبرز عناصر البيئة التي تثير فيه الصبوة .. فيبكي، يقول[1]: (الطويل)

تَنَشَّقَ – مِنْ عَرْفِ الصَّبَا – مَا تَنَشَّقَا
وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا
وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ – لَمَّا تَأَلَّقَا
يُهِيـــبُ بِدَمْـــعِ الْعَيْـــنِ حَـــتَّى تَدَفَّقَا، وَهَـــلْ يَمْلِـــكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمَصَبَّأُ

ويعـــود الشـــاعر ليخاطب خليليه، طالباً منهما العذر لأنه لم يستطع الصبر علـــى ذلك الفراق المرير الذي أودى بحاله، لتحُاكي حال امرئ القيس عندما بلغه مصرع أبيه حيث قال: "اليوم خمر وغداً أمر"، يقول[2]: (الطويل)

خَلِيلَيَّ – إِنْ أَجْزَعْ فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ
وإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْراً فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ
وإِن يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ
ففِـــي يَوْمِـــنَا خَمْـــرٌ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ وَلاَ عَجَـــبٌ، إِنَّ الْكَـــرِيمَ مُـــرَزَّأُ

وســـتبدأ الآن لحظـــات الـــيأس والخذلان، في جو مليء بالحزن والبكاء، ولتصب سهام المصائب أهدافها، يقول[3]: (الطويل)

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عِنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلاَتُ الْمَصَائِبِ
أَقَضِّي نَهَارِي بِالأَمَانِيَ الْكَوَاذِبِ
وَآوِي إِلَـــيَ لَـــيْلٍ بَطِـــيءِ الْكَوَاكِـــبِ وَأَبْطَـــأُ سَـــارٍ كَوْكَـــبٌ بَـــاتَ يُكْلَأُ

فســـهام الليالـــي لـــم تخطـــيء طريقها، وقد أصابت هدفها – قلب الشاعر المشتاق– ولذا يقضي الشاعر نهاره بالأماني الكاذبة لعلها تدفع عنه تلك المصائب التي تجعل ليله طويلاً، وتجعل كواكبه بطيئة ككواكب النابغة في قوله[4]: (الطويل)

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣٢.
[2] المصدر نفسه: ص ١٣٢.
[3] المصدر نفسه: ص ١٣٣.
[4] المصدر نفسه، ص ١٣٢(الحاشيه).

"كلينـــي لهـــم يـــا أمـــيمة ناصـــب ولـــيل أقاســـيه بطـــيءُ الكواكـــب

إن هـــذا الشـــعور الـــذي غـــرس في نفس الشاعر جعله يصرخ مستفهماً متعجباً[1]:

أَقُرْطُبَةَ الغَرَّاء ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبُعْدِكِ تَنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيْدَةِ مَرْجِعُ ؟

إذِ لْحُســـنُ مَرْأىً-فِيكِ-واللَّهوُ مُسْمَعُ وَإذْ كَـــنفُ الدُّنْـــيَا – لَدَيْكِ – مُوَطَّأُ

وهـــنا نـــراه مخاطباً قرطبة بأسلوب استفهامي إنكاري الحميدي؛ ويستفهم أيضاً بقوله[2]:

أَلَيْسَ عَجِيباً أنْ تَشُطَّ النَّوى بِكِ ؟

ولهذا يكره فراقها، فهي مدينة النشأة الأولى عنده، ويجب أن يجتمع بها بعد هذه العزلة ليشتمّ رائحتها الزكيّة، يقول[3]: (الطويل)

فَاحْيا كَأَنْ لَمْ أَنْشَ نَفْحَ جَنَابِكِ
وَلَمْ يَلْتَئِمْ شَعْبِى خِلاَلَ شِعَابِكِ

وَلَـــمْ يَـــكُ خَلْقِـــى بَـــدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ وَلَـــمْ يَكْتَنِفْنِى – مِنْ نَوَاحِيكِ – مَنْشَأُ

ويأخذ شاعرنا بعد هذا ليحدثنا بصفات تلك المدينة، فنهارها مضيء وضاء مشرقٌ، وكذا ليلها، وتربتها خصبة، وأشجارها يانعة، لا تعرف العطش، وأرضها معشـــبة على الدوام، حتى ولو لم تسقط عليها الأمطار، ولهذا ترتاح النفوس حين تتفيأ بظلّها، يقول[4]:

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تَكْسِى، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ

---

[1] ديوان ابن زيدون، ص ١٣٣.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه.
[4] المصدر نفسه.

وَرَيَّـــاكِ رَوْحٌ لِلـــنُّفُوسِ وَرَيْحَـــانُ وَحَسْـــبُ الأَمَانِـــي ظِلُّـــكِ المُتَفَـــيَّأُ

أمـــا وقـــد وصـــف الشاعر لنا قرطبة وجمالها، فإنه ينتقل ليعدد لنا بعض معالمهـــا التي خلّدت في نفسه كل مشاعر الفرح والسرور، فيتذكرها من خلال بثه لمشاعر الحنين والشوق لمدينته الزاهية.

ومـــن هذه المعالم: العقاب، والرصافة، والجعفرية، والعقيق، وعين شهدة، والقـــنطرة، والجوســـق النصـــري (القصـــر) ومصـــنعة الدولاب وقصر ناصح والزهراء.

فقـــد قضى زمانه الهادىء الناعم في "العقاب"، ولن ينسى عيشة الرغد في أكـــناف مدينة الرصافة، ولن ينسى، أيضاً مكان الغناء واللهو في الجعفرية، وكيف سينســـى أيـــام الأنـــس والصبا، هذه التي قضاها في أجمل رياض الأرض، وبين جداول الماء الثكلى.

أمّـــا العقيق فهو مكان الخمر واللهو عند ابن زيدون (كما ورد في القصيدة السابقة) ذلك المكان الذي يمتلىء بالزهور الجميلة، وإذا ما جلست فيه تشعر وكأن الهـــواء يخبر بالمطر، وترى الجو مقنّعاً بالغيوم، ولكن سرعان م،ا يدهشك الأمر عندما ترى أشعة الخمر تتلألأ في الكؤوس.

ولـــم تخـــتلف عين شهدة عن العقيق، إلاّ أن طقوس اللهو هنا تختلف عن ســـابقتها، فهـــنا امرأة حورية غيداء تزف عروس اللهو -كأس الخمر- للشاربين، هـــذه المـــرأة صـــاحبة مبسم عذب، وخدها مورد ،ويدها مصبوغة باللون الأحمر المنبعث من أشعة المدام يقول[1]: (الطويل)

أَأَنْسى زَمَاناً "بِالعُقَابِ" مُغَفَّلاً؟
وَعَيْشاً بِأَكْنَافِ "الرُّصَافَةِ" دَغْفَلاً ؟
وَمَغْنىً – إِزَاءَ "الجَعفرِيَّةِ" أَقْبَلاَ
لـــنِعْمَ مَـــرَادُ الأُنْـــسِ رَوْضاً وجَدْوَلاَ وَنِعْـــمَ مَحَـــلُّ الصَّـــبْوةِ المُتَـــبَوَّأُ

---

[1] ديوان ابن زيدون: ١٣٣ -١٣٤.

ويسير الشاعر على القنطرة الممتدة على مجرى الماء، ليصل إلى قصر الخلافة الذي بُنى على الرمال البيضاء، ولينتقل منه إلى تلك الروابي على شاطيء النهر، لتهب عليه رياحٌ عطرةٌ محملة بأجمل نواوير وطنه، لتتمايل أمامه وكأنها عروس ترقص على شاطيء النهر. فقد جاءت الرياح بالبشرى، بل إنها شكلت الدافع الأقوى لحنين هذا الغريب القريب، يقول[1]: (الطويل)

وَكَائنْ عَدَوْنَا – مُصْعِدينَ – عَلَى الجِسْرِ
إِلَى (الْجَوْسَقِ النَّصرِيِّ) بَيْنَ الرُّبَا العُفْرِ
وَرُحْنَا إِلىَ الوَعسَاءِ مِن شَاطِئِ النَّهرِ
بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةَ النشرِ عَلَى قُضُبِ النُّوَارِ، فِهِي تُكَفأُ

ولا بد له أن يسلي نفسه، فيخلق من اللاوجود شخصا يطلب منه الإحسان إلى تلك الأيام الجميلة التي قضاها في "مصنعه الدولاب" و"قصر ناصح"[2].

وَأَحْسِنْ بأَيَّامٍ – خَلَوْنَ – صَوَالِحٍ
(بمَصْنَعَةِ الدُّولابِ)، أَوْ قَصْرِ (نَاصِحِ)
تَهُزُّ الصَّبَا –أَثنَاءَ تِلْكَ الأَبَاطِحِ
صَفِيحَةَ سَلْسَالِ المَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ

أمّا الزهراء" فهي آيةٌ عظيمة في الجمال والرقة لدى الشاعر فهو يمدحها، ويصفها بالمنظر البهيج، والنفس الرقيق، وصحة الجوهر، والمبدأ والمحضر الجميل، ولشدة تعلق ابن زيدون بها يشبهما بجنة عدن، أما أنهارها فهي كنهر الكوثر في الجنّة ولهذا فإن هذا المنظر يزيد العمر طيباً، يقول[3]: (الطويل)

وَ يَا حَبَّذَا "الزَّهْرَاءُ" بَهْجَةَ مَنْظَرِ

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣٥.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه.

وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ، وَصِحَّةَ جَوْهَرِ

وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضرِ

وَجَـنَّةِ عَـدْنٍ تَـطَّبِـيكَ وَكَوْثَـرِ بِمَـرْأى يَزِيدُ العُمْرَ – طِيباً – وينْسَأُ

ويعـود ليبكـي تلـك الميادين مرة أخرى، هذه الميادين التي فَضُلَتْ عليه بالنعـيم، وبالحياة، الخصْبة، والتي حلّ بها الربيع مصبغاً إياها بكل مزايا الجمال، فيبكيها، ومن ثم يقرئها السلام، يقول[1]: (الطويل)

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا

أَغَضَّ – مِنَ الْوَرْدِ الجَنِيِّ – وَأَنْعَمَا

لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنمْنَا

وَقَدْنَـا إلـىَ اللذَّاتِ – جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَـهُ الأَمْـنُ رِدْءٌ، وَالغَضَـارَةُ مَرْبَأ

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْىَ الخَمَائِلِ

وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضى الرِّيَاحِ البَلائِلِ

وَغَادَى بَنُوهَا العَيْشَ حُلْوَ الشَمائل

وَلاَ زَالَ مِـنَّا بِالضُّـحَى والأَصَـائِلِ سَـلاَمٌ – عَلَـى تِلْكَ المَيَادِينِ – يُقْرَأُ

ولكـن لا بد لجبروت الإنسانية أن يضعف أمام شبح الغربة، فقد أصبحت حياته (ابن زيدون) مليئة باليأس والحزن، فليطأطأ رأسه وقلبه لهذا الشوق القاتل، يقول[2]: (الطويل)

ظَعَنْت، وَكَانَ الحُرُّ يُجْفى فَيَظْعَنُ

وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بالأَسى حِينَ أَحْزَنُ ٦٠٦٣٩٥

وَقَرَّ – عَلَى اليَأْسِ – الْفُؤَادُ الموَطَّنُ

وَ إِنَّ بِـلاداً هُنْـتُ فِـيهَا لأَهْـوَنُ وَمَـنْ رَامَ مِـثْلى بِالدَّنِـيَّةِ أَدْنَـأُ

ولذلـك يتمـنى الهوان في بلده ويفضّله على الغربة، وأي غربة تلك، وأي وحشـة وهـو يعيش في السجن وحيداً، وعلى الرغم من ذلك فإنه صاحب عزيمة

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣٦.

[2] المصدر نفسه: ص ١٣٦-١٣٧.

سديدة، ولهذا يشبه نفسه داخل السجن بالشمس التي تحبسها الغيوم، وبالسيف القاطع داخل الغمد، وبالأسد في الغابة، وكذلك بالصقر في عشه، وبتحفة ثمينة محفوظة داخل وعاء ومخبأة.

وهو يختلق هذا كله ليسلي به نفسه، وليبعدها عن ذلك الجو العصيب، ولهذا لا بد أن يخرج... لا بد أن يخرج إلى قرطبة، لتشرق شمس الحرية عليها، ولتدافع عنها السيوف، ولتستمر السيادة في منابرها، ولتحيا بأمن ورفاه ورغد في العيش.

ويكشف الشاعر لأهله في قرطبة حبه وشوقه لمعانقتها بوجهه المشرق المتلألئ كالكواكب، يقول[1]: (الطويل)

وَلاَ يُغْبِطِ الأَعْدَاءَ كَوْنِيَ فِي السِّجْنِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وَمَا كُنْتُ إلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْنِ
أَوِ اللَّيْثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى فِي الصِّوَانِ وَيُخْبَأُ
يَضِيقُ بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ مَذْهبي
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ مِنْكُمْ مُهَذَّبِ
مَفَضَّضِ لأَلاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ
يُنَافِسُ مِنْهُ البَدْرُ غُرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

ولكنه يأسف لفراقهم، فلم يعد للخمرة مكان، حتى وإن أسرع دبيبها في جسمه، ولم يعد يهتز قلبه للأوتار حين تأسر بألحانها القلوب، ولم يعد يعدل عن الزفرات حين يلام، فلم يعد هناك ما يفرحه سوى سماع أخبار أهله.

أولئك الذين يرى أن أيامهم حميدة هانئة، وأنَّ الدنيا تفرحهم، بل وتدللهم بحسن ورفق، ليعيشوا بأمان في أكناف مدينتهم، حيث كل ما يتمنونه سهل لهم وميسَّر، يقول[2]: (الطويل)

أَسِفْتُ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تَعْمَلُ -

---

[1] ديوان ابن زيدون، ص ١٣٧.

[2] المصدر نفسه، ص ١٣٨.

وَلا أُسْعفُ الأوتَارَ – وَهِيَ تَرَسَّلُ –
وَلاَ أرْعَوِى عَنْ زَفْرَةٍ – حِينَ أُعْذَلُ –
وَلاَ لِـيَ – مُـذْ فَارقْـتُكُمُ – مُتَعَلَّلُ سِوىَ خبَرٍ مِنْكُمُ – عَلَى النَّأْيِ – يَطْرَأُ
حَمِدْتُمُ – مِنَ الأَيامِ – لِينَ خِلاَلِهَا
وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلاَلِهَا
مُؤمِّنةٌ مِنْ عَتْبِهَا وَمَلاَلِهَا
وَلا زَالَ مِـنْكُمْ لابِـسٌ مِـنْ ظِلاَلِهَا يُسَـوِّغُ أَبْكَـارَ المُـنَى وَيُهَـنَّأُ

وهكـذا رأيـنا الشـاعر باكياً على مدينته الأم، متوداً إليها، باراً بها، بكل مشاعر الوجد والحزن وألم الفراق، ويتمنى رؤيتها، والعيش تحت ظلّها، كما يعيش بقـية أهلـه، بين العينة والأخرى، ويصفها وصفاً دقيقاً، ويصف حال أهلها أيضاً، مسلياً النفس بالدموع التي طالما أجّجتها عناصر بيئته من رياح وبرق... إلخ.

إنَّ هـذه المقارنـة بين أحوال الأهل في بلاده، وبين تلك التي يعيشها في السـجن، جعلته تحت وطأة شعور عميق بالأسى، ليقوده إلى الشعور بالندم لفراق وطنه، ولذلك يئن إليه باكياً.

وقـبل أن ننـتقل إلى القصيدة الثالثة نرى أن قصيدتي ابن زيدون السالفتي الذكـر،قد شـكلتا أحـد نمطـي الحنين إلى الماضي في مدينة قرطبة وهو حب الوطن[1]

أمـا هذه القصيدة وهي "مجالي الزهراء" فقد قالها الشاعر بعد فراره من قرطبة، عـند عودته إلى الوهراء مستفياً، وأرسلها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفي، وفيها يسير على النمط الآخر، وهو وصف طبيعة بلده، والتعلق بها، ويظهر في القصيدة بشكل جلي وواضح.

فالشـاعر يتشـوق إلـى حبيبته متعلقاً بالطبيعة، ينهل من معين ألفاظها ما يشـاء. ولهذا نجد أن الطبيعة قد شكلت في (مجالي الزهراء) إحدى دوافع الحنين

---

[1] إحسـان عباس: دراسات في الأدب الأندلسي، البير مطلق، وداد القاضي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٧٦م،ص ١٨١.

التي استنطقت الشاعر بهذا الحنين الذي بدأه بمقدمة غزلية طللية، يقول[1]:

(البسيط)

إنـــي ذَكَـــرْتُكِ"بالزَّهْـــرَاءِ" مُشْـــتَاقاً ... والأُفْقُ طَلْقٌ، وَمَرْأى الأرْضِ قَدْ رَاقَا

وَلِلنَّسِـــيمِ أعْـــتِلالٌ - فـــي أصَائِلِه ... كَأَنَّـــهُ رَقَّ لِـــي، فاعْـــتَلَّ إشْـــفَاقا

والرَّوْضُ-عَنْ مَائِهِ الفضِّيِّ - مُبْتَسِمٌ، ... كَمَـــا شَقَقْتَ - عَنِ اللَّبَّاتِ - أَطْوَاقا

نَلْهُـــو بِمَـــا يَسْـــتَمِيلُ العَيْنَ مِنْ زَهَرٍ ... جَـــالَ الـــنَّدَى فِيهِ، حَتَى مَالَ أَعْنَاقا

كـــأنَّ أعْيُـــنَهُ - إذْ عَايَنَـــتْ أَرَقِي - ... بَكَـــتْ لِمَـــا بِي، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقا

وَرْدٌ تَـــأَلَّقَ - فـــي ضَـــاحِي مَنَابِتِه ... فازدَادَ مِنْهُ الضُّحى في العَينِ إِشْرَاقا

فتذكره لولاّدة كان في مدينة الزهراء حيث الطبيعة ساحرة بكل ما فيها.

فالأفق طلق. ووجه الأرض سهل منبسط رائق.

وهواء النسيم رقيق يشفق على الشاعر فيصبح عليلاً.

والروض ضاحك وهو يحيط بالماء كما يحيط الطوق بصدر الفتاة.

والزهور جميلة جداً خاصة إذا ما ابتلت بالندى ومالت أعناقها خجلى، فهي تزيد العين إشراقاً.

"ولهذا تترقرق عيناه فيبكي".

وفي وقت الضحى تزداد العيون إشراقاً لتنظر إلى الورود بشغف.

والنـــيلوفر - ذلك الزهر الكبير- الذي ينبت في المياه الراكدة والذي تتفتح أزهاره في الصباح معلنة بداية النهار.

وأيام اللّذات التي قضاها مع محبوبته.

إن كـــل صـــفات الطبيعة الخلابة هذه بعثت في نفس الشاعر ذكرى تشوّقه لحبيبـــته ولاّدة، ولعلّ تذكّر الشاعر لحبيبته والحديث عن الطبيعة (المكان) قد شكل لديه حباً للوطن بثه من خلال حنينه لقرطبة.

فـــتذكر المحـــبوبة مضافاً إليه الحديث عن الطبيعة التي تسكن فيها يكافئ الحنيـــن إلـــى الوطـــن (قرطبة)، ولأن تلك المجالات تهيّج في الشاعر ومحبوبته الذكـــريات الماضـــية التـــي قضـــياها معاً، لذا نرى أنَّ صدره لم يعد قادراً على

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٣٩-١٤٠.

اســتيعابها، فينفجر داعياً لعدم سكون قلبه وهدأته، إنْ جحد ذكر تلك الحبيبة، ولم يطر إليها على أجنحة الشوق.

أمّــا القصيدة الثالثة التي عنونها محقق ديوان ابن زيدون علي عبد العظيم فهــي تحمــل عــنوان معــاهد صبوات"، لعل بهذا الجمعين (التكسير في معاهد، والمؤانــث السالم في صبوات) يكون الجمع والألفة والتحاب بين شاعرنا وحبيبته قرطــبة، لا ســيما وأن شاعرنا قد صاغ هذه القصيدة في الشوق إلى مراتع لهوه وملاعب هواه بقرطبة[1].

ولهــذا يــبدأ المشــهد بالسلام والتحية على كل ما يتذكره من معالم قرطبة الساحرة، ويخص (الثغب الشهدي) بالتحية، (ووادي العقيق) بالسلام.

وحُــب الوطن هنا هو قارب الحنين الذي سيوصل شاعرنا لجنته، ويخفف عــنه أحــزانه، فبعد أن سلّم على "وادي العقيق" وحيّا الثغب الشهدي" يسير ليرى أزهــار "الرصافة" الضاحكة التي تسقيها السماء ببكائها ويسقيها الشاعر بدموعه، يقول[2]: (الطويل)

عَلَــى (الثَّغْــبِ الشَّــهْدِيِّ) مِنِّي تَحِيَّةٌ ... زَكَــتْ، وَعَلَى (وَادِي العَقِيقِ) سَلامُ

وَلاَ زَالَ نَــوْرٌ (فِي الرُّصَافَةِ) ضَاحِكٌ ... بِأَرْجَائِهَــا يَــبْكِي عَلَــيهِ غَمَــامُ

وكــيف سيســتمر الشاعر في حنينه دون أن يوظّف إحدى أهم مستلزمات الحنيــن؟ وهــي ذكر معاهد أنسهم ولهوهم، فالخمرة تدار عليهم وهم جالسون في روضة بل في إحدى جنان الأرض تغمرهم الفرحة، ويظلهم العيش الرغد المرفه، يقول[3]: (الطويل)

مَعَــاهِدُ لَهْــوٍ لَــمْ نَــزَلْ فِي ظِلالِهَا ... تُــدَارُ عَلَيْــنَا – لِلمُجُــونِ – مُــدَامُ

زَمَــانَ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ ... تَــرِفُّ، وَأَمْــوَاهُ السُّــرورِ جِمَــامُ

فَــإِنْ بَــانَ مِنِّــي عَهْدُهَــا، فَبِلَوْعَةٍ ... يُشَــبُّ لَهَا – بَيْنَ الضُّلُوعِ – ضِرَامُ

تَذَكَّــرْتُ أَيَّامِــي بِهَــا، فَتَــبَادَرَتْ ... دُمُــوعٌ، كَمَــا خَــانَ الْغَــرِيدَ نِظَامُ

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٥٢(الحاشيه).

[2] المصدر نفسه: ص ١٥٢ .

[3] المصدر نفسه.

ولعلّ الدموعَ أبت إلاّ أن تلاحق ابن زيدون أينما حل فهو لا يقوى عليها بل إنه راغب بها عسى أن تخفف عنه معاناته التي يحياها.

وينتقل ابن زيدون في معاهد صباه ليتذكر أيام الصبا ويعبّر عن شوقه للأهل والأصدقاء كلازمة من لوازم الحنين فيتذكّر أصحابه الذين كانوا له كالسيف يدافعون عنه إذا أصابه خطب شديد، يقول[1]: (الطويل)

وَصُحْبَة قَوْمٍ كَالمَصَابِيحِ، كُلُّهُمْ ... إذَا هُزَّ لِلخَطْبِ المُلِمِّ – حُسَامُ

إذَا طَافَ بالرَّاحِ المُدِيرُ عَلَيْهِمُ ... أَطَافَ بِهِ بِيضُ الوُجُوهِ، كِرَامُ

ويذكر ابن زيدون مجالس لهوه مع أصحابه واصفاً الخمرة ومسقيها، ليجعل ذلك كلّه سبباً لدعائه بالسقيا لقرطبة المنُى بذلك المطر الخفيف الدائم الذي لا يسبب الأذى ويريد منه أن يصيب مكان أنسهم ولهوهم أيام الصبا والسهر، أيام العشق والتصابي، يقول[2]: (الطويل)

فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطُبَةِ المُنَى ... بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهْوَ رِهَامُ

مَحَلٌّ غَنِينَا بالتَّصَابِي خِلاَلَهُ ... فأَسْعَدَنَا، وَالحَادِثَاتُ نِيَامُ

فَمَا لِحَقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلاَمَةٌ ... وَلاَ ذُمَّ مِنْ ذَاكَ الحَبِيبِ ذِمَامُ

ففي هذه القصيدة تجلى المكان (قرطبة) من خلال:

- دعاء الشاعر لها بالسقيا.
- شوقه إلى مراتع لهوه وملاعب هواه بقرطبة.

أما وقد وصلنا إلى القصيدة الرابعة من قصائد شاعرنا ابن زيدون حول حنينه إلى قرطبة، فإنّا الآن في ذروة الحدث الإنفعالي، فلقد زفر الشديد (في شمال غرب قرطبة) أثناء لجوئه الى (بطليوس) [3] فقال أرجوزته (زفرة الشريد) بعد أن طافت أنهار شوقه، وثارت براكين ولعه وحبّه، واشتعلت نيران شوقه لمعاهد

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٥٢.

[2] المصدر نفسه: ص ١٥٣.

[3] هي إحدى مدن الأندلس، وفيها يقول الفقيه الشاعر أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي:

وهل بطليوس في نظم مناظرة ... يوماً لقرطبة في حكم ذي نظر

انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص٧١٩.

ولهـذا كانـت هذه القرى والقصور والحصون أماكن يلتقي بها الشاعر مع محبوبـته صـاحبة الدلال والنعمة التي كانت تخدع الرقباء وتتحين الفرص تحت جنح الظلام لقاء ابن زيدون فهي تقول له[1]: (الطويل)

ترقَّـب إذاَ جُـنَّ الظَّـلامُ زيَارتـي فإنـي رأيـتُ اللـيلَ أكْـتَم للسـر

وهكـذا كـان يقضي ابن زيدون أجمل لحظات الحبِّ والعشق فعندما كان يقترب الليل على الانتهاء كان شاعرنا ينسل من مخدع عشيقته بعد أن عاش معها لحظات من العشق والمنادمة كما ينسل الذئب، ولكن هل سيتوب الشاعر عن ذلك؟ يقول[2]: (الرجز)

إنْ قَرَّتِ العَيْنُ بأنْ أرُوبَا
لَمْ آلُ أنْ أسْتَرضِيَ الغَضُوبَا
حَسْبيَ أنْ أُحَرِّمَ الابتعاد
قَدْ يَنْفَعُ المُذْنِبَ أنْ يَتُوبَا

فـإذا ما قرّت عينه بالعودة إلى قرطبة، فإنه لن يتوب عما فعل ولهذا يهدأ بالـه إن لم ترضَ ولادة عنه فهي كثيرة الغضب، وهذا يجعله يحرم الابتعاد عنها، ولهذا فهو إنسان مذنب، أذنب لحق ولاده، وسيعلن لها التوبة.

ولم تكن هذه الأرجوزة البائية إلاّ تعبيراً دلالياً لموقف المغترب، فقافية الباء المفتوحة بحركة طويلة جاءت لتوحي لنا بأن زفير الشاعر الذي يغوص في أعماق صدره قد خرج محملاً بالشوق والحنين والآهات، فجاء هذا المد الطويل لعلّه ينفس عن الشاعر كُرَب تلك الأيام.

والآن ننـتقل لـنرى شاعرنا وهو في بطليوس (بعد أن قضى فيها بضعة أشـهر عند تعريجه عليها أثناء هجرته من قرطبة إلى إشبيلية) ولنراه دامي القلب مشـرد اللبِّ، زاره العيدان فزاده شجناً على أشجانه، وتذكر مواطن لهوه ومرابع

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٥٦ (الحاشية).

[2] المصدر نفسه، ص ١٥٧.

أنســـه بقرطبة، فهاجته الذكريات قائلاً قصيدته التي عنونها محقق ديوانه بـــ (أنة الطـــريد) مرسلاً فيها زفراته التي تحمل مشاعر الأنين لتشتعل بها مذاكي الحنين والشوق إلى قرطبة[1] فيبدأ ابن زيدون قصيدته متأثراً بقول المتنبي[2]: (البسيط)

عـيد بأيّـه حـالٍ عُـدْتَ يـا عيد؟ لمـا مضـى؟ أَمْ لأمْـر فيكَ تجديدُ؟

فـلا عـيد الفطـر ولا الأضحى يسران الشاعر ويسعدانه، فكيف ينعم قلبه والشوق يؤرقه في المساء ويهيجه في النهار، يقول[3]: (الطويل)

خَلِيلَـيَّ لاَ فِطْـرٌ يَسُـرُّ وَلاَ أَضحى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسى مَشوقاً كَمَا أَضحى؟

وبعـد أن يوصلنا الشاعر إلى حالته النفسية القلقة، يأخذ بتعداد بعض معالم قرطبة من قرى وحصون وقصور ورياض، فيصفها لنا حسب ما تمليه عليه نفسه مـن مشـاعر تجاه تلك الأماكن، فيتذكر لنا "شرق العقاب" ويخصه بخالص شوقه وحـبه. ويذكـر "جوفـي الرصافة" (شمالها) وهي مكان نشأته، ولعلها من أبرز دواعي ذكراه، التي تولد ي نفسه حزناً مبرحاً عنيفاً.

أما "قصر الفارسي" فهو يبعث في نفس الشاعر أشواقاً تشعل نيران الحزن والأسى في صدره.

ويـتذكر أيضاً الأماكن التي تعاقب فيها كثيراً مع أصحابه "مجلس ناصح" و"عين شهدة" فهي أماكن يحلو فيها السمر ويجمل.

ومـن الأماكن أيضاً (مسناة مالك)، ذلك السد الذي قضى فيه الشاعر أجمل الأيـام وأسـعد اللحظات حيث كان يمارس فيه هواية السباحة، ويرفل وأصحابه بجلسـات هادئـة، وبمـناظر باهرة جميلة تغمرهم بالفرح والسرور أينما وجهوا أنظـارهم، ولا بُدَّ له أن يتذكر المكان الرومانسيّ الذي يصله بحبيبته (لا سيما في أيـام العيد) "العقيق" "مسناة مالك"، إنَّ هذه المعالم التي قام الشاعر بوصفها راسماً

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٥٨.

[2] المصدر نفسه: ص ١٥٨ (الحاشيه).

[3] المصدر نفسه : ص ١٥٨.

صـــورتها الزاهية في نفوسنا هي معاهد لذّات وأنس قضى فيها أجمل أيام صباه، يقول[1]: (الطويل)

لَئِـــنْ شاقَني (شَرْقُ العُقَابِ) فَلَم أزَلْ ... أُخَصُّ بِمَمْحُوضِ الْهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا

وَمَـــا انْفَكَّ جوفِيُّ (الرُّصافَةِ) مُشْعِرِي ... دَوَاعِـــيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الأَسَفَ البَرْحَا

وَيَهْـــتَاجُ (قَصْـــرُ الفَارِســـيِّ) صَبَابَةً ... لِقَلْـــبِيَ، لاَ تَـــأْلُوا زِنَـــادَ الأَسى قَدْحَا

وَلَـــيْسَ ذَمِـــيما عَهْدُ (مَجْلِس نَاصِحٍ) ... فَأَقْـــبَلَ فِـــي فَرْطِ الوَلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَـــأَنِّيَ لَـــمْ أَشْـــهَدْ لَدى (عَيْنِ شهدَةٍ) ... نِـــزَالَ عِـــتَابٍ كَـــانَ آخِـــرُهُ الْفَتْحَا

وَقَـــائِعُ جَانِـــيهَا التَّجَنِّـــي، فَإِنْ مَشَى ... سَـــفِيرُ خُضُـــوعٍ بَيْنَـــنَا أَكَّدَ الصُّلْحَا

وَأَيَّـــامُ وَصْـــلٍ (بالعَقِـــيقِ) اقْتَضَيْتُهُ ... فَـــإِلاَّ يَكُـــنْ مِـــيعَادُهُ العِيدَ فَالفِصْحَا

وآصَـــالُ لَهْـــوٍ فِـــي (مُسَـــنَّاةِ مَالِكٍ) ... مُعَاطَـــاةَ نَدْمَـــانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا

ولم يغفل الشاعر ذكر الزهراء والحنين إليها، فهو يتمنى أن يعود إليها بعد أن برح به الشوق وجفت ينابيع دموعه.

فيـــتذكر قصور الملوك التي كانت تنير سماء المدينة محولة ليلها إلى نهار، ولـــم يكـــتف بهـــذا، بـــل يأخذ بتذكّر ما تحويه الزهراء من معالم وآثار: "كالقبة" و"الســـفح" و"الكوكـــب الرحب"، ولكونه بعيداً عن تلك الميادين نراه يتوهم أشكالها حتى يجسدها له خياله أمام ناظريه، فينظر فرحاً لرؤيتها.

ولهـــذا تشـــبه الزهراء بجنة الخلد حيث النعيم الدائم والرغد والظل، وهنا اقتـــبس شاعرنا هذا المعنى من قوله تعالى لآدم: "إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى، وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى"[2]، يقول[3]: (الطويل)

أَلاَهَـــلْ إِلـــى (الزَّهْـــرَاءِ) أَوْبَةُ نَازِحٍ ... تَقَصَّـــى تَنَائِـــيَهَا مَدَامِعَـــه نَـــزْحَا

مَقَاصِـــيرُ مُلْـــكٍ أَشْـــرَقَتْ جَنَـــبَاتُها ... فَخِلْـــنَا العِشَـــاءَ الجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا

يُمَـــثِّلُ قُرْطَـــيْهَا لِـــيَ الوَهْـــمُ جَهْرَةً ... فَقُبَّـــتَهَا، فَالكَوْكَـــبَ الرَّحْبَ، فَالسَّطْحَا

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٥٨-١٥٩.

[2] القرآن الكريم: سورة طه، آية ١١٨-١١٩.

[3] ديوان ابن زيدون : ص ١٦١(الحاشية).

مَحَــلٌ ارْتِــياحٍ يُذْكِــرُ الخُلْــدَ طِيبُهُ إذَا عَزَّ أنْ يَصْدىَ الفَتى فِيه أوْ يَضْحى

وينتقل ليبّين حال قرطبة وحال مدينتها (الزهراء) مقارناً ذلك بحاله فهي:

- مدينة غزيرة الماء[1]: (الطويل)

هُــنَاكَ الجِمَــامُ الزُّرْقُ تُنْدَى حِفَافَهَا ظِــلاَلٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتَىً سَمْحَا

- الزهــراء مدينة طرب ولهو ولكنه استعاض في غربته عن ذلك بتلك الأصوات المخيفة التي تبعثها الصحراء[2]: (الطويل)

تَعَوَّضْــتُ مِــنْ شَــدْوِ القِيَانِ خِلاَلَهَا صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الكَرَى ضَبْحَا

- ولقــد كانــت حياته آمنة هانئة جعلته يتلذذ بكأسه على الدوام، أما الآن فأصبح خائفاً هائماً في الصحراء متوشحاً رمحه[3]: (الطويل)

وَمِــنْ حَمْلِــيَ الكَأْسَ المُفَدَّى مُدِيرُهَا تَقَحُّــمَ أَهْــوَالٍ حَمَلْــتُ لَهَا الرُّمْحَا

- أما لياليه على شواطيء (نيطة) فكم كانت مليئة بالخيرات والنعيم ولهذا لم يشعر بهــا فكانــت قصــيرة، أما الآن بعد أن أصبح بعيداً عنها أصبحت لياليه طويلة زاخرة بالأخطار والمهالك[4]: (الطويل)

أَجَــلْ إنَّ لَــيْلِي فَــوْقَ شَاطِىءِ نِيطَةٍ لأَقْصَــرُ مِــنْ لَــيْلِي بآنَــةَ فَالبَطْحَا

وأخــيراً يورد ابن زيدون آخر قصائده بنغمة، معبرةً بذلك عن ذلك الحدث التراجيدي الذي أراده منذ بداية القصة.

"فلا أهل ولا وطن" هذا هو آخر معنى ترجم من خلاله الشاعر حياته، وهنا ســيناجي أهلــه بنغمة الألم المرير، وهنا استخدم الشاعر القافية النونية، وبأسلوب استفهامي أخذ يعبر عن شوقه وولعه قائلاً[5]: (البسيط)

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٦١.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

[5] المصدر نفسه.

هَـلْ تَذْكُـرُونَ غَرِيـباً عَـادَهُ شَجَنُ مِـنْ ذِكْرِكُمْ – وَجَفَا أَجفانَهُ الوَسَنُ ؟
يُخْفِـي لَوَاعِجَـهُ وَالشَّـوْقُ يَفْضَحُهُ فَقَـدْ تَسَاوَى – لَدَيهْ – السِّرُّ وَالعَلَنُ

فلـم يعد للحياة لديه مقياس، الشيء وضده سيّان، فقد أصبحت حياته ملأى بالحسرة والتأوّه بل إنّه أوشك على أن يفقد فؤاده لا سيما إذا ما شاهد تلك الحمامة الحزينة التي أصبح حالها كحاله.

إنـه لمـنظر مدهش حقاً وغريب حمامة ترقد فوق شجرة ضخمة حزينة، وغريـب "لا أهـل ولا وطن"، ينظر إليها وعيناه تترقرقان بالبكاء، وبينهما غصن شـجرة يـتمايل، ولـم يأت هذا عفو الخاطر، فالحمام يشكل وسيلة حنين عند ابن زيـدون، حملـته مـن ملجأ الحزن والآهات إلى مرفأ الأطلال، -حتى كان ذلك خـيالاً- إلـى مكـان الأهـل والأحـباب ليحـيا نشوة اللقاء مقاتلاً شبح الغربة، يقول[1]:(البسيط)

يَـا وَيْلَـتَاهُ، أَيـبْقَى فـي جَوَانِحِـهِ فُـؤَادُهُ، وَهْـوَ بـالأَطْلاَلِ مُرتَهَنُ ؟
وَأَرَقَّ العَيْـنَ – وَالظلمـاء عاكفـةٌ– وَرْقَـاءُ، قَدْ شَفَّهَا، إذ شَفَّنِي – حَزَنُ
فَبِـتُّ أَشْـكُو وَتَشْـكو فَـوْقَ أَيْكَتِهَا وَبَـاتَ يَهفُـوُ ارْتِياحاً بَيْنَنَا الغُصُنُ

فالمغـترب يتعلق بأوهى سبب، ليشفي غليله، ويعود به الى أرض الوطن، ولهـذا شكلت الحمامة معادلاً موضوعياً للأمل، أما ذلك الغصن فهو يصعد الأمل الـذي يوصـل الشـاعر ويذكـره بأهله فيتطلع إليهم بدهشة، وأحاسيسه تستنطقه قائلة[2]: (البسيط)

يَـا هَـلْ أُجَـالِسُ أَقوَامـاً أُحِـبُّهُمُ؟ كُنَّا وَ كَانُوا – عَلَى عَهْدٍ – فَقَدْ ضَغَنُوا
أَوْ تَحْفَظُـونَ عُهُـوداً لاَ أُضَـيِّعُهَا إنَّ الكِـرَامَ – بحفْـظِ العَهْدِ – تُمْتَحَنُ

وأخيراً يعاود ابن زيدون ليقارن حاله بحال أهله من خلال منظومة الشوق والحنيـن إلـيهم والتـي اتبعها مراراً في كل قصائده القرطبية، فتكون هذه السمة الأسلوبية قد ظهرت في أشعاره، كما ظهرت في أشعار غيره من الأندلسيين الذين

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٦٢.

[2] المصدر نفسه.

هاجـــروا أو هجّروا من قرطبة وأهاجتهم مشاعر الوفاء والحنين إلى تلك الأرض الطاهرة.

فهـــو يـــرى أنّهـــم يعيشون الأعياد بفرح وسرور، وهو يقتله الجوى، وهم يقضـــون الليالـــي بالسهر والمرح، وهو وحيد لم يعد يملك شيئاً فبماذا يسلّي نفسه ويعزّيها؟.

أيعـــزيها بأهله؟ فلم يعد له أهل، أم سيعزيها بوطنه؟ وأين هو ذلك الوطن؟ وأين أولئك الندماء؟ افسيعزيها بكأسه؟ ولكن هيهات هيهات. فلم يعد ينتشي بلذتها.

ولـــم يبقَ له في الوطن سوى محبوبته.. ولكن أترى أن الزمان قد أبقى له وقتاً ليزورها، أو ليفكر فيها، يقول[1]: (البسيط)

إنْ كَـــانَ عَـــادَكُمُ عِـــيدٌ، فَـــرُبَّ فَتَىً ... بِالشَّوْقِ قَدْ عادَهُ – مِنْ ذكْرِكُمْ – حَزَن

وَأفَـــرَدَتهُ اللَّيَالـــي مِـــنْ أحِبَّـــتِهِ ... فَـــبَاتَ يُنْشِـــدُهَا – مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ–:

"بِـــمَ الـــتَّعَلُّلُ ؟ لاَ أهْلٌ ! وَلاَ وَطَنٌ ! ... وَ لا نَدِيـــم ! وَلاَ كَأْسٌ ! وَ لاَ سَكَنُ !"

فهذه نهاية مسلسل شاعرنا، وهي تشكل بداية الحدث الباكي، الحدث الحنيني الـــذي يعـــود بالشـــاعر إلـــى الانطلاقة الأولى التي تذكر فيها مواطن الجمال في قرطبة.

ولهـــذا كـــان حنيـــن ابن زيدون إلى قرطبة من أبهى وأسمى بل وأصدق الصور الحنينية التي لمسناها عند شعراء الأندلس في قصائدهم الشوقية لا سيما في القرن الخامس الهجري إلى مدينة العلم والدين مدينة الحضارة والعظمة (قرطبة).

---

[1] ديوان ابن زيدون: ص ١٦٣.

ولننـــتقل الآن إلى القاظي عياض وهو من "سبتة" ولكنّه دخل قرطبة وأقام فيها وعند رحيله عنها قال[1]: (الطويل)

أَقــولُ وَقَــدْ جَــدَّ ارْتحالي وغَرَّدتْ ... حُدَاتــي وزُمَّــتْ للفــراقِ رَكائبــي
وقَــدْ غَمِضَتْ مِنْ كَثْرةِ الدَّمع مُقْلَتي ... وصــارَتْ هــواءً من فُؤادي ترائبي
ولَــمْ تَــبْقَ إلاَّ وَقْفَــةٌ يَسْــتَحِثُّها ... وَداعــيَ للأَحْــبابِ لا للحبائــبِ
رَعَــى اللهُ جــيراناً بقُرطُــبَةَ العُلَى ... وَسَــقَّى رُبَاهــا بالعهــاد السَّواكبِ
وَحــيَّا زمانــاً بَيْــنَهُمْ قَــدْ ألفْــتُهُ ... طلــيقَ المُحَــيَّا مُسْــتَلانَ الجوانبِ
أَإخوانَــنَا بــاللهِ فــيها تَذَكَّــروا ... مَعَــاهِدَ جــارٍ أَوْ مَــوَدَّةَ صــاحبِ
غَــدَوْتُ بهِــمْ مِنْ برّهمْ واحْتفائهمج ... كَأَنِّــيَ فــي أَهْلــي وبَيْــنَ أقاربي

تظهــر هذه المقطوعة مشاعر رجل يودّع أهله وأصحابه يريد الخروج من مكــان قــد ألفــه وأحبه (قرطبة)، وأحسَّ فيه بأنه يعيش بين أهله وأقاربه، ولهذا غمضــت عيــناه من كثرة البكاء، وإنْ كانت الدموع قد أرقته قليلاً، ولكن ذكرى الجيران وحبّه لهم يدفعانه إلى التذكر والحنين، فينهض منتشياً داعياً الله أن يرعى أولــئك الجــيران، وأن يسقي أرضهم بأمطار خيرة مباركة، وهو يرى أن ذكراهم ستظل تلوح في خياله وسيحن إلى تلك البقاع.. فيقول بنفس الروح والأسلوب الذي تقدم:-[2] (البسيط)

الله يعلــم أنــي مــنذ لــم أركــم ... كطائــر خانــة ريــش الحناحيــن
فلــو قــدرت ركبــت البحر نحوكم ... فــإن بعدكــم عنــي جــنى حَيْنــي

هــذه هــي الأحاسيس والمشاعر التي عبّر عنها شاعر لم يجنِ من قرطبة سوى مروره منها فلم يطل المكوث فيها. ولكن كيف ستكون مشاعره لو كان ممن ولدوا في أرضها ونشأوا بين أحضانها؟!.

---

[1] عباس الجراري الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره حياته وشعره، منشورات دار الثقافة، الــدار البيضــاء، المغــرب، ط١، ١٣٩٤هـــ-١٩٧٤م،ص ١٠١-١٠٢.وانظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ص ٦٨٩.

[2] عباس الجراري: ص ١٠١.

أمّـا الوزير أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي (ت ٥٢٠) فلقد بعث برسـالة إلـى الوزيـر أبي الحسين بن سرّاج بقرطبة، يذكر فيها لمة من إخوانه وأصحابه ولقد ترجم رسالته بهذه الكلمات قائلاً[1]: (الكامل)

يـا سَـيِّدي وأبـي، هُـدىً وجَلالةً ... ورَسـولَ وُدِّي إنْ طَلَبْـتَ رَسُـولاَ
عَـرِّجْ بقُرطـبةٍ إذا بُلِّغْـتَها ... بأَبـي الحسـين ونَـادِهِ تَمْويـلا
وإذا سـعِدْتَ بـنَظْرَةٍ مِـنْ وَجْهِـهِ ... فـاهْدِ السَّـلامَ لِكَفِّـهِ تَقْبـيلا
واذْكُـرْ لَـهُ شَـوقي وشُكْري مُجْمَلاً ... ولَـوِ اسْـتَطَعْتُ شَـرَحْتُهُ تَفْصـيلا
بتحـيَّةٍ تُهْـدَى إلـيه كأنَّمـا ... جَـرَّتْ علـى زَهْرِ الرِّياضِ ذُيولا
وَأُشِـمُّ مـنها المُصْحَفِيَّ على النَّوى ... نَفَسـاً يُنَسِّـي السَّوْسَـنَ المَـبْلُولا
وإلـى أبـي مَـرْوانَ مـنها نَفْحَـةٌ ... تُهْـدي لَـهُ نَـوْرَ الـرُّبا مَطْلُـولا
وإذا لَقيـتَ الأَخْطلـيَّ فَسَـقِّهِ ... مـن صَـفْوِ وُدّي قَـرْقَفًا وشَـمولا
وأَبـو علـيٍّ بُـلَّ مِـنْهُ رَبْعَـهُ ... مِسْـكاً بمـاءِ غَمَامـةٍ مَحْلُـولا
واذكُـرْ لهـم زَمَـناً يَهُـبُّ نَسـيمُهُ ... أُصُـلاً كَنَفْـثِ الرَّاقـيات علـيلا
مَوْلَـىً ومَوْلَـي نِعْمَـةٍ وكَـرَامَةٍ ... وأخـا إخـاءٍ مُخْلِصـاً وخَلـيلا
بالخَـيْرِ، لا عَبَسَـتْ هُـنَاكَ غَمامةٌ ... إلاَّ تُضَـاحِكُ إذْخِـراً وجَلـيلا
يَوْمـاً ولَـيْلاً كـانَ ذلـك كُلُّـه ... سَـحَراً وهـذا بُكْـرَةً وأصـيلا
لا أدْرَكَـتْ تِلْـكَ الأهلَّـةُ دَهْـرَها ... نَقْصَـاً ولا تلْـكَ الـنُّجومُ أُفُـولا

فالبطليوسـي يـتودد إلـى رسوله أن يعرّج على قرطبة عند سفره ليهدي بسـلامه وقـبلاته إلـى صديقه أبي الحسن بن سراج، وليعبّر له عن مدى شوقه وعـرفانه لـه، ويرسم شاعرنا لرسوله أيضاً صورة تلك التحية التي سيقدمها إلى صـديقه، فهـو يـريدها أن تجري على أزهار الرياض الجميلة في قرطبة لتحمل أجمل الروائح وأبهى المناظر له، وإن كان الشاعر قد أطنب في وصف هذه التحية

---

[1] انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج١-٢، ص ٣٤٨.

فإن له ذلك، فلاغريب-كما أسلفنا- يحق له أن يتعلق بأدنى الأموروأوهنها إن كان في ذلك شفاءٌ لغليله ولوعته.

ويـــريد لـــتلك التحـــية أن تصل إلى أصدقائه أبي الحسن جعفر بن عثمان المصـــحفي فيشم رائحتها ،وإلى أبي مروان لتكون له نفحة تنير طريقه، ويريد من رســـوله أن يبعـــث بودّه الخالص إلى صاحبه الأخطليّ، وأن يبعث إلى أبي علي بتحية ممزوجة بالمسك الذي حل بماء السواكب، ويريد منه أن يذكرّ أصحابه بذلك الزمـــن الذي كانوا يجتمعون فيه، ذلك الزمن الذي رق نسيمه لهم، فاعتلت قلوبهم وسعدت به.

ذلك الزمن الذي عاشوا فيها بأمان، ونعيم وبكرامة، فكانوا أخلاء مخلصين لبعضهم، تربطهم أواصر الأخوة والمودة جميعاً.

وفـــي الـــنهاية -نهاية رسالته- يتشوق شاعرنا إلى حير الزجالي الذي يقع خـــارج بـــاب اليهود بقرطبة- مستنجداً متمنياً أن لا تغيب نجوم تلك الليالي التي قضاها بين أولئك الأخلاء في مدينتهم قرطبة.

أمّا دوافع الحنين التي حدت بالبطليوسي إلى هذا التعبير فهي:

النسيم، هو أحد عناصر البيئة التي تهيج شوق الشعراء.

تذكّـــر الأيّام والليالي السعيدة في "حير الزجالي". وكذلك تذكر معاهد اللهو والأنس مع الاصدقاء.

أمّـــا قافية الشاعر فقد جاءت تحاكي تلك المعاناة الشديدة وذلك الألم المرير الذين يحياها الشاعر، فالألف الممدودة تساعد الشاعر على السماح لزفيره المكبوت بالخروج ليخفف بذلك من ألمه المدفون.

أمـــا عبادة بن ماء السماء الأنصاري إمام الشعراء في زمنه، فيقول مبهوراً بجمال صاحبته، وجمال أناملها التي شبّهها بالعناب[1]: (الكامل)

سـقى الله أيامـــي بقرطـــبةِ المـــنى سـرورا كـــريّ المنتشي من شرابهِ

وكم مُزِجتْ لي الرّاحُ بالرّيق من يديْ أغـــرَّ يريـنـــي الحُسْـــنَ مـــلءَ ثيابه

---

[1] الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٧٣.

أوان عـــذاري لـــم يَـــرُعْ بمشـــيبه شـــبابي ولـــم يُوحـــشْ مَطارُ غُرابه
تُعلّلنـــي فـــيه الأمانـــي بوعدهـــا وهـــيهات أن أروَى بـــوردِ ســـرابه
سَـــلِ العَـــنَم البادِي من السجف دانفاً لتعذيـــبِ قلبي هل دمي من خضابه؟

وهـــو يتذكر أيام شبابه بقرطبة داعياً لها بالسقيا، ولكن السقيا عنده من نوع خاص فهي لا تروى بدموع السحائب، ولكنّها تروى بالسرور الذي تنتشي الأرض به كانتشاء صاحب الخمر من شرابه.

ويتذكر الشاعر أيضاً معاهد أنسه ولهوه وهو يسقى الخمر من أيدي الفتيات الحسان.

وبهـــذا الوصـــف حق للدكتور شوقي ضيف القول: "إنَّ ما رواه ابن بسّام للانصـــاري فـــي الذخيرة يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقيّ وبجمال الأخيلة"[1].

وقـــد كتب ابن خفاجة يشكر ابن أبي الخصال لمخاطبته إيّاه نظماً ونثراً في قصـــيدة جمـــيلة، جاءت القافية فيها على حرف القاف مجسداً من خلالها لحظات الفراق والشوق التي أراد أن يعبر عنها.

وعندما يبدأ الشاعر القصيدة يتضح أسلوبه الذي يثير الدهشة، ويضعنا أمام شاعر ينظر إلى ما حلّ به حائراً، لا يعرف هل هو في فراق أم وصل؟

ولـــم يكـــن تعبير الشاعر الحنيني تجاه قرطبة إلاّ من خلال إحدى وسائل الحنين وهو طائر الشوق (الحمام).

فالحمـــام أهـــاج فـــي الشاعر الوصل (في البيت الثاني من القصيدة) (وفي البيت الثامن عشر) حيث يريد الشاعر من الحمام أن يعبر عما يدور في ذهنه من معانـــي الوصل والوفاء، وفي البيت الثالث والعشرين يهدل الحمام بالحمد والشكر على ذلك الوصل.

---

[1] شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٠٩.

ولهـذا سـاءت حـال الشاعر واختلت موازين الحياة الخُلقية لديه (فلم يعد للوقـار مكان في نفسه) وراح يتذكر موقفاً عشقياً، مجسداً من قرطبة حبيبته التي يشتاق لرؤيتها حتى يضمها ويقبلها.

وهو يريد أن يطول الجلوس معها ليظل يشتمُّ رائحتها حتى يخفق قلبه دائماً بحـبها، وتفـيض عيناه أبداً بالبكاء على فراقها. وبهذا يكون قد بدد الصبر الذي اسـتغلق علـى نفسـه. فكان كلما اشتاق إلى حبيبته، وصبر لرؤيتها كثيراً كانت زفـرات حنينه تشتعل لتخرج نفساً قوياً يعبر عن ذلك الشوق الذي يريد له الشاعر أن يسير وادعاً حتى يصل قرطبة فهناك سيطيب لقياه ومحلّه، فلا أناس أحلى ولا مكان أجمل.

ويريد الشاعر لهذا النفس الذي أصبح نسيماً عطراً، أن يلثم يد صاحبه ابن أبـي الخصال ليشكره ويضمه معانقاً إيّاه، ومعبراً له عن مشاعر الشوق والوصل مقدماً له زهرة ذات رائحة فوّاحة عطرة.

ثـم يطلب الشاعر من ذلك النسيم أن يوصل إلى صديقه كل أهازيج الشوق والمحبة، ويطلب أيضاً من الحمامة والغمام برعده وبرقه أن يزفا إليه معاني الحمد والعرفان؛ ذلك لأن ابن أبي الخصال شخص كريم تتشرف الأرض به كما يتشرف الطـوق فـي عنق الفتاه الحسناء، ويستمر الشاعر بعد هذا بمدح ابن أبي الخصال حتى نهاية قصيدته. وهكذا كان ابن خفاجة كغيره من شعراء الأندلس، قدّ عبّر عن شـوقه وحنيـنه للقاء المحبوبة قرطبة بكبد حرّى وبقلب متعطش ترويهما الدموع الغـزار. مسـتخدماً وسائل الحنين القرطبية وهي الحمام، الغمام، البرق والرعد، النسـيم وكلّهـا عناصر أوجدتها البيئة فهي منها ولها ولهذا شكل المكان لدى جلّ شـعراء الحنين تلك العلاقة المشيمية بين الإنسان والمكان الذي ولد فيه ونشأ بين أحضانه.

أما قصيدة ابن خفاجة فهي[1]: (الكامل)

أَمُقَـامُ وَصْـلٍ أَمْ مَقَـامُ فِـرَاقِ ... فَالقُضْـبُ بَيْـنَ تَصَـافُحٍ وَعِـنَاقِ
خَفَّاقَـةٌ مَـا بَيْـنَ نَـوْحِ حَمَامَـةٍ ... هَتَفَـتْ وَدَمْـعِ غَمَامَـةٍ مُهْـرَاقِ
عَبِثَـتْ بِهِـنَّ يَـدُ الـنُّعَامَى سُحْرَةً ... فَوَضَـعْنَ أَعْـنَاقاً عَلَـى أَعْـنَاقِ
أَنْسَـيْنَنِي خُلُـقَ الوَقَـارِ وَرُبَّمَـا ... أَذْكَرْنَنِـي بِمَوَاقِـفِ العُشَّـاقِ
ضَـمّاً وَلَـثْماً وَاسْـتِطَابَةَ نَفْحَـةٍ ... وَخُفُـوقَ أَحْشَـاءٍ وَفَـيْضَ مَـآقِ
فَلَـوَ انَّ سَـرْحَةَ بَطْـنِ وادٍ باللِّوى ... حَيَّيْـتُهَا تُصْـغِي إِلَـى مُشْـتَاقِ
لَنَـثَرْتُ بالجَـرْعَاءِ عِقْـدَ مَدَامِعِـي ... فَفَضَضْـتُ خَتْمَ الصَّبْرِ عَنْ أَغْلاَقِي
وَأَرَقْـتُ فَضْـلَ صُـبَابَةٍ لِصَـبَابَةٍ ... فَرَقَعْـتُ مَـا أَخْلَقْـتُ مِـنْ أَخْلاَقِي
فَإِلَـيْكَ يَـا نَفْـسَ الصَّـبَا فَلَطَالَمَـا ... أَذْكَـى نَـدَاكَ حَـرَارَةَ الأَشْـوَاقِ
هَـا إِنَّ بِـي لَمَمـاً يُـؤَرِّقُ نَاظِرِي ... أَلَمـاً فَهَـلْ مِـنْ نَافِـثٍ أَوْ رَاقِ
سِـرْ وَادِعـاً لاَ تَسْـتَطِرْ قَلْـباً هَفَا ... بِجَـنَاحِ شَـوْقٍ رِشْـتَهُ خَفَّـاقِ
وَإِذَا طَرَقْـتَ جَـنَابَ قُرْطُـبَةٍ فَقِفْ ... فَكَفَـاكَ مِـنْ نَـاسٍ وَمِـنْ آفَـاقِ
وَالـثْمْ يَدَ ابْنِ أَبِي الخِصَالِ عَنِ العُلَى ... مُتَشَـكِّراً وَاضْـمُمْهُ ضَـمَّ عِـنَاقِ
وَافْـتُقْ بِـنَادِيهِ التَّحِـيَّةَ زَهْـرَةً ... نَفَّاحَـةً تُغْـنِي عَـنِ اسْتِنْشَـاقِ
كَالشَّـمْسِ يَـوْمَ الدَّجْنِ تَنْدَى مُجْتَنَى ... ظِـلٌّ وَتَحْسُـنُ مُجْـتَلَى إِشْـرَاقِ
وَاهْـزُزْ بِهَـا مِـنْ مَعْطَفَـيْهِ فَإِنَّمَـا ... شَعْشَـعْتَهَا كَأْسـاً بِيُمْـنَى سَـاقِ
وَالـنَّوْرُ يَـرْقُمُ مِـنْ بِسَـاطٍ بَسِيطَةً ... وَالغَـيْمُ يَنْشُـرُ مِـنْ جَـنَاحِ رِوَاقِ
وَسُـمِ الحَمَامَـةَ أَنْ تُجِيـبَ تَغَنِّـياً ... عَـنْ مَـنْطِقٍ مَـاضٍ بُلُـبِّيَ بَـاقِ
مُتَرَكِّـبٍ مِـنْ نَفْحَـةٍ فِـي لَفْحَـةٍ ... وَكَفَـاكَ مِـنْ كَـأْسٍ تُهَـزُّ دِهَـاقِ
وَخِطَـابِ بِـرِّ نَـابَ عَـنْهُ سِـفَارَةً ... إِنَّ الخِطَـابَ عَلَـى الـبِعَادِ وَتَرَاقِ
يَـنْدَى عَلَـى كَـبِدِي لُدُونَـةَ مَنْطِقٍ ... فَيَفِـي بِحُـرِّ تَرَائِـبٍ وَتَـرَاقِ
فَهُـنَاكَ أَرْوَعُ مِـلْءُ عَيْـنِ المُجْتَلِي ... يَقْظَـانُ مُوثِـقُ عُقْـدَةِ المِيـثَاقِ
هَزَجَـتْ بِـهِ هَـزَجَ الحَمَـامِ مَحَامِدٌ ... حَمَلَـتْ حُـلاَهُ مَحْمَـلَ الأَطْـوَاقِ
لَـدُنُ الحَوَاشِـي لَـوْ أَطَـلَّ غَمَامَةً ... لَخَـلاَ مِـنَ الإِرْعَـادِ وَالإِبْـرَاقِ

---

[1] ديـوان ابـن خفاجه: تحقيق الدكتور سيد غازي ، منشأة المعارف بالإسكندريه، ط٢، ١٩٧٩،ص ١٥٨-١٥٩.

شَــرُفَتْ بِــهِ فِقَــرُ الثَّــنَاءِ وَرُبَّمَــا تَتَشَــرَّفُ الأطْــوَاقُ بالأعْــنَاقِ

ويستمر مادحاً حتى:

لَــوْ كَــانَ أُرهِــفَ صَارِماً لَهَزَزْتَهُ فِــي مَــاء إفــرِنْدٍ لَــهُ رَقْــرَاقِ

وكان شاعرنا ابن أبي الخصال قد وصف قرطبة وأهلها، ورسم لنا صورة زاهــية لمعالمها وآثارها، في الموشحة التي ذكرت سالفاً عند الحديث عن تصوير معالم قرطبة.

ولقد خصص الجزء الأخير من المسمطة في الحديث عن قرطبة حيث برز فــي حديــثه هــذا شوقاً كبيراً لمدينة قرطبة، ولقد رسم مشاهد الفرح والبهجة في بعــض ليالــيها -ليلة القدر- لينتقل بنا إلى بركان آهاته لتنفجر معلنة السلام إلى قرطــبة بأكملها فسلامه على صحرائها وقصورها، وعلى أرضها وقبورها وعلى كل من فيها وكل من يغيب عنها.

وهل يستطيع أن يسير دون أن يقرئها السلام فهي المدينة التي رفعت راية العاشقين، وشفعت لكل مظلوم، وأغاثت كل خائف ملهوف، يقول[1]: (الطويل)

سَــلامٌ علــى صَــحْرائها وقُصورِها ســلامٌ علــى أوْطانهــا وقــبورِها

سَــلامٌ علــى غُــيّابِها وحُضــورِها ولا زَالَ سُــورُ اللهِ من دون سُورِها

فَحُسْنُ دِفَاعِ اللهِ أحْمى وأرْهَبُ

ففــي ظَهــرها المعشــوقِ كُلُّ مُرَفَّعِ وفــي بطــنها المَنْشُــوقِ كلُّ مُشَفَّعِ

مَــتى تَأتِــهِ شَــكْوى الظُّلامةِ تُرْفَعِ وكُــلّ بعــيدِ المُسْــتَغَاثِ مُدَفَّــعِ

من اللهِ في تلكَ المَواطن يَقْرُبُ

ومــن ثم يعود الشوق إلى شاعرنا ليتساءل هل يعود النازحون إلى بلادهم؟ أم قد كتب عليهم الفراق؟

---

[1] أبو عبد الله بن ابي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص٥٢١.

وإن كـــان قد ربط عودتهم إلى قرطبة بصورة الشباب بعد المشيب، قاطعاً بذلـــك الأمل بلقاء قرطبة في الحياة، إلا أنه يتمنى ويطلب رؤيتها بعد الموت، فهو يطلب من صاحبه أن يجعل قبره في قرطبة، يقول[1]: (الطويل)

ألا لَيْـتَ شِـعري هـل تَخُبُّ رِكابُ وهَـل يتَقاضـى النَّازحيـنَ إيـابُ
وهَـل لِلَّيالـي المُذْنِـباتِ مَـتابُ ألا إنَّـه بَعْـدَ المَشـيبِ شَـبابُ
وعُمْرٌ إلى رأدِ الغَرارة يُقْلَبُ

فـيا صـاحبي إن حانَ قَبْلَك مَصْرَعِي وكنتَ على عَهْدِ الرِّضى والهوى مَعِي
فخُـطَّ بضـاحِي ذلك التُّرْبِ مَضْجَعِي وذَرْنـي فجـارُ القَـوْمِ غَـيْرُ مُرَوَّعِ
فَعِنْدهمُ للجارِ أهْلٌ ومَرْحَبُ

رَعى اللهُ مَنْ يَرعْى العُهودَ على النّوى ويـبدو علـى القَوْلِ المُحبِّرِ ما نَوى
ولبَّـيْهِ مـن مُسـتحكمِ الـوُدِّ والهَوى يـرى كـلَّ وادٍ غَيْرَ واديهِ مُجْتَوى
وأهْدى سَبِيليهِ الّذي يُتَنكَّبُ

وأخيراً نأتي إلى شاعر يقال: إنَّه من أهل المائة الخامسة للهجرة وهو أيوب ابن سليمان السهيلي حيث يقول[2]:

أقرطـبة الغـرّاء هـل أوبـةٌ إلـيك مـن قـبل الحمـام المُصيب
ذكـرك قـد صـيَّرته ديدنـا وكـيف أنسـاك وفـيك الحبيـب

ولقـد أورد السهيلي هذين البيتين وحدهما ليعبرا عن مدى الشوق الحقيقي الذي يحياه متمنياً أن يلقى قرطبة، مستنجداً بطائر الشوق الذي سيحمله إلى قرطبة، الحمـام، والذي سيظل يذكره بها على الرغم من أنه لن ينساها وفيها حبيب مقرب إليه.

---

[1] ابو عبد الله بن ابي الغافقي الاندلسي: رسائل ابن ابي الخصال، ص ٥٢١-٥٢٢.

[2] يرى ابن سعيد (صاحب المغرب) أنه مات بسرقسطة في المئة السادسة. ويذهب صاحب النفح الى أنه من أهـل المئة السادسة، ويذكر ابن سعيد في النفحْ أيضاً في نهاية الترجمة أنه من أهل المئه الخامسة، أنظر ابـن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقق د. شوقي ضيف، دار المعارف، جزء١، ط٣، ص ٦٠..

الفصل الثالث

دراسة فنية في القصائد التي قيلت في قرطبة

المقدمات

التكرار

التوازي

الوزن والقافية

جماليات اللون

المفارقة التصويرية

مقدمات القصائد التي قيلت في قرطبة:

إن وجـــود الإنســـان يعنـــي بالدرجة الأولى أنّه مرتبط بالمكان، فبقدر إحساسه بذاتـــه يكـــون إحساســـه بأنه مرتبط بالمكان، ولهذا شكلت قرطبة بعداً ذاتياً عميقاً في نفـــوس أبـــنائها الشـــعراء، فجاءت أشعارهم محاكية للواقع النفسي الذي كانوا يحيونه آنذاك.

ولقـــد اهتم الشعراء قديماً بمدنهم، ووصفوها، ولكن وصْفَ الشعراء هذا لم يكن إلا تعبـــيراً عـــن أثـــر الدمار الذي حل بأرض المحبوبة أو بالأرض الحبيبة (الوطن)، فكانـــت البلاد أطلالاً تحاكى أحياناً من خلال الذكريات، ويخلق منها أحياناً أخرى مدناً شاهقة في خيال الحب واللاوعي اللذين يتولّدان نتيجة الإحساس بالبعد والغربة.

واحـــتوى الشعر الأندلسي على تلك المقدمات الطللية، ولكنّ لم تكن تحمل ذلك الـــبعد الغزلـــي الخالص على الأغلب، فلقد كانت لها أبعاد نفسية واجتماعية وسياسية وجمالية عمد إليها كل شاعر على حده لهذا عبّر كل شاعر عن حبه لقرطبة من خلال بثه لذلك الأثر النفسي الذي ولّدته تلك المدينة الباكية في نفسه.

ومـــن هنا استهل ابن زيدون موشحته "ليالي قرطبة"[1] "بمقدمة طللية" ذات خيط غزلـــي رفـــيع، فـــتذكره وحنينه إلى قرطبة، ولّد في نفسه حب الوطن والوقوف على أطلالـــه، واهـــباً إياه أجمل الصور وأبهاها حيث أضفى على خيراتها وخيرات أخرى، فزادها بهجة إلى بهجتها وخضرة يانعة إلى خضرتها جعلتها من أجمل المدن.

ومقدمـــة ابـــن زيـــدون هذه تختلف عن المقدمات الجاهلية، حيث جاءت لتبعث معاني الخير والفرح التي تتناسب طردياً مع حالة الأسى والشجون المتجذر في أعماق الشـــاعر، والتي حاول الشاعر فيما بعد أن يتخلص من قيدها، من خلال حديثه الجميل عـــن قرطـــبة ومدنها وقراها، ودلالتها الحضارية الدينية. ولكونه شاعراً حضرياً (ابن قرطـــبة) نراه يلجأ إلى ذكر المباني والآثار والمسجد الكبير في خياله، فهي ركن قوي

([1]) انظر ديوان ابن زيدون ورسائله: شرح وتحقيق علي عبد العظيم، ص ١٢٨.

مـــن أركـــان الحـــياة الحضـــرية التي يتفاخر بها أهل المدن[1] وهذا ما نراه في "أنّة الطريد"[2] أيضاً.

وبافـتخاره بهـذه المعـالم نراه قد استرجع علاقته النفسية بالمكان فهي مأواه وإليها ينتمي ولهذا تتجذر علاقته بالمكان ليتخذ المكان (قرطبة) عنده طابعاً مقدّساً.

وقد شكلت مدينة "الزهراء" قوة تحريضية في مقدمة قصيدة ابن زيدون (مجالي الزهراء)[3] حيث يتذكر الشاعر فيها حبيبته التي طال انتظارها (ولادة بنت المستكفي) ويـتذكر أيـام لهوهمـا عـندما كانـت "الزهراء" من أعرق الأماكن التي تتفاخر بها الأندلـس. ولهـذا فـإن نفـس الشاعر حزينة وهذا الحزن لا بُدّ أن يتناساه أذن لا بد للشـاعر أن يسترجع الماضي المشرق فالماضي ونقضيه مرتبطان بوشائح فقيه تكثفها الطبيعة في المشاركة والاستجابة.

وشـكل غياب الشاعر وغربته عن مدينته قرطبة هاجساً قوياً تجلّت ملامحه من خـلال حضـور الشاعر الذهني والنفسي في القصيدة، فلقد شكّل حضوره جلّ معاني القصـيدة، ففي "معاهد صبوات"[4] يبعث بالتحية والسلام إلى ميادين قرطبة (في بداية القصـيدة)، ويـتذكر أيامـه وأصحابه في تلك الميادين، وأخيراً يدعو لقرطبة بالسقيا؛ لأنهـا محله ومحل تصابيه، فهو الذي يسلم عليها ويتذكر أيامه بها لها بكل ما تستحقه معلـلاً سـبب ذلـك الدعاء. ولهذا كان حضوره الكلي في القصيدة تعويضاً عن ذلك الـنقص الـذي يحياه وهو بعيدٌ عن موطنه (قرطبة) فحُضوره في القصيدة جاء تعبيراً لإحساسـه المـتجدد بغربته وبُعده عن وطنه، فكأنه بذلك يحيا في قرطبة وبين أهلها، ففكره مائل بحضوره في القصيدة، والذي يعني حضور قرطبة في ذهنه على الدوام.

---

(1) غوسـتاف فـون غر نباوم: دراسات في الأدب العربي، ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٣٢.

(2) ديوان ابن زيدون، ص ١٥٨.

(3) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(4) المصدر نفسه: ص ١٥٢.

ففي القصيدة السالفة (معاهد صبوات) والتي مطلعها[1] :

علـــى الثغـــب الشـــهدي منـــي تحـــيةٌ زكـــت وعلـــى وادي العقـــيق ســـلام

إلـــى علاقة حميمة ومتينة تربط بين الشاعر وموطنه المنشأ قرطبة، ولهذا كان حديـــثه حياً، منتشياً، يتطلع إلى أمل بل إلى فرح قادم وهذا ما أراد الشاعر أن يوصله إليـــنا، علـــى الرغم من أننا نلحظ إحساس ذلك الإنسان الغريب الذي أغابته الدنيا عن أهلـــه حتى هزت الغربة جبروت قلبه فأدمته وسحائب دمعوعه فابكتهُ، منفساً عن ذلك الألم الذي عانى منه وهذا ما نراه في قصيدة ابن زيدون "زفرة الشريد"[2].

ولقـــد رثى ابن حزم الأندلسي قرطبة ونهب حظها في قصيدة جميلة مطلعها[3] (الطويل)

ســـلام علـــى دارٍ رحلـــنا وغـــودرت خـــلاءً مـــن الأهليـــن موحشـــةً قفـــرا

وهكـــذا حمّل شعراء القرن الخامس في مقدمات قصائدهم التي قيلت في قرطبة آهـــات التأسي والحزن اللاتي تثير الفزع والدهشة، لينطلق الشاعر بعد ذلك "مستسلماً" باعـــثاً بســـلامه وتحياته إلى تلك الديار الباقية، داعياً ربه بالسقيا ثم يبكيها ويتذكر أيام نشأته فيها، ولحظات اللهو التي كان يقضيها مع الكواعب الغيد آنذاك.

ولقـــد تمثلـــت قرطـــبة عند العديد من الشعراء بعروس حسناء، فقد عانقها ابن خفاجة وعانقته، يقول [4] :

امقـــامُ وصـــلٍ أم مقـــام فـــراق فالقضـــب بيـــن تصـــافحٍ وعـــناق

([1]) ديوان ابن زيدون، ص١٥٢.

([2]) المصدر نفسه:.ص ١٥٤.

([3]) أبـــو محمـــد علـــي بـــن احمد الظاهري ابن حزم الأندلسي: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ج١، ص ٣١٢.

([4]) ديوان ابن خفاجه تحقيق الدكتور سيد غازي، منشأة المعارف الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩، ص ١٥٨.

وأحبها ابن زيدون وأحبته (فهي صورة مطابقة لحبيبته ولادة)، وخطبها المعتمد، يقول[1]:

خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والاسل

وهي عجوز بخراء رسمت في صور ابن شهيد بصورة غانية، يقول[2]:

عجوز لعمر الصبا فانيه لها في الحشا صورة الغانية

وهي عذراء ابن السيد البطليوسي: التي تختال في ثياب مزركشة تزيدها جمالاً على جمالها،يقول[3]:

لله عذراء زفت منك رائحة تختال من حبرها المرقوم في حبر

فالمدينة كيان ثابت لا يتغير، ولكن البنية (الجمالية التركيبية) التي ترسم علاقة الشاعر بالمدينة هي التي تتغير، ولهذا يعبّر الشاعر عن حبّه وحنينه إلى قرطبة بأشكال متعددة، وترسمها ملامح نفسية (وفكرية) تتمخض في العلاقة بين الشاعر والمدينة.

فالمدينة هي المرآة التي تعكس مواقف الشعراء الفكرية، ولهذا شكلت الأزمة التي عاشها الشعراء في قرطبة أثراً واضحاً في أشعارهم، فهي نقطة تحول حدت بهم إلى تصوير حبهم العميق لقرطبة وهي تحاول دفع جماح البربر بصورة المرأة التي ترفض الوصال (حسب إرادة غيرها) ولهذا يضفي عليها صفات المرأة النموذجية

([1]) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،ج١-٢، ص ٦٧.

([2]) ديوان ابن شهيد: ص ١٦٨.

([3]) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الراعيان: ج١-٢، ص ٤٧٨.

المطلوبـــة[1]. أمّـــا الدافـــع وراء ربطهم قرطبة بصورة المرأة فهو الرغبة في بلورة ملامح الحب والإجلال التي يكنّها الشاعر لمدينته.

ويظهـــر هـــذا بوضوح عند ابن زيدون وابن شهيد، لا سيما وأنهما ابنا قرطبة اللـــذان عاشـــا حضـــارتها ورقيّها، وشاهدا دمارها وتشردها فلهذا (شخّصاها) حبيبة ومعشوقة طال انتظارها.

فابـــن قرطـــبة يعـــزف ألحان الحزن والتأسي على فراقها، وكذلك يعزف نغمة الفـــرح والســـرور للقـــياها أكثر من غيره، فالمعتمد-مثلاً- وهو ملك إشبيلية أراد أن يخطـــب قرطـــبة لتصبح ملك يده، فهل يدل هذا على علاقة وطيدة وشائجية بينه وبين قرطـــبة إنـــه لمـــن الواضح أنّ ملكاً كالمعتمد لم يبغِ من عرسه ذلك إلاّ مطمعاً دنيوياً يتمـــثل فـــي الاستيلاء على قرطبة، لما رأى فيها من حضارة ورقي. ولهذا لم نرَ في مقطوعـــته أيَّ حديـــث عـــن أماكن وقرى قرطبة فهو ملك لمدينة كبيرة (إشبيلية) ولا يطمـــح إلا بالرقي أكثر فأكثر، وعلى النقيض من هذا نرى أبا الخصال ذلك الشقوري (نســـبة إلى شقورة إحدى مدن الأندلس) ينظر إلى قرطبة بعين ريفي يتطلع إلى مدينة تشـــمل كـــل أركـــان الحياة الحضرية التي يبتغيها الشاعر؛ ولهذا يتفاخر بها وبجميع معالمها.

فقـــد كانـــت عواطـــف ابن زيدون وابن شهيد تجاه مدينتهما (قرطبة) عواطف صـــادقة، أُجّجَـــت من بحار الشوق الدفينة التي أرّقتها، وجعلتها يعيشا أسوأ اللحظات، ففي الغربة ذلّ وهوان، وفي الغياب لوعة وحرمان، ولكن على الرغم من عجزها، إلا أنها كانت عشيقة الزيدوني وغانية العامري.

ومن الشعراء ابن شرف القيرواني الذي رأى الذل والهوان، التشرد والضياع، قبل أن يعيشه أبناء قرطبة، فالقيروان تعرّضت لهجوم شنيع من قبائل بني هلال (بأمر

---

(1)خلـــيل الشـــيخ: باريس في الأدب العربي الحديث. دراسة نقدية في إشكالية العلاقة بين المركز والأطراف، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998، ص 191.

مـــن الفاطميـــن في مصر) ولهذا ارتحل شاعرنا إلى قرطبة ليقف أمام مدبر دولتها[1] مادحـــاً إياهـــا، مقارنا حال قرطبة عندما دبت الفتنة في أرجائها، وانتشار البربر فيها، بحـــال القـــيروان ســـابقاً، فحـــال الشـــاعر لا يزيد أسىً وحزناً على حال ابن السقاء ممدوحـــه، ولهـــذا نـــراه يقترب من قرطبة لتعانقه عناق رجلين حلّت بهما المصائب فيواســـي كل منهما الآخر، حتى يبكيا، مفجرين طاقة اليأس الدفينة، وطاقة الحلم لا بل الأمل المنشود بلقاء قرطبة التي كانت قديماً مركز الحضارة والتقدم، والسؤدد.

وقـــد رأى القيرواني في قرطبة كل معاني العظمة والجبروت التي طالما عبر عـــنها تاريخهـــا المجـــيد ولهذا يستمطر السماء بعهود سواكب تسقي أرض الأشجار والخيرات أرض البركة والنعمة قرطبة.

ومـــن هـــنا نـــرى ظهور مقدمة جديدة لقصائد الحب المتجذر لقرطبة يمكن أن نطلـــق عليها مقدمة السقيا، لأرض اخضرّت بماء الأرض واكتفت بها، وأن هذا لدليل شرعي يؤكد صلة الشاعر العميقة بوطنه الأم.

وقـــد وردت الســـقيا عند شعراء قرطبة بأشكال متعددة، فهي هنا عنصر مائي ســـكبته الغـــيوم، ووردت أيضاً بمزيج حار يخرج من مقلٍ أبت إلا أن تروي أرضها المقدســـة بدموعها الغزار. وهذا ما ذهب إليه القاضي الفقيه الحافظ أبو الفضل عياض ابـــن موســـى. في مقطوعته التي قالها عند ارتحاله عن قرطبة[2] وهو يدعو لها أيضاً فـــي وســـط المقطوعـــة بالسقيا العهود السواكب. أمّا الدافع وراء هذه السقيا فهو تلك الحالة الانفصامية التي أصابت الشعراء بسبب ابتعادهم عن مدينتهم قرطبة[3].

([1])مدبـــر الدولة الجيورية: هو أبو الحسن ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء، وللإطلاع على أخباره انظر، الشنتريني، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ٢٣٨-٢٤٤.

([2])ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤. ص ٦٨٩.

([3])حســـين خريوش: ظاهرة السقيا وأبعادها الدلالية في القصيدة العربية. مجلة جامعة البعث، عدد ٢، ١٩٩٢م، ص ٩.

ولقد تمثلت هذه المقدمة بشكليها في قصيدة قالها ابن درّاج القسطلي في المنصور منذر بن يحيى[1] حيث يأمر الربيع بجر سحائبه إلى قرطبة، ويأمر العيون أن تبكي قرطبة بدموع سواكب، وليمزج ذلك الغيث وتلك الدموع بطيب تحية، هذه هي بسقيا التي أرادها لمحبيه في قرطبة ولحبيبته قرطبة أيضاً، فالسقيا لديه من نوع خاص إنها مزيج من المطر والدموع والتحية الطيبة.

وفي مقدمة السقيا لدى ابن خفاجة[2]اختلطت دموع السحائب عنده بنوح الحمامة لتشكل بذلك أبعاداً ثلاثة:-

الخير والبركة لأرض قرطبة (الحياة).

الشوق والحنين إلى قرطبة.

البكاء والحزن على ما حل بقرطبة.

يقول الأستاذ الدكتور حسين خريوش:" والمعايير التي تستخدم فيها السقيا كثيرة فتارة تكون على هيئة تلفت إلى الماضي وتحسر عليه فتنطلق آهات حرّى وتنفسات صعدى، وتتم أحياناً عن طرائق الملاحظة والاجترار لما تتمتع به من خواصّ الراحة والطمأنينة التي يفتقدها الحاضر"[3].

وهذا ما لحظناه عند شعرائنا لا سيما (ابن زيدون وابن شهيد) حيث جاءت السقيا في أشعارهم لتحمل تلك المعاني عبر العلاقة الحنينية بين الشاعر وقرطبة.

([1])هو أبو الحكم منذر بن يحيى التجيبي كان قد ترقى إلى القيادة في الثغر الأعلى (سرقسطة) في آخر الدولة العامرية ثم اشترك في الفتنة القرطبية وايد سليمان بن الحكم المستعين في دولته الثانية سنة (٤٠٣هـ)، ووقعت أحداث كثيرة بينه وبين جيرانه من ملوك الطوائف على أنه ظل متسلطاً على (سرقسطة) حتى وفاته سنة ٤١٢ هـ/١٠٢٢م، وخلفه ابنه يحيى. وللإطلاع على أخباره، انظر الشنتريني، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٨٠ -١٩٠.

([2])ديوان ابن خفاجة: تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م، ص ١٥٨-١٦٠.

([3])حسين خريوش: ظاهرة السقيا وابعادها الدلالية في القصيدة العربية، مجلة جامعة البعث، ص ٢٠.

تعبيرٌ عن ذلك الصراع النفسي الذي ينتاب الشاعر في محاولته للتكيّف مع الوضع الحالي (غريب)، أمّا المضمون الحنيني فليس صراعاً وإنما هو محاولة لتقريب الخيال من الواقع الموضوعي[1]؛ ولهذا فإنّ المكان الذي ينجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسية فحسب، فهو مكان عاش فيه الشاعر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكلّ ما في الخيال من تميّز، إننّا ننجذب نحوه لأنه يكثّف الوجود في حدود تتسم بالحماية[2].

فقد شخص ابن زيدون من الوهم شخصاً دعاه إلى أن يتنشق عَرْفَ الصبا وكذلك شخص خليليه اللذين بيّنَ لهما مصيبته في قرطبة[3]، وهو يطلب من رسوله الذي يخلقه لنا أن يحيّي له قرطبة (في زفرة الشريد) وكذلك يبرز خليلاه في (أنة الطريد) ويشخّص الشاعر أهلاً له في: (لا أهل ولا وطن) ليناجي مشاعرهم عندما حل العيد عليه وهو بعيد عن وطنه وأهله.

---

(1) مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٩٦، الكويت، ١٩٩٥ ، ص ٥٣.

(2) مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٩٦، الكويت، ١٩٩٥، ص ٤٤، نقلا عن غاستون باشلار، جماليات المكان، ص ١٥٥.

(3) ديوان ابن زيدون : ص ١٥٥.

التكرار في الأشعار التي قيلت في قرطبة

التكرار اسم والمصدر تكرير من الفعل كررّ، فكررت الشيء أي أعدته مرارا، وهو عبارة عن تكرير كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتةٍ بلاغية ما كالتوكيد مثلاً[١]. ويعد التكرار من العناصر الإيقاعية التي اهتم بها البلاغيون[٢]. ويرى السيوطي أن في التكرار بلاغة تفوق التأكيد، ويعده من محاسن الفصاحة، ويورد له فوائد كثيرة منها: التقرير و التنظيم والتهويل والتأكيد، زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول[٣]. وللتكرار وظيفة نفسية، فهو يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على ذهن الشاعر،وهو بذلك أحد الأضواء اللا شعورية التي يسلطها الشعر على ذهن الشاعر، فيضيئها بحيث نطلع عليها، وهو بهذا جزء من الهندسة العاطفية للعبارة يحاول الشعر فيه أن ينظم كلماته بحيث يقيم أساسا عاطفيا من نوع ما[٤]. واللفظ المتكرر ينبغي أن يكون وثيق الصلة والارتباط بالمعنى العام الذي أراده الشاعر[٥] فتسليط الشاعر الضوء على عبارة معينة يكشف عن اهتمامه بها، ولهذا فإن للتكرار دلالة نفسية قيمة يمكن أن نتوصل من خلاله إلى الأثر الذي أراد أن يخلفه الشاعر، وكذلك نستطيع فهم نفسية الشاعر[٦]. ويقسم التكرار إلى[٧]:

- تكرار الحرف، وهو أكثر الأنواع شيوعاً في الأشعار التي قيلت في قرطبة.
- تكرار الكلمة، وهو في المرتبة الثانية .
- تكرار العبارة، وقد ورد في الأشعار التي قيلت في قرطبة بشكل قليل.

---

(١) أنظر:السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني(١٠٥٢-١١٢٠هـ) أنتوار الربيع هي أنواع البديع، ج تحقيق شاكر هدي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م،ص٣٤٥.

(٢) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة:١٩٨٤م،ص٢١٦.

(٣) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، صيدا،١٩٧٨،ج٣،ص١٩٩-٢٠٦.

(٤). نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط١،١٩٧٠،ص٢٦٦-٢٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٦٤

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٦٤-٢٧٣.

تكرار الحرف

تتكرر الحروف في الأشعار كثيراً، ولكن لابدّ لكل شاعر من أن يعشق في حديثه -بل أن حديثه يعشق- حروفاً معينة، يبرز تركيزه عليها من خلال حضورها بشكل واضح وفعال في النص، بحيث تحاكي هذه الحروف الصورة التي أرادها الشاعر، معبرة بذلك عن الأثر النفسي الذي زرع في نفسه، ولتتواءم أيضاً مع بعضها لتشكل ذلك الجرس الخفي الذي يضفي على النص إيقاعا جميلاً معبراً. تقول نازك الملائكة:"تكرار الحرف نوع دقيق، وجماله في شدة ارتباط الحرف بجمال الصورة بحيث لو حذف، لفقدت الصورة الفرعية الكثير من جمالها"(١).

وقد شكلت قصائد ابن زيدون وحدة متكاملة ،من خلال تكرار الحروف والأصوات المتتالية فيها، التي شكلت في نفس الشاعر ذلك التدفق العاطفي الذي تمثل في حنين غريب، يتشوق لموطنه، ويبكي عليه.

ففي أولى قصائده (ليالي قرطبة) يتكرر حرفا "الراء والهاء" بشكل واضح، ومن الحروف المكررة أيضاً حرف الميم، أما تكرار مثل هذه الحروف فكان نتيجة لسيطرتها على ذهن الشاعر واهتمامه الكبير بها، وهو يريد في قصيدته أن يرسل ترديداً يخلده الزمن، وكان له ذلك من خلال هتافٍ (صراخٍ) يصور حبّه لوطنه وعشيقته، ويوضح أثر الطبيعة الفاتنة في قلبه وأثر ذلك الهتاف الذي ولّد في نفسه مشاعر الأمن والطمأنينة، ملوحاً بحدث حزين سيحل به لا محالة.

وينتقل الشاعر إلى مواكب الذكريات، وهنا يتذكر (قرطبة) و(الرصافة) و(الجعفرية) و(العقيق) و(عين شهدة) و(الزهراء)، فتفتنه تلك المواطن (لا سيما أنه سجين) فيزداد لهيب هتافه ويرتفع ترديده. وهنا يتكرر لديه حرف الراء حيث سيطر على جل قوافي القصيدة وكلماتها ليشكل إيقاع القصيدة المتناغم الذي ينسجم وحال الشاعر إبان تلك الغربة التي تنغّص حياته، وتقطعه عن أهله وحياته السعيدة في وطنه

---

(١) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر،ص ٢٧٢-٢٧٣.

ولقـد عمـد الشـاعر إلى وضع قافية تنتهي بها كل فقرة بهمزة قطع (أ) لينسجم هذا الصوت المقطوع وحال الشاعر المأساوي.

ولقـد تكرر صوت النون ثلاث مرات في قوافي القصيدة وكذلك صوت الألف، أمّـا صـوت الباء فقد ورد في قافيتين من قوافي القصيدة، وقد جاء هذا التكرار لهذه الأصـوات في معرض ذكريات الشاعر التي يرافقها الحزن العميق والآهات المدفونة التي تختلج أحاسيس ذلك الإنسان الغريب.

هـذا كلـه وضع الشاعر في دوامة من الأرق والشوق عبر عنها من خلال – قصيدته (مجالى الزهراء) التي رسم فيه صورة شوقه وحنينه المحمّل بالآهات.

ومـن الحـروف التي تكررت في قصيدته هذه حرف (القاف) الذي شكل قافية القصـيدة فكانت نهايات أبيات القصيدة (قا) حيث أتبع حرف القاف بحرف مد (الألف) ليكون للشاعر من خلال هذا المد نفساً طويلاً يزفر من خلاله بمكبوت صدره.

وبعـد أن سـيطرت دوامـة الشوق تلك على أنفاس الشاعر نراه يخضع أمام جـبروت الحزن الدفين، فيذكر أجمل أماكن بلاده، وأحسن اللحظات التي عاشها هناك، لـيعزف تلـك الأحاسـيس علـى وتـر حساس يوحي له بغنة الحزن التي تستجدي البكاء.... ذلك البكاء الذي تقطر به كلمات قصيدته التالية، وهي ما وسمت بـ (معاهد صـبوات)، وفـي هـذه القصـيدة نلمح تكراراً لصوتين هما الميم والنون حيث تكرر صوت الميم خمسين مرة وتكرر صوت النون ثلاثين مرة.

وبعـد أن يبكي الشاعر متألماً حزيناً تتفجر زفراته ليشعر بأنه شريد، بعيد عن وطـنه فـي خـامس قصائده (زفرة الشريد)، حيث نلمح إصرار الشاعر على تكرار حرف الباء في القافية.

ويـتكرر حـرفا المـد: الواو والألف في قصيدته بشكل واضح، فبعد أن يداهم العـيدان نفسـه نراه يئن شوقاً إلى قرطبة (في سادس قصائده أنة الطريد) حيث أصبح الموقـف بيـن الشـاعر ونفسـه، فالطريد يريد أن يستر أمره، ولهذا جاء تعبيره عن أشـجانه وهـيجان ذكرياته بأنين تتبعه حرقة الآهات التي ولّدها ذلك الإحساس الظالم،

والشـــاعر هـــنا متّزن المشاعر راجح العقل يقيس الأشياء ويفكر بها قبل أن يعبر عن تأثره بها، ولهذا فإن ينابيع حنينه قد تفجّرت بقدر شوقه إلى قرطبة.

وفـــي هـــذه القصيدة الحزينة نلحظ تكرار صوت الحاء بشكل واضح، كما وأن حرفـــي: القاف والنون قد وردا وتكررا في كل أبيات القصيدة خلا ثلاثة منها، وتكرر أيضاً حرفا الألف واللام في كل أبيات القصيدة.

إنّ مثّل هذه الحروف المسيطرة على ذهن الشاعر ومسامعه جاء بها الشاعر – أو انهـــا جاءت– ليعبر من خلال تناسقها وتركيبها، ومن خلال تلك البنى اللغوية التي تصنعها عن مشاعره تجاه مدينته (قرطبة).

ثم ينتقل ابن زيدون إلى القصيدة التي ارتأى محقق ديوانه أن يكون عنوانها (لا أهـــل ولا وطـــن)،وهنا يرى الشاعر أن كلّ إنسان قد أنس إلى أهله (في العيد)، وسعد بوطنه، ولكنّه نظر إلى نفسه فوجدها بعيده عن الوطن، غائبه عن الأهل، فصوّر حاله بـــلا أهل ولا وطن، ولهذا أخذ يناجيهم بهذه القصيدة نادباً حظه من خلال ذلك الحزن الذي تَشعُه كلمات القصيدة.

وهـــنا يبرز صوت النون بشكل لافت للنظر منذ القراءة الأولى للقصيدة المكونة مـــن عشرة أبيات، حيث وردت فيها إحدى وثلاثين مرة، هذا بالإضافة إلى تلك النون الساكنه التي يبعثها التنوين بين تضاعيف القصيدة.

ابـــن أبي الخصال، وهو يريد أن يتغنى بقرطبة ويصف أحلى أماكنها وأيامها، فقـــد تمثلت في قصيدته كل ميادين قرطبة ومعالمها التي تدخل النشوة في القلوب لتحيا وكأنهـــا تعـــيش في إحدى جنان الأرض، ولعلّ وصفه لها كان نتيجة حالة من الفراق، جعلـــته يغترف من ينبوع شوقه الذي أخذ يفجّره منذ الوهلة الأولى في قصيدته، والذي رسم في نفوسنا صورة العيون الباكية التي فجرتها أحزان الشاعر وآهاته.

وقـــد تكـــررت في قصيدته الأصوات التالية: صوت العين(ع)، وصوت الهاء الـــذي سيطر على ست قوافٍ احتوت أربعاً وعشرين كلمة نهاياتها (هـــاء) في أعجاز الأبـــيات وصـــدورها في المسمطة، أمّا صوت الراء فقد تمثل من خلال خمس قوافٍ

(أي فـــي عشرين كلمة) في أعجاز الأبيات وصدورها في المسمطة بالإضافة إلى عدد كبير منه ورد في ثنايا القصيدة.

إن تكـــرار حروف المد واضحٌ في معظم القصائد التي قيلت في قرطبة، ولعلّ الوظـيفة الأولى التي أضفتها هذه الحروف هي حمل مشاعر اليأس والحزن والحرمان علـــى كاهلها لتعبر بها الآفاق مدويّة بذلك صوت الحزن الدافئ، وصوت الشوق الدائم لـــتلك المديـــنة، ولهـــذا نراها تتكرر بشكل واضح وجلي، لا سيما وأنّ معظم الأشعار قيلت في الحنين إلى قرطبة أو رثائها،وهي متوافقة ومنسجمة مع تلك المعاني.

ابـــن دراج القســـطلي، فقـــد استطاع أن يطرز بقصيدته أجمل ثوب يقدمه إلى قرطـــبة، فعمد إلى استخدام معظم الألفاظ التي تحمل معاني الرومانسية والجمال، حتى غـــدت قصيدته معجماً شعرياً حوى جلَّ عبارات الحب والعشق الذي تول في أحضان بيئة جميلة تشكل إحدى جنات الأرض.

ولقـــد شـــكل حـــرف الباء (بحركته المكسورة) ذلك الخيط الذي أخذ يغزل به الشـــاعر أشكال وتصاميم فستانه، فجاءت الخيوط بذلك مترابطة متماسكة بل إن توائم ألوانهـــا وتباين حسّها أدخلا عليه تلك الوحدة الموضوعية حتى غدت القصيدة الطويلة هذه على هذا النمط المتماسك الصلب.

فالقصيدة طويلة، ولهذا فإنَّ الشاعر يكرر في كل بيت، بل في كل شطر كلمات تشـــتمل على الحروف نفسها، ولهذا شكلت هذه الحروف المكررة ذلك الترابط الداخلي الـــذي يشد أزر القصيدة الذي يتواءم والترابط الخارجي الذي تضفيه القافية البائية لهذا كـــان لقصـــيدة شاعرنا أن تولد أساساً متيناً ارتكزت عليه العاطفة الشجونية، وقد شكل هذا الترابط تلك البنية الهندسية المتينة التي حرص الشاعر على بنائها.

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك قوله[1]: (الكامل)

عَهْـــداً كَعَهْـــدِك مـــن عِهـــادٍ طالما ... كَسَـــتِ الـــبُرودَ معـــاهِدي ومَلاَعِبي

وَتَقَطَّعَـــــتْ أســـــبابُهُنَّ لِطِـــــيَّةٍ ... وَصَـــلَتْ بِهِـــنَّ سباسِـــباً بسباسِـــبِ

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ص ١٣٨-١٣٩(بيت ٥، ١٥).

احـتوت قصـيدة شـاعرنا القسطلي على العديد من الأحرف المكرّرة، والتي تولـدت مـن خلال تكرار بعض الألفاظ داخل البيت الواحد (على الأغلب) أو الاثنين، وكذلك من خلال استخدامه لاسلوب الجناس.

ولقـد ورد بشـكل واضح تكرار حرف الواو حيث تكرر اثنتين وثلاثين مرة، مـرات فـي بدايـة الأبـيات، وثمانياً وعشرين مرة في بداية أعجازها، لينسجم ذلك الانبعاث الوجداني الذي يبث حرارة الشوق والحب لقرطبة، والتي يتحرك لها قلب كلّ قرطبـيّ، بل كلّ من رأى في قرطبة وفي "المنصور بن يحيى" معاني الكبر والرفعة. ولـو عمـد ابـن درّاج فـي هذه القصيدة إلى وصف قرطبة لكان أجمل ما أبدعته شـاعريته، فهـو يـتحدث عـن شـوقه لقرطبة كمقدمة جعلها تمهيداً لتلك التداعيات الشعورية التي يكنها خياله للمنصور بن يحيى، والذي يحكي قصته مع ملوك الطوائف حيـث كـان متسـلطا على(سرقسطه). وهو يبثه مشاعر الاحترام والتقدير ومشاعر الفخـر والتبجـيل ليجعل سناء ملكه في كل أرجاء المعمورة، وليجعله مثالاً يحتذى في المعارك، وأخيراً يدعوه بأن يسلم، فلطالما غلب الأعداء، وعمر الأرض.

ابن شُهيد

وهـو أحـق مـن يبكي قرطبة، لا سيما إذا هزّ أغصان قلبه النسيم، وأهاجت الكلمـات العابـرة حلمـه القديم، فعبّر عن ذلك بزفراته الشريدة وحنينه الباكي، الذي رددت أوتـار معزوفـته صـداه، فقد شكّل فقدان الوطن فاجعةً أليمةً ظلّت ترنُّ في مسامع الشاعر على الدوام لتنطلق أحاسيسه باكية نادبة ذلك الوطن.

ففـي قصـيدته (رثاء قرطبة) نلحظ تكرار واو العطف ثماني مرات، فتكرارها هـذا جـاء ليجمع الشاعر من خلاله كل ما يريد أن يرثيه من معالم قرطبة التي يرسم لها في خياله صورة علوية يجمع فيها (رياح قرطبة وأزهارها، والدار والقوم، وقصر بني أميّة، والزاهرية، والعامرية، والجامع ومسالك الأسواق،...).

أمّـا حـروف المـد وبخاصـة (الألف) فقد شكل الشاعر من خلالها منظومته الرثائـية ونواحـه الموسـيقيّ الحزيـن وهـذا واضح في الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة، يقول[1]: (الكامل)

حَـزَنى علـى سَـرَواتِها ورُواتِهـا وثِقاتِهـا وحُماتِهـا يَـتَكَرَّرُ
نَفْسِـي علـى آلائِهـا وصـفائِها وبَهائِهـا وسَـنائِها تَتَحَسَّـرُ
كَـبِدِي علـى عُلَمائِهـا حُلَمائِهـا أُدَبَائِهـا ظُـرَفائِها تَـتَفَطَّرُ

وفي مقطوعته التي وسمت بـ(حبه لقرطبة)، يتكرر حرف الهاء الساكن بشكل جلـي، والشـاعر يريد أن ينهي أحزانه ويسكنها بل ويقذف بها في لجج البحر ليشيع الأمـل فـي قلبه وليبذر حبات الحب في أحشائه، حتى تثمر في صدره غراماً يسيطر على عقله وقلبه فينجذب تجاهها ويحبّها لتتجدد أحزانه مرة أخرى.

الأسـتاذ أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي: ففي قصيدته[2] يتكرر حرف الـراء ثمانيا وثلاثين مرة، والراء حرف مجهور، والمجهور يعتمد على ذبذبة الأوتار الصـوتية. وهـذا يعني وجود انفعال داخلي عند الشاعر، ولقد جاءت القافية على هذا الصـوت. ولكـون الشـاعر يجيب شاعراً قرطبيا مدح نراه يعبر عن صفاء وده إلى قرطـبة مصورا إياها بفتاة عذراء. ولما يحدثه هذا الصوت(الراء) من رنة لدليل قاطع علـى أن الشاعر يعبر عن شيء داخلي أراد لأنفاسه أن تخرجه ليمثل أمام الجميع. أما حـروف المد فقد تكررت في القصيدة على النحو (أ)، إحدى وخمسين مرة، (و) ست عشـرة مـرة، (ي) سـبع عشـرة مرة. حيث يشكل هذا الصوت امتداداً لتلك الآهات المكبوتة التي يكنها الشاعر لقرطبة.

---

(١) ديوان ابن شهيد الاندلسي: تحقيق محمود علي مكي،ص١١١.

(٢) أبـو نصـر الفتح ابن محمد ابن عبد الله القيسي الأشبلي الشهير بابن خقان (٥٢٩هـ): قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خربوشض مكتبة المنارة، ط١، ١٩٨٩. ص٧١٩،٧١٨.

القاضي عيّاض[1]: فالموقف موقف رحيل ولهذا لا بد من شيوع نغمات الحزن والأسى، ونغمات الحرمان والفقد ، ولهذا استخدم شاعرنا حروف المد كثيراً (لا سيما الألف) ليعبر من خلالها عن مشاعره الممتدة وأحاسيسة العميقة، التي توحي بشعوره بالغربة، ذلك الشعور الذي يضاعف شعوره بالفقد،ولهذا كانت كلماته آهات غريب يدعو ربه بأن يرعى جيرانه وأن يسقي أرضه بالعهاد السواكب، أما حروفه التي تكررت من خلال حديثه هذا فهي(الباء) حيث تكررت تسع عشرة مرة، و(الدال) حيث تكررت تسع مرات.

ابن العطار[2]: ففي مقطوعة من سبعة أبيات وردت الباء ثلاثين مرة، عشر مرات منها وردت في البيت التالي: (الوافر)

بقُرطُبَةَ البَيَانُ تَعُبُّ عباً ولَيْسَ بمِصْرِنا مِنْهُ صُبَابَهْ

فالموقف رحيل إلى قرطبة. والشاعر في شوق شديد للعودة إليها، ولكنه يكتم ذلك الشوق ويدفنه في قلبه ولا يستطيع أن يجهر به، ومن الحروف التي تكررت لديه أيضاً حرف الهاء .

البطليوسي: [3] (الوزير أبو بكر عبد العزيز بن سعيد): له مقطوعة من أربعة عشر بيتاً، تكرر فيها حرف اللام سبعاً وستين مرة، وكذلك حرفا المد الواو والألف حيث تكررت الواو خمساً وأربعين مرة، والألف ثلاثاً وسبعين مرة.

ومن خلال هذا المد في القافية (لا) نرى ترنّماً جميلاً تطرب الأذن لسماعه، وقد جاء هذا المد ليناسب الامتداد الطويل للأسى والحنين اللذين أراد الشاعر أن يعبّر عنهما، فاجتماع اللام والألف أضفى على النص ذبذبة قوية، هذا بالإضافة إلى ما يجسدانه من حالة الرفض والعنفوانية التي لا بد وأن تنتج عن ضراء أصابت الشاعر،

---

(١) ابن خاقان:، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص٦٨٨-٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٨-٤٣٩.

فـأخذ يـتطلع بعدهـا لمـا يسّـره ويفرحه، ليجسد أمنيا ته للعيش في أكناف (حير الزجالـي) بين أصحابه، ويكرر المعتمد ملك إشبيلية في مقطوعة له في القلائد[1]. فلقد أراد أن يحكـم قرطبة عنوة رغم أنفها، وفي مقطوعته هذه يتكرر حرفا اللام والألف، حيث وردت اللام ثلاثاً وثلاثين مرة، والألف أربعاً وعشرين مرة.

ابـن حزم[2]: فبعد أن تصور حال قرطبة وما حلَّ بها من دمار أخذ يدقّ جرس العاطفـة والوجـدان معلناً أنَّ الثورة الوجدانية والإثارة العاطفية قد بلغتا القمة، مطلقاً لقافيـته العـنان لـتكون الألـف امتداداً لنفس دفين أراد الشاعر أن يطلقه للتعبيرعن حـزنه، نعـم لقـد بلغـت القمـة، حتى استدعت الشاعر أن يندب قرطبة، من خلال اسـتخدامه لحرف النداء الذي نادى به الدار والبساتين ليذكرها (ثلاث مرات)، ونادى الدهـر لعلّه يعود ذلك الزمن الجميل، فهو لا يريده أن يبعد، ونادى الدمع بأن لا يجمد، ونـادى السـقم بأن لا يبرأ .....الخ. ولقد تكرر حرف السين ثلاث مرات ففي أول أبـيات القصيدة تمثل (بالسلام) وفي منتصفها (نصبر)، وآخرها (أندب) فبهذه الكلمات الـثلاث يتشـكل محـور الحديث التراجيدي الذي أراده الشاعر، فهو يقرئ الدار التي أصـبحت مقفرة خاليه (السلام)، ويصور حاله وحال غيره إبان تلك الفترة، وأمام هذا المنظر الموحش ليعلن صبره عسى أن تتيسر الأمور بعد هذا العسر.

وأخـيراً تبكـي عينه الجامدة، وتقرع كبده الصلبة، وتهيج بلابله الكثيرة، لتعلن الندب على مدينة الحضارة والعلم والخيرات (قرطبة)، يقول[3]: (الطويل)

فواجْسـميَ المضنَى وواقَلْبيَ المُغْرى ووانَفْسـيَ الـثكلى وواكبدي الحَرَّى

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص ٦٧.

(٢) أبـو محمـد بن أحمد الظاهري ابن حزم الأندلسي:رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات: بيروت، ط١،١٩٨٠. الجزء الأول،ص ٣١٢-٣١٣.

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي:ص ٣١٣.

(الـــواو والـــياء) تكـــررت أيضاً بشكل واضح بالإضافة إلى الألف لتكون هذه الحـــروف حروف مد فعليّة لحالات الأسى والحرمان، لحالات الحزن والبكاء، ولتبكي نادبة على أطلال قرطبة الموحشة.

إن تكـــرار المقطـــع (ويا) في النص اثنتي عشرة مرة جاء ليحاكي ذلك الحزن الذي ولده تذكر الشاعر لأيام نشأته في قرطبة.

أبـــو الحسن المريني[1]: فقد اعتمد على تكرار حرف الميم لا سيما من خلال قافـــية الأبـــيات في موشحته التي قالها يذكر فيها الأماكن الخوالي لديه وهو السّد. أما قافـــية الأدوار فقـــد تناوبت بين الباء والدال المكسورة والجيم الساكنة والكاف الساكنة واللام الساكنة.

واعـــتمد الشـــاعر على تكرارية رائعة تمثلت في نهاية (الصدور) في المطالع وهـــو تكـــرار حرف الهاء اثنتي عشرة مرة. أما الأدوار فلقد انتهت قوافي أعجازها بـــنفس قوافـــي صدورها، ففي الدور الأول تكرر الباء ثلاث مرات في الصدر، وثلاثاً فـــي العجـــز، وفـــي الدور الثالث تكرر اللام ثلاثاً في الصدر وثلاثاً في العجز، وفي الدور الرابع تكررت الألف في صدور الأبيات في كلا الدورين.

السميســـر[2]: فلقد تكرر في مقطوعته التي تتكون من أربعة أبيات، حرف التاء بشـــكل واضـــح وجلي، ليضم كلمات القافية وهي: "أشتاتا، ماتا، هيهاتا، أمواتا" وهي كلمـــات جـــاءت لتعـــبر عن حالة الموات التي حلت بقرطبة، وحدت بشاعرنا أن يقف علـــى أطلالهـــ نادبـــاً. وشـــكل هذا الصوت وتراً حساساً عزف عليه السميسر ألحان الحزن على أطلال الزاهرة.

---

(١) الشـــيخ احمـــد بـــن المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٢) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص ٥٢٧.

صـــاعد اللغـــوي[1]: فهو يصف "المنية العامرية" حيث جعلها إحدى قطع الجنة بكل ما تحويه كلمات قصيدته من معاني الجمال والبهجة والرقة التي تحويها الجنة.

ولقـــد شـــكل حرف العطف (المد) الواو في بداية معظم أبيات مقطوعته نمطاً تكـــرارياً عبر من خلاله الشاعر عن مدى صدق دعواه في وصف العامرية ارتجالاً، دون سابق إعداد، كما فعل ابن العريف النحوي حينما دخل على ابن أبي عامر، وجاء أيضـــاً ليعـــبر عـــن ذلـــك التماسك البنيوي والفكري الذي أضفى على القصيدة صفة الـــتكامل والوحـــدة الموضـــوعية. ولقد تكرر حرف النون في قصيدته ليشمل مفردات الخصـــب والـــنماء التـــي عبرت عن "المنية العامرية "ببيئتها (طبيعتها) الفريدة –جنة الرضوان – القضبان – انسياب النهر – الأقحوان – الريحان.

ابـــن شـــرف[2]: تكرر حرفا الواو والياء (كحرف روي)، ويتحدث الشاعر في القصـــيدة عن ذلك الشوق والحنين الذي لا يبرح الا بالضم والعناق. فالشاعر فقد وطنه قرطـــبة، التي أصبحت كا لقيروان ولهذا يريد أن يعبر عن تلك الأنات، فإحساسه هذا دفعـــه إلـــى الإكثار من كلمات قاموسه الحزين، كما تكرر حرف النون في مقطوعته بشكل واضح والذي ينم عن اهتمام الشاعر به.

ابـــن خفاجـــه[3]: فهو يريد أن يعانق ابن أبي الخصال في قرطبة، ولعل تذكره لهذا الشخص يعني تذكره لأيّام لهوه وسعده معه في تلك المدينة العريقة "قرطبة"، التي رســـمت فـــي نفوس أبنائها لوحة باهرة تستنطق الماضي وتحاكي الأمل المنشود. ولذا جـــاءت أصـــوات الشـــاعر لتتواءم وتلك الثنائية التي جسدها في معظم أبيات قصيدته (الفـــراق –العـــناق)، (الشوق – الوصل)، لعل الشاعر يخلص من خلالها إلى تحطيم ديـــار الفرقة وبناء قصر الوصل، ولهذا جاءت أفكاره موائمة لتلك الحال بكل ما تحمله

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص ٥٨٣.

(٢) أبـــو عـــبد الله محمد بن شرف القيرواني: ابن شرف القيرواني، تحقيق حسن ذكرى حسن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ص ١٠-١٠٧.

(٣) ديوان ابن خفاجه تحقيق الدكتور سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط١٩٧٩،٢،ص ١٥٨-١٦٠.

مـــن معاني الشوق واللوعة. ولقد جاءت قافية الشاعر على حرف القاف المكسور، أما المـــد فهو الذي سبق القافية وتكرر كثيراً في كلمات الشاعر المتقلقلة حيث أوحى بجو الحزن الذي أوصل الشاعر إلى الحيرة في أمره، فعندما كان يشم رائحة النسيم ويسمع نـــوح الحمامة، ويرى دموع الغيوم، تهيج نيران شوقه لتوصله إلى حالة سفلى يحيا بها فـــي عـــالم الفراق والبعد، وإلى حالة عليا يرى فيها نفسه معانقاً مدينته وكل من يحبه فـــيها، فمـــنذ البيـــت الأول أبان الشاعر عن تلك الحالة من خلال المطابقة بين فراق وعناق.

تكرار الكلمة

وهـــو تكـــرار عبارة أو لفظة ما، لهدف يوحي الشاعر من خلاله (بشكل أولي) إلـــى سيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكره وشعوره،[١] قد قسمه ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـــ) إلـــى ثلاثـــة أقسام[٢]، وكان قد عقد له باباً كاملاًفي كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" سماه (باب التكرار).

١- تكرار اللفظ دون المعنى

٢- تكرار المعنى دون اللفظ

٣- تكرار اللفظ والمعنى جميعاً.

وللـــتكرار رنـــة موسيقية جميلة تتجاوب مع المعنى الذي يريده الشاعر[٣] وهذا مـــا سنلحظه من خلال التكرار اللفظي والاشتقاقي عند شعرائنا. وقد جاء التكرار هذا في أشعارنا على عدة أوجه نستطيع تقسيمه إلى المجالات التالية:

أ- تكرار كلمة ما في بداية الأبيات الشعرية.

---

(١) علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثه، دار الفصحى، القاهرة، ١٩٧٨،ص٦٠.

(٢) أبـــو علـــي الحسن بن رشيق القيروانى الأزدي(٣٩٠-٤٥٦هـــ): العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصـــله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت لبنان، ط٥، ١٩٨١،ج ٢،ص ٧٣-٧٤.

(٣) موسى ربابعة: قراءة النص الشعري الجاهلي، جامعة اليرموك، اربد،١٩٩٨م٢،ص ١٣٥.

ب- تكرار كلمة ما في نهاية الأبيات الشعرية والتي يتشكل فيها القافية.

ج- تكـرار كلمـة معينه في مقطع شعري بشكل متواتر لتحقيق غرض ما هدف إليه الشاعر ويمكن أن نطلق عليه (التكرار اللفظي).

د- تكرار اللفظة أكثر من مرة من خلال مشتقاتها (تكرار الاشتقاق).

هـ- تكـرار علـى أساس التقاطع بين العناصر المكررة وهو ما يسمى في البلاغة بالعكس والتبديل[١].

أمّـا تكـرار اللفظة في بداية الأبيات الشعرية هو قليل جداً ولا يكاد يذكر ومنه تكـرار كلمـة (سقى) مرتين في قصيدة ابن زيدون "ليالي قرطبة"[٢] دلالة على حبه لوطـنه وتكرار كلمة (لاح) دلالة على تذكره لها، وتكرر ورود (أن، هل، لم) مرتين فـي مواكـب الذكـريات[٣] وتكرار (لو) مرتين في "مجالي الزهراء"[٤] حيث يتمنى العـودة إلـى قرطبة. وتكرار (لم، يا) ثلاث مرات في (زفرة الشريد) [٥] وتكرار (يا) ثـلاث مـرات فـي (لا أهل ولا وطن) لينادي الدموع للبكاء والقلب للذوبان وليندب حظه أيضاً[٦].

وفـي قصيدة ابن شهيد "رثاء قرطبة"[٧] لم تتكرر ألفاظ البداية سوى (يا النداء) ثلاث مرات وكلمة (دار) مرتين وكلمة (أيام) ثلاث مرات.

وهـو من خلال تكرار حرف النداء ينادي مدينته التي شبهها بالجنة،تلك الجنة التـي أصبحت عفاءً وهباء منثوراً، ولهذا لا بد أن يكرر النداء ليندب طيب تلك الحياة

---

(١) التـبريزي: الوافي في العروض والقوافي، تحقيق الأستاذين عمر يحي وفخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق ط ٣، ١٣٩٩هـ،- ١٩٧٩م، ص ٢٧٨.

(٢) ديـوان ابـن زيـدون ورسائله: شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار النهضه، للطبع والنشر، مصر، القاهرة، ص١٢٨-١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) المصدر نفسه،ص ١٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٤-١٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٧) ديوان ابن شهيد: ص ١٠٩-١١١

التـــي عاشها مع قومه بين أحضان جنته قرطبة ،ومن خلال تكراره لكلمة "الدار"، نراه يصـــبغ علـــى قرطبة صفات الوداعة والسلامة ولم الشمل فهي كالبيت الواحد، ولهذا ارتـــبط لفظ الدار أولاً بحال أهل قرطبة حيث: "تبريروا" وتفرقوا في الأمصار، بعد أن ســـكنت الفتـــنة بيوتهم وعاثت فيها كثيراً. وارتبط اللفظ الآخر بصبغ تلك الدار بصبغة الكمـــال والجمال الرائق، ومن هنا يرى الشاعر الأمل الذي يبدد أحزانه، لا سيما وأنه يبكـــي أطلالاً سكنت قلبه منذ القدم. أما كلمته الثالثة المتمثلة بجمع التكسير (أيام)، فقد جـــاءت لتحاكـــي تلك الأيام التي عفى عليها الزمان (كسرها)، ولقد توالت هذه الكلمة (ثـــلاث مـــرات مـــتلاحقة) لتعبر عن ذلك التدفق الشعوري الحزين الذي يحياه جواني الشاعر، فتذكره لأيامه السعيدة جعله يشعر بأمور ثلاثة:

أ-كرامة العيش التي كان يحياها بين أهله.

ب-استقرار الأمر والحكم لأمير واحد يرعى شؤونها.

ج-التحاب والسلام والطمأنينة التي زرعت في قلوبهم آنذاك.

ابـــن أبـــي الخصـــال: فأكثر الكلمات تكراراً في بداية أبياته الشعرية هي (كم) الخـــبرية التـــي تفيد التكثير، فقد جاءت كم لتحمل معاني عديدة حملها الشاعر طويلاً، فكـــم هـــي أوجاع الشاعر والأمة التي يحياها ليلاً ونهاراً كلما رأى قرطبة أو تذكرها، وكـــم بكى كغيره على (الزهراء) وما حلّ بها، وكم دافع أهل الزهراء عن قصورها، وكـــم احتضنت تلك القصور القيان، وكم عزفت العصافير ألحان الصمود والسؤدد في أوكار تلك القصور، وكم فاحت رائحة البخور في رياض قرطبة، وكم سهر الناس في عرصاتها.

تكـــرر اسم الاستفهام (أين) مرتين في مسمطة ابن أبى الخصال ليسأل الشاعر من خلاله عن الشموس الطالعات في قصور الزهراء ليلاً، ولكن كيف سيكون لها ذلك وقـــد أصـــبح الدمـــار رمز حضارتها الخالية؟ وتكررت كلمة (السلام) مرتين لتشكل ترنـــيمة الحب الإلهي التي مجت بين الوطن وجبلة النفس الإنسانية التي تتعلق بالمكان،

مكـــان النشـــأة الأولى حتى لو كان ذلك بأوهي الأمور وأبسطها، وأخيراً كرر الشاعر أداة التشبيه "كأن" ليجعل قرطبة ورياضها أجمل بقاع الأرض في خيالة على الأقل.

وقـــد تكررت البدايات في أشعار ابن شرف وابن خفاجة، وأبي الحسن المريني وغـــيرهم ممـــا ورد ذكـــرهم في النفح ولكنها لا تتجاوز تكراراً لحروف مثل حروف العطف (الواو والفاء) أو الشرط (إذا) وغيرها مثل (في، لا، أو).

وقـــد جاء تكرار النهايات (الكلمات التي تحمل القافية) أيضا بشكل قليل، وورد ذلـــك عـــند ابن زيدون مرتين مرة في (ليالي قرطبة) في كلمة السوالف التي تكررت مرتيـــن[1] وأخرى في كلمة (حزن) في قصيدة (لا أهل ولا وطن) حيث وردت مرتين أيضـــاً[2] ولم نجد عند ابن شهيد أي تكرار للفظة وقعت في نهاية البيت الشعري على الإطلاق .

أمـــا ابـــن حـــزم فقـــد تكررت لديه كلمة واحدة وهي (القبرا) حيث وردت في قصيدته مرتين لتشي بحالة الهلاك التي حلت بقرطبة، وجعلت القبور مساكن لأهلها.

وابن خفاجة في قصيدته[3] يكرر كلمة واحدة في نهاية أبياته أربع مرات، وهي علـــى حالتين: (عناق، عناق)، (أعناق، الأعناق) لتحمل هذه الكلمة بين طيات حروفها معانـــي جمـــيلة، فلحظـــات العناق الدافئة لا وجود لها إلاّ بعد أن يحيا الشاعر فترات طويلـــة بيـــن الشوق والحنين، ويسكب الدموع على فراقه لميادين لهوه وأنسه وبعد أن تخـــرج آهاته محملة بمعاني الفراق الأليم ولهذا جاءت حروف الكلمة الأربعة لتحمل بين طياتها معاني الشوق والحنين، والدموع والآهات.

وتعـــدد تكـــرار النهايات عند ابن دراج ليصل إلى ثماني مرات، وهو عدد لا بـــأس بـــه قياســـاً مـــع الشعراء الآخرين، ويعود السبب في ذلك -على الأرجح- إلى غـــزارة المخـــزون المعجمي، وكثرة الصور الجمالية التي اهتم بها الشاعر من خلال

---

(١) ديوان ابن زيدون:ص ١٣٠

(٢) المصدر نفسه :ص١٦٢-١٦٣.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ص١٥٨.

مفـــردات اللغة الكثيرة التي حملها في جعبته، سواء أكان ذلك موهبة إلهية أودعها الله فـــي خياله أو موهبة مكتسبة استمدها الشاعر من معين قرطبة البيئي الذي لا ينضب، وتكـــررت كلمة (ساكب-سواكب) ليسكب الشاعر دموعه ويخرجها بطيب تحيته وغدق حيائه بعد أن يحملها على أنفاس الشوق لتشكل سقياه التي يقدمها لقرطبة وغيرها، عله بذلـــك يحصـــل على العناق الذي أراده من خلال سقياه. ويبكي الشاعر قرطبة مراراً وتكراراً حتى تحمرّ عيناه - كغيره من أبنائها - لتصبح عيونهم بالدماء سواكب.

ومن الألفاظ الأخرى التي تكررت:

(غارب-غارب)، (غوارب-غواربي)، (شارب-مشاربي)،

(ذاهب-مذاهبي) (جانب-جوانبي)، (كاعب-كواعبي)، (راكب-ركائبي)

تكرار الكلمة من خلال العكس والتبديل وهو أن يأتي الشاعر بلفظين في صدر البيـــت ثم يأتي بهما معكوسين في عجز البيت[1]. ولقد ورد هذا النوع بشكل قليل جداً فهو لم يتجاوز ست حالات، منها ثلاث حالات وردت في قصيدة ابن دَرّاج وهي:

(الكامل)

كذَبَـــتْهُ بارِقَـــةُ المُـــنى عـــن صادقٍ ... مـــن ظَـــنِّه وصَـــدَقْنَهُ عن كاذبِ[2]

وشَـــفَيْتُ سُـــمَّ عَقَـــاربٍ بأَســـاودٍ ... ودَفَعْـــتُ سُـــمَّ أَســـاودٍ بعقـــاربِ[3]

فاستَشْـــرَفَ الـــثَّقَلانِ أَخْطَـــبَ شاعرٍ ... وأَصَـــاختِ الدُّنـــيا لأَشْعَرِ خاطِبِ[4]

والرابعة عند ابن شرف القيرواني حيث يقول: (الكامل)

أيأْمَـــنُ أن تكـــونَ الـــنُّونَ راءً ... وقَـــدْ وَجَبَـــتْ لَـــهُ رَاءٌ ونـــونُ[5]

---

(١) بـدوي طبانة:معجم البلاغة العربية، دار المنارة، جدة،ط٤، ١٩٩٧، وانظر:جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينـــي الخطيب:التلخيص في علوم البلاغة،ضبط وشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢،١٩٣٢،ص٣٥٨-٣٥٩.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي: حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور محمود علي مكي، ط٢ ص ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه،ص١٤٠.

(٤) المصدر نفسه،ص ١٤١.

(٥) ديوان ابن شرف القيرواني:ص ١٠٧.

وأما الخامسة عند ابن خفاجة، يقول:

يُــزْهَى بــأعْلاَقِ المَعَالِــي حِلْــيَةً إنَّ المَعَالِــي أَنْفُــسُ الأَعــلاَقِ[1]

والأخيرة عند ابن شهيد، إذ يقول[2]: (المتقارب)

لقــد أَطْلَعُــوا عِــنْدَ بــابِ الــيَهُو دِشَمْسـاً أَبَــى الحُسْــنُ أَنْ تُكْسَــفَا

تَــراهُ الــيَهُودُ علــى بابِهَــا أَمــيراً فَتَحْسَــبُهُ يُوسُــفَا

ولــم يرد مثل هذا النوع في أشعار ابن زيدون التي قالها في قرطبة، إن مثل هــذا الــتكرار لا بد له أن يدق أجراساً موسيقية أخرى بالإضافة إلى موسيقى الوزن والقافــية فــي حقل الإيقاع الشعري، وليعبّر بشكل أو بآخر عن تلك الحال النفسية التي يحياها الشاعر.

بقــي مــن أنواع تكرار اللفظة (الكلمة) نوعان هما الأكثر شيوعا وتداولاً في الأشــعار التــي قيلــت فــي قرطبة. وهما التكرار اللفظي، والاشتقاقيّ، وظهر هذان النوعان بشكل وافر عند كبار شعرائنا وهم ابن زيدون، وابن شهيد، وابن دراج، وابن أبــي الخصال. ذلك لأنّ موفورهم الشعري في قرطبة يفوق غيرهم من الشعراء ولنبدأ أولاً بابن زيدون.

حيث تكررت في أشعاره الأفعال التالية لفظاً ومعنىً:

في موشحته ليالي قرطبة: (سقى – سقى)، (لاح – لاحت)

وفي موشحته مواكب الذكريات: (تنشق _تنشق)، (نِعْمَ – نِعْمَ)، (طَعَنْتَ–يَطْعَنُ)

في قصيدة لا أهل ولا وطن: (أشكو– تشكو)، (كنا – كانوا)، (عادكم – عاده) ،(شَفَها – شفني)

---

(١)ديوان ابن خفاجة: ص ١٦٠.

(٢) ديوان ابن شهيد: ص ١٢٧.

ومن الأسماء التي تكررت عنده لفظاً ومعنىً:

-(ليالـــي قرطـــبة): (الـــزمان - زمـــان)، (الراح - الراح)، (يوم- يوم - أيام)، (الخصر-خصر) (الليل - الليالي)

-(مواكب الذكريات): (الدمع-دمع)، (الصبا-الصبا)، (الجد-الجد)

(مجالـــي الزهـــراء): (العيـــن- العيـــن- اعينه)، (وم - ايام - الأيام)، (الحبيب - الأحباب) (نسيم - نسيم)

-(أنة الطريد):- (ليلى - ليلىَ)

ولكن لماذا مثل هذا التكرار؟

- لماذا سيطر التكرار الثنائي على معظم المفردات الزيدونية أفعالاً و أسماءً؟

- ومـــا سِـــرُّ تكرار الأسماء (العين واليوم) ثلاث مرات في "مجالي الزهراء" وثلاث مرات في "ليالي قرطبة".

- ما علاقة تلك الألفاظ المكررة بالصورة التي رسمها الشاعر في القصيدة.

إنّ مـــن يـــنعم النظر في أفعال ابن زيدون و أسمائه يلحظ بوضوح أنّها جاءت تحـــت ثنائـــية تكـــرارية عمـــد إليها الشاعر، ففي رفقتهما حب وتواد، ومن هنا تكون الســـكينة ويكون التلاقي، وبهذا التزاوج تلتئم لحظات الفراق وتتقلص المسافات ليقترب الشـــاعر مـــن وطنه بل ويحيا به تحت سقف الأمن والسعادة، ولعلّ لهذا التزاوج أثراً خفـــياً يـــتمظهر مـــن خلال المعنى الظاهري لحياة الشاعر والذي يتمخض في ثنائية الشـــوق والفـــراق، والتـــي ســـيطرت عليه في كلّ قصائده حتى تفجرت براكين ذلك الشـــوق والفـــراق فـــي قصـــيدة (مجالي الزهراء)، فالزهراء موطنه وموطن حبيبته، وتعـــددت أيامه وكثرت حتى بلغ الحدث الحنيني إلى أوجه، وهناك كان لا بُدَّ لعينه أن تـــتفجر بالـــبكاء، ومـــن هنا تكررت هاتان الكلمتان (العين، يوم) ثلاث مرات. ولعل لـــتكرار الكلمة الوحيدة في البداية وهي (لو) علاقة قوية بهذا الحدث فقد تمنى الشاعر على الدوام الوصال بحبيبته، ولكن لا مجيب له، ولذلك حصل معه ما حصل.

وإذا مـــا دخلـــنا فـــي صميم قصائد شاعرنا، وأبحرنا في نفسيته، فلا بد لنا أن نســـتخرج مكنوناتها التي حاول الشاعر أن يخفيها في ألفاظه التي كررها. (ففي ليالي) قرطـــبة يتكرر الفعلان الوحيدان وهما (لاح، سقى) وبهذين الفعلين تتجسد معاني الحب والـــولاء التي أرادها الشاعر لمدينة قرطبة، فمن خلال الفعل (سقى) نراه يسقي أطلال أحبـــته فـــي قرطـــبة لـــيجعلها أجمـــل بقاع الأرض مجسِّداً بذلك كل معاني الوطنية والانـــتماء، ليس هذا فحسب بل يكرّر سقياه ثانيةً لتكون هذه المرة خاصةً به في قصره الـــذي كـــان يلهـــو به مع حبيبته ولادة. أما (لاح) فقد عبّر من خلاله عن حالة الأرق والشـــوق التـــي يحياها، فهو يريد أن يرسل شوقه مع تلك النجوم التي تلوح له ليلان أثـــناء مســـيره تائهـــا بعـــيداً عن وطنه، بعد أن عاش زمناً هنيئاً لاحت أمامه ورود الرصـــافة وخـــدود قيانها. أما ما تكرر من أسماء في هذه القصيدة فهو ذو أثر نفسي عميق لا يقل قيمة عن ذينك الفعلين ، فلم يكرر الشاعر لفظة – الزمان – يوم – الليل – الـــراح – الخصـــر، عبثاً بل إنَّ هناك صلة عميقة تربط هذه الكلمات بالحدث الذي أراد أن يعـــبر عـــنه الشـــاعر والذي يتمثل في عنوان قصيدته (ليالي قرطبة) فهو في حالة تذكر ووصف لأيامه التي قضاها في قرطبة.

ولهـــذه الأيـــام مكانـــة كبيرة في نفس الشاعر، وحتى يؤكد ذلك نراه يهب تلك الأيـــام صـــفة البقاء والخلود – في ذاكرته – ولكي لا تُنسى تلك الأيام لا بد أن تبرز كمفـــردة عـــن مثـــيلاتها ولهذا تكررت ثلاث مرات. ولعل شاعراً كابن زيدون عاش أجمـــل أيـــام حـــياته يلهو مع حبيبته الأموية "ولادة" في بقاع خصَّت بالجمال والرونق والعذوبـــة وقضى فيها أكثر أيامه مع أصحابه يشربون كؤوس المدام التي لا تنضب، شـــاعر كهـــذا لا بُدَّ له بعد أن يجرد من كل هذا النعيم، ويحيا حياة غريب تائه حزين، أن يـــتذكر زمانـــه الجمـــيل (زمن الحب)، والراح (الخمرة)، وأيامه الحلوة (لحظات الســـعادة بيـــن ريـــاض قرطبة)، والخصر (لحظات المنادمة والعشق)، والليالي (ليالي الســـمر والفـــرح التي قضاها مع أصحابه وحبيبته وأهله)، ولذا تكررت هذه العبارات فقط.

* (مواكب الذكريات) (روح –ريحان)
(تطّيبك – طيباً)
(هنت – أهون)، (الدنية–أدنأ)، (أرتاح–الراح)

* (مجالي الزهراء): (العين – أعينه –عاينت)
(مشتاقا – الشوق)

* (زفرة الشريد): (صب– تصوبا)
(ضروبا – ضريبا –مضروبا)

* (أنة الطريد): (حملت – حملي)

* (لا أهل و لا وطن): (تذكرون – ذكركم)
(جفا – أجفانه)

وفي قصيدة ابن شهيد البكائية (رثاء قرطبة) نراه يكرر الأسماء التالية:

١– دار – دار – دار – ديار

٢– أيام – أيام –أيام

٣– أميرها – أمير.

والأفعال التالية:

١– جاد – جاد – جاد.

٢– كانت – كانت – كان.

فوطـــن الشـــاعر هو قرطبة ، فيها ولد ونشأ، ولذا فهي بيت له ولأهله، بل إنها دار كبـــيرة جمعـــت شـــمله وشـــمل أهله تحت سقف واحد. ولكن لم يكتب لهذه الدار الصـــمود والبقاء، فلقد دثرت معالمها، هدمت بيوتها وخلت مساكنها، وتفرق أهلها في شـــتى البقاع والأمصار، وفي أثناء هذا الحدث الجنوني وقف ابن قرطبة البار ليرى ما حـــل بأمـــه فيبكي ويبكي حتى تتفجر عيناه، ألم يفقد أمه؟ ألم يفقد حنانها؟ ألم يستشعر

(عجائبا-عجائبي)،(الليل-الليل-الليل-لليالي)، (الجميل-جميل)،
(ذاهب-الذاهب)،(دائب-دائب)

ولعـــل نظرة فاحصة دقيقة لهذا الكم التكراري توحي لنا بأي شكل من الأشكال غلبة التكرار الثنائي على غيرها في كلّ كلمات القصيدة التي تكررت لفظياً، فالقسطلي كغـــيره- مـــثل ابن زيدون وابن شهيد- ارتأى لألفاظه أن تنحو هذا المنحى التكراري ليجســـد بذلـــك حالته وحال تلك المدينة التي بنى قصورها في شعره - حتى ولو كانت خيالـــية، والتـــي تتمـــثل في الثنائية الضدية التالية: ثنائية الموت (الدمار) والحياة التي تتمـــثل في قرطبة، فبعد أن عاشت قروناً كثيرة في دعة وأمان جاء شبح الموت ليخيم علـــيها مفســـداً حياتها ليقف شاعرنا حائراً مذهولاً، ولتمتد به هذه الحيرة القاسية حتى يستســـلم لهـــا معلـــناً عجـــزه وضعفه، وهذا لا ينسيه موطنه. وقد أصبح هذا الموت المشـــكلة الأولـــى التي يعاني منها على الدوام والتي أرقت ضميره وعقله، وأقضّت مضـــجعه، وجاء حنينه لينقل تلك الحال إليه فهو ميت ما دام بعيداً عن وطنه فلا يرى الحـــياة إلاّ فـــيه، ولـــذا يـــأخذ الشاعر يبث بذور حنينه في صدور كلماته لتبلغ رسالة العشـــق الأبدي التي تتمثل في انتمائه إلى وطنه وحبه العميق له. إن هذه الحالة التي يحـــياها الشـــاعر بيـــن الموت الذي تسطره الغربة بكل ما وحي به من معاني الأرق والخـــوف والتلهف، وبين الحياة التي يراها في مدينته كلما لاح له برقها أو نسيمها من خـــلال النشوة التي تصنعها الذكريات، كان لها دور واضحٌ في تكرار الشاعر لكلماته، التـــي حـــاول من خلالها أن يطمس فكرة الموت والغربة فأرض قرطبة جدباء مقفرة، وكذلـــك هـــي حال الشاعر الذي هو جزء منها. ولسيطرة هذه الفكرة على خياله بشكل دائـــم حـــاول مـــنذ بدايـــة قصيدته أن يفجر ينابيع دمعه وأنفاسه العطشى، ويستمطر ســـحائب شـــوقه لـــيمزجها جميعا بطيب تحيته وغدق حيائه، ليشكل بذلك سقياه الذي يـــريدها أن تعانق أرض قرطبة - ليدحض ذلك الموت، ولتدب الحياة- وليكون الربيع ذلـــك الربـــيع الـــذي طال انتظاره ربيع الأرض الذي سيصنع ربيع الحياة ولهذا عمد الشـــاعر إلـــى إيراد لفظة الربيع أربع مرات ليحملها معاني الحياة التي عاشتها قرطبة

قـبل أن تحل بها الفتنة، وليجلب لها الربيع الآن بعد أن طال شوقه وعظم حنينه، ذلك الحنيـن الذي أرقه كثيراً، جعل ليله طويلاً، فحلّ ذلك الليل الذي ولّد في نفسه الأخطار تلـو الأخطـار، والمتاعب تلو المتاعب، حتى أصبح يحس بالفقد والحرمان ولهذا فهو كالميـت لا فـائدة فـي حـياته، ومن هنا جاء تكرار كلمة (الليل) بظلامها وسوادها لتسـيطر علـى الشـاعر وحياته الشاعر وهو بعيد عن قرطبة، فتكررت أربع مرات معـبَّرة عن تلك العلاقة المتمثلة في (الربيع، الليل)، أي(الحياة، الموت)، فالربيع رمز لحـياة الازدهار والاستقرار التي تحياها قرطبة، والليل رمز لذلك الظلم والهلاك الذي حـلَّ بقرطـبة نتيجة الفتنة،أما تكرار كلماته الأخرى (ضربة، قلب، سباسب، غرائب، هـدم، دم،غـد الأرض، عجائب، الجميل، اللقاء، مخالب، سم، عقارب، أيام، جوانب، غالـب) فلم يتعدَّ تكرارها تلك الازدواجية التي يوثق الشاعر من خلالها عرى العلاقة المشـيمية برحم أمه قرطبة، والتي يبني من خلالها دعائم الحياة الهانئة التي يحياها مع عشـيقته قرطـبة. وجاءت هذه الكلمات أيضا خادمه للمعنى الذي أراد أن يصوره في قصـيدته (وهو يمدح المنصور منذر بن يحيى) من خلال مقارنة حال قرطبة – سابقاً وحالهـا الآن – فمنها ما هو ربيعي حي، ومنها ما هو مظلم موحش، وإذا ما خزرت عيونـنا فـي القصـيدة مرة أخرى نجد تكراراً لفعلين جسّدا حال قرطبة التي رسمها الشاعر في قصيدته فلقد تكرر الفعل (قضيت) في قوله[1]: (الكامل)

ولقـد قَضَـيْتُ مـن الصَّـبابَةِ حَقَّها فَقَضَـتْ مـن الأمَـلِ البعيدِ مآربِي

ليدلل على حالة الصبّ والشوق التي ولّدتها قرطبة في نفس الشاعر، حتى غدا يحـن إلـيها على الدوام مستشعراً بذلك الألم البعيد الذي سيجمعه معها، وتكرر الفعل (رأى) لـيخدم غرضـاً آخر في القصيدة حيث يؤكد من خلاله الشاعر على قوة منذر ابن يحيى التي استوجبت على (ابن شنج) أن يبعد عن الظلال ويصاحبه ليعش بأمان.

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي: ص ١٣٩.

وقـد ورد الـتكرار الاشتقاقي عند شاعرنا بشكل وافر، وتمثل ذلك في الكلمات التالية:

(اسحب-سحائب)،(اجنح-جوانح)، (سرين-سرى)،(اجرر-مجر)،
(تربها - ترائبي)، (حلفين-حلف)، (أدمعي-دمع)، (ذللا-أذلّة)،
(عجائب-عجائبي)، (ساكب-سواكب)، (لواغبا-لواغب)،
(مقدم-قوادم)، (أحبتي-حبائبي)، (نأت-النوى-نوء-نأى)،
(مهرب-هارب)، (عهد-عهدك-عهاد-معاهدي)، (كذبته-كاذب)،
(تغربي-مغاربي)، (صدقنه-صادق)، (سرير- سرور)،
(نظمت-نظم)، (سمومهن-السم).

ولقـد لوحـظ فـي هذا التكرار أيضا تكرار لكلمتين أربع مرات لتوحي هاتان الكلمـتان بمعـنى الحـزن والألم الذي يحياه الشاعر بعيداً عن وطنه، ولتشكل صورة الذكـريات التي لم تفارق خيالة، حيث جاءت (ناءت - النوى - نوء- نأى) لتدلل على ذلـك الـبعد والفراق المرير الذي يحياه الشاعر. أمّا (عهدا-عهدك-عهاد-معاهدي)، فحملـت هذه المفردة سقيا الشاعر التي كونها ليسقطها في معاهده، وليزرع من خلالها بـذور الحب والجمال في موطنه، ويهدم بذلك أسوار النأي التي بناها البربر الوافدون على قرطبة من خلال فنتتهم.

وأخيراً نستطيع القول:

إنّ قرطبة أيام الفتنه وأعمال البربر:

(الظلام - موات) ⟵ الليل ⟵ نأى

قرطـبة قـبل الـبربر (علـى أرض الواقـع)، وبعدهـم (في خيال الشاعر):

(نور الحياة) ⟵ الربيع ⟵عهاد تسقي معاهده التي قضى فيها أجمل أيام عهده.

و الآن سـننتقل إلـى شـاعر فذ من شعراء قرطبة ألا وهو ابن أبي الخصال ولـنرحل معـه إلى ملعبته لنستخرج مكنوناتها التكرارية التي تفتح أمامنا أبواب عالم اللاشعور لدى شاعرنا .

ولنبدأ بتكراره اللفظي لعدد من الأسماء وهي

(قلب القلب-القلب-قلوب) ، (سلام-سلام-سلام)،

(لفظ الجلاله (الله) ٧ مرات) ، (الفجر-فجر-فجر)،(دهر-دهر-دهر)،

(برق-بروق)، (منهل-منهل) ، (المدافع-المدافع)، (طورا-طورا)،

(ناصحة-ناصح)، (العلم-العلم) ، (مصابيحه-المصابيح)،

(النور-نور)، (سور-سورها) ، (الهوى-الهوى)، (عهد-العهود)،

(جار-للجار)، (واد-واديه)، (دار-دار).

التكرار اللفظي لأفعاله:

- تبكي-تبكي
- قضوا-قضوا

وتكررت لديه أداتان: كم الخبرية و أين الاستفهامية.

وقبل أن نبدأ ونستشرف ما في تكرار شاعرنا من مدلولات لا بُدَّ أن نضع في حسباننا أننا أمام رجل متنسك متعبد، رجل أحب الدين والآخرة، ونظر إلى دنياه بعين فقيه زاهد، ولهذا كان حرياً به أن يعظم ويجل ليلة القدر ويصفها وصفاً دقيقاً بارعاً (نال حظاً لا بأس به في القصيدة)، ويبرز حسّه الديني الدقيق كذلك من خلال تأثره بآيات عدة من القرآن اقتبس بعض ألفاظها، بل إنَّ نهايات أبياته أخفت بين طياتها ذلك الإيقاع المتناغم الذي نحس به من خلال ترتيل بعض الآيات، وهذا ما جعل حالة الشاعر متزنة اجتماعياً، ولقد انعكس ذلك الاتزان على ألفاظه، وبرز ذلك من خلال تكراره اللفظي، فجاء فعلاه (تبكي - قضوا) ليرسما لنا حال أهل قرطبة بعد أن حلّ فيها الدمار، وقضى أهل قرطبة ما قضوا من أمرهم ثم ودعوا قرطبة. فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، ومنهم من ارتحل، وما بدّلوا تبديلا بتلك المدينة الزاهرة، ولهذا نظروا إلى مدينتهم بعيون باكية. وجاء تكرار ذينك الفعلين ليشكلا سمفونية الوداع الأخير لتلك الفاتنة التي أبى البرابرة المعتدين الا أن يدنسوا أرضها، ليلحنها الشاعر بكلمات موشحة ممزوجة بكل معاني الدفاع والصمود التي تمثلت

بشخصـــية فقيه متنسك يريد أن يدافع عن وطنه بكل ما يملك، فلقد جاد من بكائه كثيراً ولـــم يكـــن أمامه إلاّ أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى فهو ناصر المظلوم ورافع راية الحـــق والدين، ولهذا عمد شاعرنا إلى أن يدعو ربه ليلاً نهارا كي يحمي له قرطبة و يدفـــع عـــنها المعتديـــن يقول "فحسن دفاع الله أحمى وأرهب" ويرى رهبة قرطبة في دفـــاع الله عـــنها، وهذا ما حدا به إلى أن يكرر لفظ الجلالة (سبع مرات) في قصيدته، ولكن اتصال العبد المؤمن بربّه لا يكون إلاّ بعد أن يتعلق قلبه بالدين والمساجد ورجل كابـــن أبي الخصال جعل الفقه سنة حياته، وزهد الدنيا ومتاعها، لا يسعه في مثل هذا المقـــام العصـــيب إلاّ أن يتوجه إلى الله بقلبه الدافئ الحزين ليطلب الرحمة والنصرة، ولهـــذا يقضـــي الشـــاعر ليله بهذا الدعاء حتى يبزغ فجر يوم جديد، ليسير تحت نوره حـــتى يأمن عيشه وتطيب أيام حياته بقرطبة، ولهذا فإن الله يودع نور الفجر في قلوب أهـــل قرطـــبة سَـــراً، ولكنها أبت إلاّ أن تذيع سرَّها صارخة باكية تطلب السلام، ذلك السلام الذي أحلّه الشاعر بكل أرجاء معمورته ومن هنا تكررت هذه الألفاظ الخمسة.

ومـــن خلال تكرار الشاعر لكلمة (الدهر) أيضاً ثلاث مرات برز إيمانه بحتمية القضـــاء والقـــدر فهذا هو نصيب جنته، فلا بد لها أن تذوق طعم الفناء والدّمار، ومن هنا نستطيع أن نلخص تكراره بما يلي:

الإنســـان بطبعه يميل إلى السلام والسكينة- لهذا يتجه قلبه إلى ربه فيدعوه أن يغير ما صنعه بالدهر عسى أن يبزغ فجر جديد يعيد الحياة إلى قرطبة.

ومـــن هنا نلحظ تصاعد العاطفة حسب تصاعد التكرار، فإحساسه بفقدان الهناءة والســـلام يتكرر ثلاث مرات ليولّد في قلبه الدعاء إلى الخالق، فيكرر كلمة قلوب أربع مـــرات وهـــنا تتأجّج مشاعره وتصل ذروتها ليدعو الله في كل أيّامه، إن صح لنا أن نـــؤول العـــدد ســـبعة كدلالـــة على كل أيام الأسبوع، فيدعوا سبع مرات. بعدها تعود عاطفـــته لتخـــبو ولتنتظر ذلك الأمل الذي سيصنعه الدهر ثلاث مرات عسى أن يجيب الله دعـــوة الداعِ، لتعود عاطفته إلى ما بدأت به لما للفظي السلام والفجر من تعانق في المعنى وبهذا تتشكل الدائرة العاطفية التي شكلت وحدة القصيدة الموضوعية.

أما ما تبقى من أسماء فقد تكرر ذلك الاسم مرتين فقط. وهذه الظاهرة أصبحت نقطة تلاق سبت فيها أنهار شعرائنا الأربعة، لتشكل بحيرة الأمل التي يسكنون أحد جوانبها ولتجثوا مدينتهم على الجانب المقابل، وهنا لا بُدَّ لنيران لوعته أن تؤجج ولا بدّ لأمواج الشوق أن تهيج، عسى أن تلتقي معا، فتخمد أمواجها نيرانه ويسكن وإياها على شاطىء الأمان يغتقبان نور الحياة من شمس الأصيل لينشر الدفء في كل البقاع، ومن هنا كان التزاوج في تكرار مفردات شاعرنا كغيره ممن سلف الحديث عنهم، ولقد حرص شاعرنا أيضاً على جعل هذه الألفاظ المكررة خوادم ألفاظه الأكثر تكرارا والتي سطرت الحدث الدرامي الذي أراد أن يبثّه منذ بداية القصيدة، فهو يخبرنا أن دموعه قد أباحت بأسرار قلبه الحزين الباكي الذي يئن حنينا إلى قرطبة، ولهذا جاءت تزاوجاته التكرارية لتعمق ذلك التلاحم الحنيني الذي دأب عليه، وهذا ما نلحظه من تكرار بعض الألفاظ مثل (الهوى-المدامع-نور-برق-دار-مصابيح-السور-العهد-الوادي-الجار).

فنظرة فاحصة لهذه الكلمات توحي لنا بارتباطها بأي شكل من الأشكال مع الحدث الدرامي الحزين الذي أراده ليصبح الشاعر مخرجاً سينمائياً يشكل من خلال ألفاظه مسلسل الذكريات الذي حكى قصة ذكرياته في قرطبة، فهو رجل حزين هوى قرطبة وهوته، فكانت حبيبته، وداره، وبكى لفراقها بدموع غزار، وتذكرها كثيراً، فكلّما لاح له نورها بكاها بل إنّه يبكيها كلّما رأى البرق، وتذكر أيضا عهده السعيد الذي قضاه مع أصحابه في الأودية والرياض، وكإنسان مسلم لا بُدَّ أن يتذكر حال مسجد قرطبة في ليلة القدر حيث تزهر المدينة بأضواء المصابيح التي تنير كافة أنحائها.

وعليه يمكن القول: إنَّ شاعرنا لم يكرر ألفاظه هذه معنىً ولفظاً إلاّ ليقرأ لنا سطور ذكرياته في قرطبة من خلال مآذنها - ومن على أنقاضها -ولتوحي لنا بارتباط وثيق الصلة بالصورة الفنية وباللغة الشعرية التي أرادها في قصيدته -أو أرادتها القصيدة ذاتها.

أما تكرار الشاعر الاشتقاقي الذي احتوته لغته الشعرية فهو:

(يلفت-لافت)، (خضاره-اخضرا)، (أبيض-بياض)، (الدين-الدنيا)،

(مرام-رامه)، (موارد-وارد)، (أرجع-راجع).

وأخيراً جاءت كلمة دار لتتكرر أربع مرات (دار-دار-ديار-دارات) حاملة بين طياتها ملامح الذكرى لتلك المدينة التي ضمت الجميع تحت أجنحتها بحنان وأمان وهناءة.

وسننتقل الآن إلى شاعر أبكى بنثره لقرطبة الجماد. وهز بشعره عرش الفؤاد. فأنطق الحجر، وحرّك الفكر، فقد نادى ابن حزم بأعلى صوته الدهر، والدار بأن لا تبعدا لتكون الدار رمز الوطنية والانتماء، ولتكون المكان الذي يقف مكتوفاً أمام جبروت الدهر (الزمان)، فيعيث به ليجعله مكانا للوحوش واللصوص، بعد أن كان يحميه فرسان كالليوث، ليصبح الخراب عنوانها ولتأذن بفناء الدنيا، ذلك الإحساس الذي يعيد في النفس خَلْق الذكريات، فماذا سيتذكر في هذا الموقف العصيب؟ أيتذكر أيام نشأته؟ أم أيام صبابته ولهوه؟ أم أيام عيشه الرغد؟ أم هل سيصغي (كغيره) إلى صوت البوم الذي حل بتلك الدار زاقياً؟.

ولكن الأمر لا يحمله على التفكير، فتبكي عينه رغم جمودها وتقرع كبده رغم صلابتها وتنيج بلابل شوقه[1]. لتنقل بذور السلام إلى تلك الديار بعد أن تشدو ألحان الحزن والشجن نادبة تلك الديار. ومن هنا تكررت كلمات الشاعر على هذا النحو:

دهر - دهر - دهر - دهر - دهر

دار - دار - دار - دار - ؟!

وكأنه يريد أن يخاطب الدهر قائلاً: إنَّ الدار قد فنت فلم يعد لك أثر يذكر على تلك المدينة. فقد طالت الفرصة، ولا بد من اليسر لهذه البقاع، ولذا تكررت لفظتا (طال، اليسر) أما ياء النداء كأداة تكررت لفظيا لدى ابن حزم، فقد تكررت أربع عشرة مرة لتحمل دلالة البعد وكأن الشاعر أصبح ينادي شيئاً بعيداً عنه أو أنه أراد له

---

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي: الجزء الأول، ص ٣١٢.

البعد، ولذا كان منادى الشاعر (في الأغلب) يحمل معاني الألم والفناء اللذين أراد الشاعر لهما البعاد، ولهذا جاءت ياء النداء لترحلهما عن بلاده فالشاعر يريد أن يتخلص من الهم والشجو، والوجد، والبين، والعهد، والسقم، والدمع، ومن أثر الدهر، ومن معالم فناء الدار.

وقد تكرر لديه أحد الألفاظ من خلال التكرار الاشتقاقي حيث ورد في حالات وهي: (عادت-عدنا) حيث يريد الشاعر أن يعيد أيام السعادة التي كانت بقرطبة قبل أن يحل بها وبأهلها الدمار ليعود أهله إليها و(عائد) حيث يتمنى على الدهر أن يعود ليصنع فيه ما صنع سابقا قبل مجيء أصحاب الفتنة (البر بر)- (العود،عدت) حيث الرجوع إلى الوطن والذي يربطه بعودة قرطبة شامخة كما كانت سابقاً.

وابن خفاجة كغيره تكررت ألفاظ التزاوج في قصيدته لتتعانق كما تتعانق القضب، وقد تكررت الألفاظ التالية في قصيدته:

الأسماء: (خطاب-الخطاب)، (الأطواق-الأطواق)، (العلى-العلى)، (أعلاق-الأعلاق)، (حمامة-الحمامة-الحمام)، (غمامة-الغيم-غمامة)، (أعناق-أعناق-أعناق)، (عناق-عناق).

الأفعال:(هزجت-هزج)،(شرفت-تتشرف).

فلقد أهاجته أغصان القضب، فارتعش بدنه لهذا، وأفاضت عيناه بالبكاء، ليس هذا فحسب، بل إنّ نوح الحمام أصبح يشعل في قلبه نيران الشوق، فيندب وإياها وطنه، فترتفع آهاته حتى تعانق غيوم السماء، فتبكيها نادبة بذلك أم المدائن قرطبة، وناشرة دموع الخير في أرضها، وبهذا يكون قد قدم الشاعر شيئاً جميلاً لوطنه يشعره بقربه له وتمسكه به، ولذا عمد الشاعر إلى تكرار كلمة (غمامة) و(حمامة) ثلاث مرات كواحدة من أبرز وسائل الحنين الخفاجية (الأندلسية).

دأب الشاعر على أن تعانق أشواقه أرض وطنه، وأكد على ذلك من خلال تكراره لكلمة العناق في خمس حالات (عناق-عناق-أعانق-أعناق-أعناق) فأحزان الشاعر وشوقه تحملهما الحمامة نائحة إلى غيوم السماء، فتبكي الحمامة والغيوم

قرطـــبة، وتســـقط دموع الحزن عليها لترتوي، وهنا يكون العناق بين أحزان الشاعر ووطنه، وبهذا يبدد شوقه ويقضي على حيرته ليصبح مقامه مقام شوق ووصل لا مقام فراق.

أمّـــا ما تكرّر من ألفاظ فقد جاء ليوحي بالصورة التي أحبّ أن يرسمها الشاعر لحبيبـــته قرطـــبة، ففـــي خطابه لها وهو بعيد عنها تلاق ومحبة، وفي هذا اللقاء يقدم شـــاعرنا هديـــة لحبيبته، فيلبسها الأطواق الخضراء الجميلة (التي صنعها من دموعه) لـــيجعلها فـــي أعلى المراتب، ولتبلغ بقوتها أعلاق المعالي، ومن هنا جاء تكرار هذه المفـــردات (خطـــاب – الأطواق – العلى – المعالي – أعلاق) ووردت لدى الشاعر أربع كلمات جاء التكرار فيها اشتقاقياً وهي:

-(مشتاق- الأشواق – شوق) دلالة على شوقه الذي لا يبارحه.

-(موثق – الميثاق) ليوقع مع مدينته ميثاق الصدق والوفاء.

-(أضمم – ضم) ليعانقها مبدداً ذلك الفراق.

-(دمـــع – مدامعي) لتكون الدموع وسيلة الحنين التي يعبر من خلالها الشاعر عن شوقه.

وأورد لـــنا صاحب القلائد بعض المقطوعات الشعرية الجميلة لعدد من الشعراء جـــاءت قرطـــبة في أشعارهم تحكي لحظات الحبّ والوداعة التي كانت تحياها قبل أن يدنـــس البرابرة أرضها ولتعبّر عن الألم والوجد اللذين يحياهما أهلها فبكاها كل من قد غرب عنها وذاق لوعة فراقها.

ولنـــبدأ أولا بالفقـــيه الأســـتاذ أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي[1] فنراه يـــتحدث مجيـــبا ومخاطـــباً شاعراً قرطبياً مدحه وليرد الجميل إليه قام بمدح قرطبة بمـــناظرة أقامهـــا بيـــنها وبيـــن إحدى مدن الأندلس (بطليوس) لتفوز بها مدينة العلم والجمال والفكر(قرطبة). فشاعر كهذا خرج من تلك البيئة الريفية البسيطة ليرى أمامه مديـــنة الحضـــارة والرقـــي والتقدم، فلا مندوحة من أن يرسم لها صورة جميلة جليلة

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤، ص ٧١٨-٧١٩.

مشـــبها إياها بفتاة عذراء، كل من يراها يشعر وكأنه قد شرب الخمر، فيعيش الشاعر فـــيها مـــرتاحاً ومنتشـــياً بكل معاني الفرح والسرور، وهو لا يبغي من مدحه هذا أي جـــزاء، فقرطـــبة مدينة عظيمة في كل (الأذهان)، ولهذا تكررت في مقطوعته الألفاظ التالية تكراراً لفظياً:

(راح-راح)،(سكر-سكر)،(ذهني-ذهني)،(جزاء-جزائي).

أمـــا تكـــرار الاشتقاق فهو: (هزّت-هزّه) ،فلقد هزت بدائع قرطبة عطفيه من طرب لحسنها هزة المشغوف للذكر .

(بدرت-البدر) فهي صاحبة الخير السابق .

أمـــا الوزير أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي[1] فهو يتذكر في قصيدته لمّـــةً مـــن إخوانه وهذا الموقف جعله يخلق لنا رسولا يحمّله كل معاني الإنسانية من حـــب وأحاســـيس ليـــنقل لـــه شكره وحبه لكل أصحابه، وليعبر عن عظيم شوقه لهم فـــتكررت لفظة الرسول لديه مرتين ليكون حلقة الوصل بينه وبين أصحابه (الشاعر-الرسول-أصحابه).

أمّـــا تكرار الاشتقاق لديه فقد جاءت كلمتا (أخا-إخاء، مولى-مولي) ليعبّر من خلالهمـــا الشـــاعر عـــن شـــكره واحترامه للوزير أبي الحسين بن سراج الذي يسكن قرطبة.

أمّا المعتمد ففي مقطوعته التي يخاطب بها قرطبة[2] نراه يصور مشاهد عرس ملوكـــي زفـــت فـــيه قرطبة الحسناء إلى ملك (إشبيلية)، ولهذا تكررت لفظتا(العرس والملوك تكراراً لفظياً)، وتكررت لفظة (خطبت-يخطب) اشتقاقياً.

أمّـــا الشـــاعر أبـــو عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون[1] فيخبرنا بأنه يهوى إحـــدى حور العين في الجنة هذه الحورية آية في الحسن والجمال، لا بدّ لمن يرشف

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ١-٢، ص٤٣٨-٤٣٩.

(٢) المصدر نفسه: جزء ١-٢، ص ٦٧.

ثغـرها المسـتطرف أن يكـون حظه حظ أمير نال من الجاه والشهرة ما نال، ولهذا يتمسـك بحـبها، ولا يمنعه من ذلك صد الحاسدين، فقد أرادها وأرادته وأحبَّ دلالها، وعشـقا بعضـهما بعضـاً، ولا بُدّ أن يذيـع سرَّ ذلك الحبِّ العظيم، لينطق في نهاية موشحته باسمها إنّها قرطبة.

وليعـبّر الشـاعر عـن هذا المعنى لجأ إلى التكرار اللفظي المتمثل في الألفاظ التالية:

(حورية-الحور)، (صدها-صده)، (حظ -حظي)، (أرادت-أراد).

أمـا تكرار الاشتقاق فلقد جاء ليرسم صورة الجمال بشتى الأشكال من الجمال والحسن فهي:

(أحلى-حلوة) (حسنها-الحسان)

أمـا الأبـيض أبـو بكر محمد بن أحمد[٢] فقد تكرر في موشحته الألفاظ التالية اشتقاقياً وهي: (سقى-أسقني)، (طوقت-طوق)، (ملك-الملك).

فالشـاعر يسقي قرطبة كأس المدام هائماً بها باكياً، وهو يجود بدموعه الغزار علـى أرضـها لـيعمّها الخـير، وليعبّر عن توالي الحكومات والملوك عليها، يشبهها بحمامة ألبست طوقاً جميلاً هذا الطوق ألبسها إياه العديد من الملوك.

وفـي الـنفح: ينشـد أبو الحسين المريني معاصره وصاحبه (والد ابن سعيد) موشـحة يصـف فـيها لحظـات الجمـال وأماكن اللهو والفرح التي قضاها في أحد متنزهات قرطبة الرائعة ألاّ وهو السُّدُّ[٣].

ولكن دوام الحال، من المحال فلقد عاث الدهر فيها ودمرها ، فقد كتب الله لتلك البقاع ولتلك الأماني واللحظات أن تسطَّر في سجل الذكريات، ولذا أصبح الشاعر يملّ

---

(١) ديـوان الموشحات الأندلسية: تحقيق الدكتور سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩، ج١، ص ١٣٨ -١٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٩١-٣٩٣.

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٧٦-٤٧٧.

العتاب ولا يرغب في أن يسمع أحداً يعاتبه أو يلومه، فالأمر ليس بيده؛ إنّها إرادة الله التي تمثلت بجبروت الدهر الذي أراد لأماكن ذكراه الهلاك، ولهذا يبلغ سلامه لتلك البقاع (قصر الرصافة، ودار الخلافة)، التي تشهد على وقفات الحب والغرام الطويلة مع من يحب من الغيد الحسان، ولكن هيهات هيهات، لم يبق من ذلك شيئٌ، فهل يعيش سليماً من يفقد تلك الرياض وهذه الريم الحسناء؟ لابد أن يعيش بقية دهره سقيماً بعد أن عاش زمنا طويلا بالسلامة والسرور، ولقد حملت هذه المعاني ألفاظ الشاعر المكررة لفظياً فجاءت: (عتابي-عتاب)، (الدهر-الدهر)، (لله-لله).

والسميسر في مقطوعته[1] التي يقف من خلالها بالزهراء مستعبراً يندب أشتات قومه يجسد من خلال تكراره للألفاظ التالية لفظياً: (أبكى -أبكى) ، (هيهات-هيهات)، واشتقاقياً: (لامني- مليم)، (اسقمني-السقيم)، (وقف-وقفة)،(سلامتك-السليم).

ومن خلال الألفاظ التي تكررت اشتقاقياً (أندب-نوادب-يندبن)، (ارجعي-يرجع)، (أموات-مات) يجسد لحظة وقوف طلليّة يحاكي فيها الشاعر المكان والزمان فيبكي ويندب ذلك المكان وأهله ويصرخ بأعلى صوته منادياً الزهراء أن ترجع كما كانت، فهل سيستجيب الزمان لندائه، ويكون الجواب هيهات هيهات، فهل يحيا من حل به الدمار والعذاب.

ولننتقل الآن إلى الشاعر ابن شرف القيرواني حيث يمدح مدبر الدولة الجهورية بقرطبة (ابن السقاء) لتتكرر لديه الألفاظ التالية لفظاً ومعنى[2] وهي: (الرياح-رياح)، (وكناتها،الوكون)، وفي الرياح تلقح الغيوم فتبكي مسقية الأرض التي أصبح شبح الدمار أنيسها الوحيد، والتي حلّ بوكناتها أقوام كالعقبان يترصدون لالتقاط فريستهم مهما كانت، وبهذا يدلل الشاعر على البربر وفسادهم فيبدد شملهم ويسقط شآبيب رحمته وأمطار دموعه ليلتقي بقرطبة فيكون وِصَالهُ.

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ص ٥٢٧.

(٢) انظر: ديوان ابن شرف القيرواني، ص ١٠٦-١٠٧.

مـــن هـــنا نخلـــص إلى القول: إنَّ شعراءنا قد لجأوا إلى مثل هذين التكرارين (الاشـــتقاقي واللفظي) ليرسموا من خلالها صورة الوصل التي أرادوها بقرطبة بعد أن يقضـــوا علـــى شبح الغربة، وليستنفدوا الدموع الغزار، فيلهجون بأشواقهم، لترسم تلك المعانـــي والألفـــاظ التي-حقاً-سيطرت على سمعهم وأذهانهم وقلوبهم، وهذا يؤكد لنا قـــول الشـــاعرة الناقدة نازك الملائكة من وجود فكرة متسلطة على ذهن الشاعر يريد مـــن خلال التكرار أن يبثها للجميع، وهنا نراه يكرر لفظه واحدة تعبر عن ذلك المعنى الذي أراده حيث أخذ يصور مشاهد الوداع، مشاهد الرحيل عن قرطبة، ولهذا نرى أن المسافر لا بد أن يحمل في جعبته أجمل ما رآه في مدينته ليذكره ويحن إليه.

وعـــياض يـــتذكر جيرانه وحسن معاملتهم راسماً لنا صورة للحياة الاجتماعية التي كان يحياها في قرطبة حيث كانت علاقته بجيرانه علاقة أهل وأصدقاء وأقارب.

ويعـــد **الجـــناس** أحـــد أهـــم أنواع التكرار، حيث يتم من خلال إعادة اللفظ مع اخـــتلاف المعـــنى، ولهـــذا فهو أحد أهم أنواع التكرار على حد قول ابن رشيق يقول: "فالجناس تشابه الكلمتين في اللفظ"(١).

والجناس في اللغة: المشاكلة، والاتحاد في الجنس.

وفي الاصطلاح: أن يتشابه اللّفظان في النّطق ويختلفان في المعنى(٢).

والجناس اللفظي ينقسم إلى قسمين:

أ. **الجـــناس التام**: وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء: نوع الحروف وعددهـــا، وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها مع اختلاف المعنى، فـــإذا كـــان اللفظـــان المتجانســـان مـــن نوع واحد كاسمين أو فعلين سمي الجناس (مماثلاً).

---

(١) صـــدر الديـــن علي بن احمد المدني: أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق شاكر هادي شكر مطبعة النعمان، النجف، ١٩٨٦-١٩٦٩، ج١، ص ٩٧.

(٢) عـــبد الرحمن حسن حبكة الميداني: البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦-١٩٩٦، الجزء الثاني، ص ٤٨٥.

ب. **الجـناس غـير الـتام:** وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأربعة السابقة ويجب أن لا يكون الاختلاف في العدد بأكثر من حرف[1].

وقد ورد الجناس عند ابن زيدون في الألفاظ التالية:

زَهر:أصفر اللون — الزَّهر: الزهور (جناس غير تام)

الصبا: الصغر — الصـبا: ريـح الشمال (جناس محرَّف "غير تام") ريحان: نبات (جناس غير تام)

روح: الراحة

أسلو: اسلي نفسي — الأسـى: الحزن (جناس الاشتقاق، غير تام)

هنت: ذللت — أهـون: أسـهل (جناس الاشتقاق، غير تام)

ارتاح: الراحه — الـراح: الخمرة (جناس الاشتقاق، غير تام)

راقا: السكينة — أرق: السهر (جناس الاشتقاق، غير تام)

ضروباً: مضروبا (جناس غير تام زيادة حرف)

مضروباً: ضريبا (جناس غير تام ،اختلاف المعنى والترتيب)

وعند ابن شُهيد في الألفاظ:

تدار: تعمل، تفكر — دارت: تلف (جناس الاشتقاق، غير تام)

عنيت : عانية (جناس غير تام)

يقدم: يأتي، يتقدم — القـوادم: ريش (جناس الاشتقاق، غير تام)

السلامة: الشفاء — السلام: السلام (جناس غير تام)

رياح: روائح — (جناس غير تام)

الخيل – فرس — خيلوا: تخيلوا (جناس غير تام)

تجد: تلقى وتشاهد — تجـد: من الجد والمثابرة (جناس غير تام)

دمن: قيان — إدمان: الإدمان (جناس غير تام)

وهو عند ابن دراج القسطلي في:

لازم – لازب: جناس غير تام — (الجناس المضارع)

---

(١) بـدوي طـبانة: معجم البلاغة العربية، المجلد الأول، منشورات جامعة طرابلس، ط١، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، ص ١٥٥.

عهد – عهاد – معاهد: (جناس غير تام، ناقص)

ذللا – أذله جناس غير تام

تغربي – مغاربي جناس غير تام

مشرق – شرق جناس غير تام (ناقص)

وعند ابن أبي الخصال يتمثل في الكلمات التالية:

(يلفت – لافت) : جناس غير تام

(رام – مرام) : جناس غير تام (ناقص)

(موارد – وارد): ناس غير تام (ناقص)

وعند ابن خفاجه:

(عناق – أعناق) : جناس غير تام

(موثق – الميثاق): جناس غير تام

وقد ورد عند ابن شرف في :

(اشتملت – شمل)، (سوق – سّوق): جناس غير تام

وتكـــرر عـــدد من الألفاظ لدى الشاعر على نمط (الاستبدال) حيث قام الشاعر بالتلاعـــب بألفـــاظ اللغة من خلال إبدال حرف واحد في الكلمة لينقل بذلك الكلمة إلى معنى آخر أضفى على النص جمالاً فنياً وإيقاعياً، وللاستبدال وظيفة أساسية في تنامي حركـــية النظام الصوتي من خلال استبدال حرف (صوت) بآخر غيره[1] وقد برز هذا الجنس التكراري عند شعرائنا كالتالي:

الاستبدال عند ابن زيدون:

في قصيدته (ليالي قرطبة) وردت الألفاظ التالية:

---

(١) مصـــطفى الســـعدني: البنـــيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٨٧، ص ٢٢-٢٥.

(تمائم – غمائم – حمائم) (النهر – الزهر) (سلام – غلام – ملام) .

وفي قصيدة (مواكب الذكريات) وردت الألفاظ التالية:

(الصبّا– الصبّا) (دمع– لمع)، (مطمع – مسمع)، (النهر – النسر) (خمائل – شمائل).

(السجن – الدجن)، (دلالها– خلالها)، (ملالها – ظلالها)

أما في قصيدة (مجالي الزهراء):

(أخلاقاً – أعلاقا – أطلاقاً)

وفي قصيدة (معاهد صبوات):

(غمام–حمام– ذمام)، (ضرام–كرام)

وفي (زفرة الشريد):

(ضروباً–ضربيا)،(غريبا–قريبا–ضريبا–مريبا)،(قريبا–قضيبا)،

(الربيبا–الغربيبا)

وفي (أنّة الطريد):

(نصـــحا–فصـــحا)،(برحا–صرحا)،(سبحا،سمحا)،(السفحا–السطحا)،(اضحى–يضحى)،(صبحا–ضبحا).

وفي (لا أهل ولا وطن):

(أشكو – تشكو)

أما ابن دّراج فلقد ورد الاستبدال في قصيدته في الكلمات التالية:

(سواكب–كواكب)،(أقارب–عقارب–مقارب)،

(ذائب–غائب–شائب–دائب–تائب خائب–صائب)،

(طالب، غالب)،(مناقب–معاقب–مراقب)،(مشارب–محارب)،

(شارب–غارب–سارب–هارب–غارب)،(ركائب–رغائب).

أما الاستبدال عند ابن ابي الخصال[1] فقد ورد في الكلمات التالية:

(مدامع-مسامع)، (تأرجا-تدرجا)،(ينعب-يشعب)،(قعودا-صعودا)،

(سميعا -جميعا)،(تتدب-تتسب)،(تعتري-تنتزي)،

(مبنى-معنى)،(المزاهرا-المزامرا-المجامرا)،(تنافرا-تناظرا)،

(مقت-وقت)،(شفا-عفا-خفا)،(يدفع-يرفع)،(مرتقى-ملتقى-منتقى)،

(بناءه-ثناءه)،(بهاءه-بناءه)،(تقطف-تخطف)،(قصورها-قبورها)،

(مرفّع-مشفّع-مدفّع)،(الهوى-النوى)،(ليلا-ميلا-ذيلا خيلا)،

(تظافرا-تنافرا)،(مضوا-قضوا)

أما الاستبدال عند ابن شُهيد:

ففي قصيدته (رثاء قرطبة) [2] ورد الاستبدال في اللفظتين:

(ينظر-تنظر)،(علمائها-حلمائها)

وفي قصيدته (مديح عبد الوزير المؤتمن) [3]:

(بانها-ضانها)،(بنى-ونى)،(دجى-الحجا).

وفي قصيدته (حبه لقرطبة) [4]:

(غانيه - زانيه - عانيه - دانيه).

وفي قصيدة ابن حزم[5]:

(قبرا-قفرا-قهرا-قطرا)،(دهرا-نهرا-زهرا)،(الكرّى-الحرّى)،

(الغبرا-العبرى-القبرا-تبرا)،(أبرا-أفرا)،(أسرى-يسرا)،

(غيد- صيد)،(دار-دهر)

---

(١) رسائل بن ابي الخصال: ص ٥١٢-٥٢٢.

(٢) ديوان ابن شهيد: ص ١٠٩-١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٥-١٦٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨.

(٥) رسائل ابن ابي حزم: ص ٣١٢-٣١٣.

وفي قصيدة ابن شرف[1]:

(سكون-تكون-وكون)

(الازاريق-المزاريق) [2]

وفي قصيدة ابن خفاجة[3]:

(إغلاقي-أخلاقي)،(نفحة-لفحة)،(راق-ساق-باق)،(الحمام-الغمام)،

(تلاق-تراق)،(متولّد-متوقّد)،(مجتنى-مجتلى)،(دفاق-خفاق)،

(الإبراق-الإيراق)

وفي قصيدة الشاعر أبي بكر محمد بن عمّار[4]:

(أشم-أحم) (أشم-مشم)

وفي قصيدة أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي[5]:

(سكر-فكر) (أساء-مساء)

وفي قصيدة أبي بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي[6]

(خليلا - جليلا- عليلا)

وفي قصيدة أبي بكر محمد بن أحمد الأبيض[7]

(زيد - قيد)، (جسام - حسام)، (الغمام - الذمام - الحمام)

وفي قصيدة الشاعر أبي عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون[8]:

(الدلال- الزلال) ، (تجلّه- تحلّه- تملّه- تدلّه)

---

(١) ديوان ابن شرف القيرواني: ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥-٧٦.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ص ١٥٨-١٦٠.

(٤) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ١-٢، ص ٢٥٥،٢٥٦.

(٥) المصدر نفسه، جزء ١-٢، ص ٦٦جزء ٣-٤، ص ٧١٨-٧١٩.

(٦) المصدر نفسه، جزء ١-٢، ص ٤٣٨.

(٧) ديوان الموشحات الأندلسية، ج١، ص ٣٩١-٣٩٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٤٠.

وفي موشحه أبي الحسن المريني[1]:

(النديم – النسيم)،(حليم – كليم)،(رقيم – سقيم)، (النديم – القديم)،

(الكريم – العزيم)،(ملوك – سلوك)،(الأمن – الأمل).

شكلت كلمات الشاعر المكررة –كما سبق ذكره– البنية الدلالية التي حاول الشاعر أن يتمثّل فيها المعنى الايحائي الذي أراد أن يصوره.

ولذا جاء التكرار بأنواعه ليخدم ذلك الإيقاع الفجائعي الذي أراده الشاعر من خلال تصويره للفاجعة، وليكون علامة دالة على تلك الحالة الجنائزية التي تحياها قرطبة ومعالمها عند رؤيته لها وعن تلك الحال المتشردة الباكية شوقاً وحنيناً لتلك البلاد.

التصريع

يقول ابن الأثير: "فأما إذا كثر التصريع في القصيدة فلست أراه مختاراً إلاّ أن هذه الأصناف من التصريع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها في الكلام ما قلّ وجرى مجرى الغرة من الوجه، أو كان كالطراز من الثوب"[2] ولهذا وجدنا هذا التصريع قليلا عند شعرائنا الذي يتحدثون عن قرطبة، ويعمدون إلى تمثّل أفضل أشكاله فاحتلّت قصائدهم أفضل مراتب التصريع (وهي المرتبة الثانية لدى ابن الأثير)، وأعلى هذه المراتب أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه في فهم معناه غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه ويسمّى التصريع الكامل[3]، ومثل هذا التصريع لم نلحظه في قصائدنا التي قيلت في قرطبة.

أمّا المرتبة الثانية في التصريع عند ابن الأثير فهي أن يستقل كل شطر بمعناه وحده، ولكن الثاني يرتبط بعلاقة ما بالأول، وهذه المرتبة هي الماثلة في معظم

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٢) ضياء الدين ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلّق عليه بدوي طبانة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣، قسم١ ، ص ٢٥٩.

(٣)المصدر نفسه.

مـــن خلالهـــا الشاعر ليشكل حدثه الحنيني الذي أراده، وبهذا استطاع الشاعر أن يربط ذكرياته بتلك المناطق الفسيحة الجميلة من خلال التصريع.

وإن كـــان في التصريع توحيد للمعنى ولم لشمل البيت، فإن الشاعر يرى نفسه مـــن خلالـــه قريـــباً، ولهذا يلتئم شعبه بشعاب وطنه، ويقول مصرعاً أيضاً في مطلع قصيدته (أنة الطريد) [١]: (الطويل)

خَلِيلَـــيَّ لاَ فِطْـــرٌ يَسُـــرُّ وَلاَ أَضحى فَمَـــا حَالُ مَنْ أَمْسى مَشوقاً كَمَا أَضحى؟

وأخيراً نجده يصرّع في قصيدته (لا أهل ولا وطن) [٢]: (البسيط)

هَـــلْ تَذْكُـــرُونَ غَرِيـــباً عَـــادَهُ شَجَنُ مِـــنْ ذِكْرِكُمْ – وَجَفَا أَجفانَهُ الوَسَنُ ؟

ويســـير ابـــن شـــهيد في قصيدة (رثاء قرطبة) على نفس المنوال، وكذلك في قصـــيدته (مديح عبد العزيز المؤتمن) و(حبه لقرطبة) فنراه يقول في مطلع أولاهما[٣]: (الكامل)

مـــا فـــي الطُّلُـــولِ مِن الأَحِبَّةِ مُخْبِرُ فَمَـــن الَّـــذِى عـــن حالِها نَسْتَخْبِرُ ؟

وفي مطلع ثانيتهما[٤]: (الكامل)

هاتِـــيكَ دارُهُـــمُ فقِـــفْ بمَغَانِهـــا تَجِـــدِ الدُّمُـــوعَ تَجِـــدُّ فـــي هَمَلانِهَا

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٣) ديوان ابن شهيد: ص ١٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

فقـد خـدم التصريع الشاعر، فكلمة فراق جاءت لتشكل بؤرة الحدث الذي أراد أن يخـبرنا بـه الشاعر، فهو يحسُّ بالفراق من خلال تصافح القضب وعناقها ويحطم ذلك الإحساس بالفراق بالوصل الذي يصنعه والذي أراده الشاعر وتمناه.

ويجيـب الأستاذ أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي شاعراً قرطبياً مدحه ، ليناظر بين (قرطبة وبطليوس) فيقول مصرعا[1]: (البسيط)

قُـلْ للّـذي غاصَ في بَحْرٍ مِنَ الفِكْرِ بذهْـنِهِ فَحْـوىَ مـا شَـاءَ مِنْ دُرَرِ

وجـاءت كلمة الفكر هنا أيضا لتكون الموجه الرئيسي الذي يريده الشاعر للحكم علـى تلـك المـناظرة التي أرادها، ليخلص بتفكيره إلى رفعة شأن قرطبة. ويصرع المعتمد في مطلع مقطوعته التي يخطب فيها قرطبة قائلاً[2]: (البسيط)

مَـنْ للملـوك بشَـأوِ الأَصْيَدِ البَطَلِ هَـيْهَاتَ جـاءتْكُمُ مَهْدِيَّـةُ الـدُّوَلِ

فلا بد من أن يكون بطلاً ليخطب أم الحسان قرطبة.

وورد التصـريع أيضـاً فـي تلك المقطوعات التي درسناها لعدد من الشعراء ذكرهم المقري في (نفح الطيب) ففي إحداها يقول أبو المطرف بن أبي الحباب[3]:

لا يَـوْمَ كالـيوم فـي أيامـنا الأولِ بالعامـرية ذات المـاء والظِّلَـلِ

ويقول السميسر[4]:

وَقَفْـتُ بالزَّهـراء مُسْـتَعْبِراً مُعْتَـبِراً أنـدُبُ أشْـتاتا

---

(١) ابن خاقان: قلائد ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤، ص ٧١٨.

(٢) ابـن خاقـان، قلائد ومحاسن الأعيان جزء ١-٢، ص ٦٧، وانظر: التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٦٢٥.

(٣) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد الأول، ص ٥٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢٧.

ويقول الشريف الاصم القرطبي في مقطوعته[١]:

ألا فَدَعُــوا ذكــر العُذَيْــبِ وبــارقِ ولا تسأموا من ذكرِ فَحصِ السرادقِ

التوازي في الأشعار التي قيلت في قرطبة

الــتوازي: هــو المقابلــة والمواجهــة[٢]، أمّــا التوازي لغة: فهو المحاذاة أو المجاراة.

أمــا المعــنى الاصــطلاحي: فهو عبارة عن عنصر بنائي في الشعر يقوم على تكرار أجزاء متساوية[٣].

إنّ كــل مقطــع فــي الشــعر له علاقــة توازن مع المقاطع الأخرى في نفس المتتالــية، وكل نبر يفترض أن يكون مساوياً لنبر كلمة أخرى، كذلك فإنّ المقطع غير المنــبور يســاوي المقطع غير المنبور، والطويل عروضيا يساوي الطويل، والقصير يســاوي القصــير، وحــدود الكلمة تساوي حدود الكلمة، وغياب الحدود يساوي غياب الحــدود، وغــياب الوقــف يســاوي غياب الوقف[٤] يقول ياكبسون: "هناك نسق من التناســبات علــى مســتويات متعددة في مستوى تنظيم البنى التركيبية وترتيبها، وفي مســتوى تنظــيم الأشــكال النحوية وترتيبها، وفي مستوى تنظيم الأصوات والهياكل الــتطريزية، وهــذا النسق يكسب الأبيات المترابطة بواسطة التوازي انسجاماً واضحاً

---

(١) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ص ٤٧٥.

(٢) أبــو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م، ص ٣٩١.

(٣) موسى ربابعة: قراءة النص الشعري والجاهلي، ص ١٢٧، نقلاً عن:

Metzeler literatar lexicon. Herausgeqeben vongunther and irmgard schveikle.j.B Metzlersche verlagsbachnad lung.Stuttqart ١٩٨٥.p.٣٢٥

(٤) موســى ربابعة: قراءة النص الشعري الجاهلي، ص ١٢٨، نقلاً عن رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨م، ص ٣٣.

الموسيقى المتناوبة إيقاع الموشحة وقد تكررت بداية البيت الأول (سقى) ليبدأ بها البيت الرابع، ولعلّ مثل هذا النوع لا بُدَّ له أن يرسم صورة لتوازٍ قائم على ذلك التماثل الذي لا بُدَّ له أن يصنع توتراً على مستوى الإيقاع والدلالة والتركيب، فمن خلال تأكيد الشاعر على تلك السقيا نراه يعمم بها أولا لتشمل بقاع الوطن بأكمله، وفي سقياه الثانية يخص ذلك القصر الذي قضى أجمل لحظات حياته به ، فبعد أن كان سقياه (غيثا) أصبح (صوب الغمائم) عندما أخذ يخص القصر لتختلف كمية السقيا التي أرادها، ولتعبر تلك الكلمة عن موسيقى داخلية تتواءم مع الإيقاع الخارجي للموشحة.

وقد كان لأفعال الشاعر في هذه الموشحة دور آخر في تشكيل البناء المتوازي الذي بناه وهذا ما تمثّل في (سقى، حاك).

ومن الكلمات الأخرى التي رسمت ذلك البناء (ويوم)، حيث استطاع من خلال هذا التوازي أن يصوّر لنا مشاهد الفرح والبهجة التي عاشها في يومين، الأول في (حصن البنتي)، والثاني (في شمال قرطبة)، كذلك كان للفعل (لاح) دور كبير في تصوير حالة الشوق والحنين لدى الشاعر. وفي (مواكب الذكريات) يعود ابن زيدون ليرسم بناءه الهندسي مرة أخرى بموشحة جاءت القافية في أقفالها لتشكل بناءً متوازياً، وقد جاءت في صيغ مختلفة نقسمها كالتالي:(مصبأ-موطأ)، (المتفيأ-المتبوأ)، (يكلأ-يصدأ-ينسأ-يطرأ)،(منشأ-مربأ-أدنأ-أضوأ-تقنأ-تكفأ).

ولعل اختيار هذه الصيغ كان لابد منه، لأن ذلك شيء أساس في بناء الموشحة.

وساعدت هذه الكلمات من خلال الهمزة (كحركة وقفت عليها) على أن تستجمع تلك الآهات المكبوتة لتشكل بالتالي نقطة التحرك الجديدة التي ترفد الشاعر بمشاعر الذكرى والحنين، ولتشكل بالتالي نقطة وصل تعمّق وحدة القصيدة الموضوعية بحيث يشكل ترابطها تلك العلاقة الوشائجية التي حرص عليها الشاعر، لا سيما وأن نهايات الأشطر في أدوار موشحته قد شكلت توازياً فنياً وشعورياً، استنطق تلك المشاعر المضطربة وذلك الهيجان العاطفي، مجسدة بذلك تلك الموسيقى الإيقاعية الحزينة التي

حـــاول الشـــاعر أن يـــنوع في ألحانها، لتشكل تلك القصيدة بهندستها البنائية المتماثلة توازياً كلياً .

وشـــاعرنا فنان عظيم حرص على التنويع في هذا التوازي (الداخلي) للقصيدة، فمـــن خلال تكريره لحرف الاستفهام (هل) في بداية شطري أحد أبيات موشحته نلحظ ذلـــك التنامـــي والتدرج في بنية التوازي الذي لجأ إليه شاعرنا ليعبر عن المعنى الذي يختبئ وراء استفهامه يقول[1]: (الطويل)

وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تُنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيْدَة مَرْجِعُ ؟

فهو دافئ القلب حزين ، يتمنى أن ترجع لياليه الجميلة التي قضاها في قرطبة.

كذلـــك حرص الشاعر على إبراز لون جديد لتوازيه من خلال نبرات متوازية مـــتماثلة كان لها أثر فني و دلالي عميق بالإضافة إلى ذلك الجرس الموسيقي الداخلي، الذي يرفد إيقاع الموشحة، ولحظنا هذا في موشحته (مواكب الذكريات) عندما يقول[2]: (الطويل)

وَمَا كُنْتُ إلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْن
أَو اللَّيـــثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ أوِ الْعِلْـــقَ يُخْفَـــى فِي الصِّوَانِ وَيُخْبَأُ

فهو السيف القاطع في غمده، أو الأسد في الغابة، أو أنّه صقر في وكنه، أو أنه تحفـــة ثميـــنة محفوظة في وعاء يصونها . ولقد أوحى هذا التوازي بالمعنى الذي أراد الشـــاعر أن يرســـمه مـــن خلال تلك التشبيهات، فهو سجين لا حول له ولا قوه فماذا سيصـــنع؟ لا بد أن يرسم كل معاني القوة في نفسه، ولكنّها للأسف مكبوتة، لا يَستطيع الخـــروج فصوَّر نفسه سيفاً، ولكن هذا السيف لا يقوى على أعدائه. ثم صوّر نفسه ليثاً ثـــم صـــقراً ثـــم رأى أنه الأثمن. ومن خلال هذه النبرات المتوازية نلحظ تلك النبرة

---

(١) ديوان ابن زيدون، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

الحنينـــية التـــي أخذت تتصاعد لدى الشاعر لتعبر عن حالته كسجين، بعيد عن وطنه حيـــث يـــذوق مرارة السجن ومرارة الغربة، ولذا يحقد على الأعداء ولا يريد لهم أن يغبطوا لكونه سجيناً.

ويبرز التوازي أيضاً في استخدام الشاعر لكلمة بعينها مردداً إيَّاها لتحمل معنى آخر غير الذي حملته سابقاً يقول[1]: (الطويل)

يَضِيقُ بأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ مَذْهبي

.....

مَفَضَّضِ لأَلاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ

لـــتحمل الأولـــى مبدأه المتمثل في الحنين إلى الوطن بكل أنواع الحب، ولتكون الثانـــية إشارة، أو صفة لذلك الوجه المشرق المضيء .وكان لا بد لأفعال الموشحة أن تشـــكل هـــي الأخـــرى توازياً جميلاً يربط من خلاله الشاعر كلمات الموشحة بعضها بـــبعض، وليصـــنع من خلالها تلك الموسيقية العذبة التي تشي بالحالة اللاشعورية لدى شاعرنا.

فأفعاله في المقطوعة الأولى جاءت متوازية كالتالي[2]: (الطويل)

تَنَشَّقَ – مِنْ عَرْفِ الصَّبَا – مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ – لَمَّا تَأَلَّقَا

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تدفَّقَا،

مشـــيرةً إلى تلك المواكب التي حملت الشاعر إلى تذكره لقرطبة، وصورة الأثر الـــذي تحدثـــه تلك الذكريات في نفس الشاعر، فالشاعر يتنشق رياح بلده، فيتذكر أيام صـــباه، فيهـــتاج شـــوقه، ومن ثم ما ينفك أن تتدفق عيناه بكاءً كلما تألق البرق أمامه ولمع.

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٢.

وجـــاء التوازي أيضاً بين أفعاله (بدأنا، وعدنا، عدونا، رحنا) وكلها أفعال تذكر الشـــاعر بأيـــام لهوه وصباه مع أصحابه، وتلمح بزيارات الشاعر معهم (ذهاباً وإياباً) إلـــى مناطق متعددة أحبها في قرطبة، وهناك توازٍ آخر بين فعليه (تعمل، أعذل) حين يقول[1]: (الطويل)

أَسِفْتُ، فَمَا أَرْتَاحُ - وَالرَّاحُ تَعْمَلُ -
وَلا أُسْعفُ الأوتَارَ - وَهِيَ تَرَسَّلُ -
وَلاَ أَرْعَوِى عَنْ زَفْرَةٍ - حِينَ أُعْذَلُ -

فبالإضـــافة إلى تلك الموسيقى التي يصنعها هذا التوازي في نهاية الموشحة بين الأســـطر، نراه يعبر عن حالة الشاعر المأساوية، حيث لم تعد تريحه الخمرة، وتطربه، عندما يعلن أسفه أمام أهله ومدينته قرطبة ولا يعدل عن الزفرات حين يلام.

أمـــا أجمـــل أشكال هذا التوازي فكان بين تلك الأفعال التي جاءت قافية لأقفال الموشـــحة، ليشـــد بـــدوره إزار الموشحة لتتلاحم ألفاظها بقوه تركيبية، ذات قوه وبعد إيحائي، يطوف من خلاله الشاعر أرجاء قرطبة مرتلاً ترنيمة الشوق والحنين إلى تلك البقعة مثل:

- تُقَنَّا - تُكَفَّا
- يَطْرَأُ- يَكْلأُ - يصْدَأُ- يَنْسَأُ
- يُقْرَأُ- يُشْنَأُ- يُخْبَأُ

وقـــد يأتي التوازي من خلال البنيه النحوية، وجاء هذا عند ابن زيدون في هذه الموشحة، حيث قال[2]: (الطويل)

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ، وَغُصْنُك نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تُكْسى، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

فقد تكررت البنيه المكونة من (مبتدأ وخبر وحرف عطف و مبتدأ وخبر) لنشكل توازياً جميلا بين الشطر الأول والثاني.

أمّا التوازي القائم بين (ليلك ضحيان، غصنك نشوان، جوك عريان) فإنه يتم على أساس التطريز، أما (ليلك – نهارك) (أرضك –جوك) فقد تم فيها التوازي من خلال الطباق.

"والتطريز هو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن ليكون فيها كالطراز في الثوب"[1] وجسّد الشاعر من خلال هذا التطريز تلك العلاقة الحنينية إلى قرطبة بلياليها الساهرة، ومغانيها الساحرة وملاهيها العديدة، مضفياً على الموشحة صوتاً موسيقياً آخر أكثر إيقاعاً وغنائية، ليمنح الشاعر تدفقاً حنينياً أقوى يدفعه إلى التعبير عن حال ذكرياته، ثم يأتي هذا التطريز مرة أخرى بعد منتصف الموشحة ليدفع بتلك الحالة الحنينية الحزينة وبتلك الموسيقى الغنائية ليستمر هذا التدفق والانسياب حتى نهاية الموشحة، وبهذا يكون الشاعر قد حافظ على ذلك النفس الذي لم يتغير من أول الموشحة إلى آخرها يقول[2]: (الطويل)

وَ يَا حَبَّذَا "الزَّهْرَاءُ" بَهْجَةَ مَنْظَرِ
وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ، وَصِحَّةَ جَوْهَرِ

وترد البنية النحوية متوازية أيضاً في الشطر الأول من هذا البيت[3]: (الطويل)

أَو اللَّيثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ .....

---

(١) موسى ربابعة: قراءة النص الشعري الجاهلي، ص ١٣٦، نقلاً عن أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري(ت ٣٩٥هـ)، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق مفيد تميمة، دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٢) ديوان ابن زيدون، ص ١٣٥.

(٣) المصدر نفسه.

وفـــي (مجالـــي الزهراء) شكلت القافية نمط التوازي الأكبر لدى الشاعر حيث جـــاءت علـــى صـــيغ مـــتعددة منها (راقا – ضاقا – لاقى)،(إشفاقا – إشراقا)، ومنها صـــفات تخـــص العشـــيقة (أطواقـــا – أعناقا – أحداقا – أخلاقا – أعلاقا –أطلاقا – رقـــراقا)، ومـــنها صـــفات الشاعر (خفاقا– سراقا – عشاقا)، ليلخص لنا الشاعر من خـــلال هـــذا التوازي رسالة العشق التي أرسلها لحبيبته، بعد أن أهاج النسيم قلبه شوقاً لـــرؤياها، حيـــث أخـــذ يشـــبهها بوردة يسقيها بدموعه الندية لتزيد الصبح إشراقا إلى إشـــراقه. وورد التوازي لدى الشاعر من خلال الجناس الذي يبدأ به كلامه في البيت[1]:

(البسيط)

يَـــوْمٌ، كَأَيَّـــامِ لَـــذَّاتٍ لَـــنَا أنصرَمَتْ، بِتْـــنَا لَهَا – حِينَ نَامَ الدَّهْرُ – سُرَّاقا

وظهر في هذه القصيدة توازٍ بين الأسطر الأولى في بيتين منها[2] (البسيط)

لاَ سَكَّنَ اللهُ قَلباً، عَنَّ ذِكْرُكُمُ .....

فالآنَ – أُحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ– .....

وفـــي (معـــاهد صبوات) نرى توازياً بين نهايات الأشطر الأولى للبيتين الأول والأخـــير في القصيدة ليشكلا ذلك التوازي الإيقاعي الذي حرص عليه الشاعر، وليكن حلقة الوصل التي تربط أول القصيدة بآخرها. يقول: (الطويل)

عَلَى (الثَّغَبِ الشَّهْدِيِّ) مِنِّي تَحِيَّةٌ .....

فَمَا لِحِقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلاَمَةٌ .....

أمـــا في أرجوزة (زفرة الشريد) فقد شكلت نهايات الأشطر في هذه الأرجوزة نمطـــاً متوازياً تناوبت فيه عدد من الصيغ لتضفي على الأرجوزة لحناً موسيقياً حزيناً عزفـــته زفرات الغربة على أوتار قلب الشاعر، لتخرج قافيته البائية ممدودة ... لتعبر عن ذلك النفس النواحي الدفين[3]: (الرجز)

يَا دَمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أنْ تَصُوبَا

وَيَا فُؤَادِي آنَ أن تَذُوبَا

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

إنّ كلّ هذه الكلمات حقاً توحي بحالة الشاعر إبان تلك الفاجعة، وشكلت الأفعال (يشـيبا – يـتوبا) (أءوبا – تصوبا – تذوبا) – بالإضافة إلى أنها قوافٍ –توازياً آخر زاد ذلـك الجـو الحزين حزناً أعمق مضفياً تلك الموسيقى الداخلية الرنانة التي تخدم إيقاع القصيدة .

اسـتخدم الشاعر شكلين آخرين للتوازي، وهما يتمثلان في تكرار البنية النحوية فـي قوله: " أرسِلْ حَكِيماً، استَشرْ لبيباً"، ويقول: "ريح يروح عهدها قريباً" ليشكل نمط التوازي الآخر المتمثل في جناسه الذي يستهل به هذا المقطع الشعري.

وفـي "أنـة الطريد" يستخدم الشاعر التوازي في البيت الأول من خلال ترديد لفظـة (أضـحى) حيـث وردت مرتين لتحمل معنيين مختلفين: الأول يتمثل في (عيد الأضحى)، والثاني يعني (أول النهار). وطابق الشاعر بين هذا المعنى ولفظة (أمسى) ليشـكل بهـذا كله نغماً موسيقياً أنينياً يرسل من خلاله زفراته التي أراد بالإضافة إلى تلـك المـتانة والقوة التي يرفدها التوازي لذلك البناء الهندسي الذي يتمثل في القصيدة ككل.

ونسـتطيع الآن أن نتصـور لونا معمارياً جديداً يتمثل في ذلك التنوين (تنوين الكسـر) الذي شكل توازياً جميلا في نهايات الأشطر الأولى الخمسة من أبيات القصيدة والـذي يتمثل في الكلمات التالية:(نازحٍ– مالكٍ– صبوةٍ – شهدةٍ– نيطةٍ) وتمثل أيضاً فـي عدد من مفردات القصيدة مثل (ارتياحٍ – ملكٍ – أهوالٍ – لذاتٍ – لهوٍ– راكدٍ – وصـلٍ – عتابٍ) ليسمح من خلال هذا التنوين لذلك الأنين الذي يختلج نفسه أن يخرج معـبراً عـن حالته المأساوية التي يحياها وهو بعيد (غريب) عن وطنه، وليئن الشاعر من خلال تلك النون باكياً متفجعاً على أيامه الجميلة في الزهراء والرصافة وغيرها.

وهـناك تـوازٍ آخـر قائم على نهايات الأشطر الأولى للأبيات والذي يمكن أن نصنفه في هذه النهايات .

(صبوةٍ– شهدةٍ– نيطةٍ) (مالكٍ– نازحٍ) (حفافها – خلالها).

وفـــي القصـــيدة الأخـــيرة لابن زيدون تبرز لنا القافية (كغيرها) لتشكل بناءً متوازياً عمد إليه الشاعر كي يعطي لأبياته صفة الترابط والتلاحم؛ لتعبر أولاً عن بناء هندســـي متيـــن، ولتوحي ثانية بتلك العلاقة التي أرادها الشاعر بينه وبين أهله ووطنه وندمائـــه، وكأســـه، وحبيبته. ولهذا كان لا بد له أن يسير بتلك النونية على ذلك النغم الحزيـــن الذي يشاكه حال الشاعر الباكية، بعد أن حل العيد على أهله ووطنه وهو بعيد (غريب) عنهم.

وجـــاء البيـــت الأخير في القصيدة كختامٍ لمشاعر التأسي والغربة في القصيدة، وليكـــن خاتمـــة لكل قصائده التي قالها في قرطبة، عبر من خلاله عن تلك الحالة التي وصـــل إليها بعد كل هذا العناء، فلم يعد يجد شيئاً يسلّيه ويقدم له العزاء، فيقول مضمّنا في قصيدته كلام المتنبي[1]: (البسيط)

بِـــمَ الـــتَّعَلُّلُ ؟ لاَ أهْـــلٌ ! وَلاَ وَطَنٌ ! وَ لا نَدِيـــم ! وَلاَ كَأْسٌ! وَ لاَ سَكَن !

وهـــنا يـــبرز أجمل أنواع التوازي حيث جاءت كلمات الشاعر هذه لتشكل بناء مـــتوازياً من خلال تكرار تلك البنية النحوية المتمثلة في (لا + اسم) ليعبر الشاعر من خلالهـــا عـــن حالة الشوق التي تزفر في نفسه أكثر فأكثر، معبرة بذلك عن ذلك البعد النفســـي الذي تحمله بين طياتها ، بالإضافة إلى ذلك النغم الجميل الذي يتكاثف ليشكل حسّـــاً إيقاعـــياً داخلياً يتكاتف والحس الحزين لدى مفردات القصيدة مشكلاً ذلك البناء الوجدانـــي والعاطفـــي والإيقاعـــي المـــتوازي المتكامل الذي يشكل معمارية القصيدة "القرطبية".

ولقـــد استخدم مثل هذا الأسلوب المسجع عند الشعراء القدامى (لا سيما وأن هذا البيـــت قـــد اقتبســـة شاعرنا من مطلع قصيدة للمتنبي) ليشكل ذلك النسق البنائي الذي

---

(١) ديوان ابن زيدون، ص ١٦٣.

يســمى (بالترصيع) حيث قيل عنه بأنه " توخي تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف"[1].

أما ابن شهيد ففي (رثاء قرطبة):

يطالعنا أولاً ذلك البناء المتوازي في بداية الأبيات التالية: (الكامل)

٧- دَارٌ أَقــالَ اللهُ عَــثْرةَ أَهْلِهَــا، فَتَــبَرْبَرُوا وتَغَــرَّبُوا وتَمَصَّــرُوا

١١- والــدارُ قد ضَرَبَ الكَمالُ رِواقَهُ فــيها وبــاعُ الــنقص فيها يَقْصُرُ[2]

ليخدم بهذا التوازي الفكرة الرئيسية، التي تتمثل في رثائه قرطبة، ولكونها داراً للجمــيع عــبر أولاً عــن تلك الفاجعة التي حلت بها ، ولكي لا يحس السامع بأن تلك الــدار قــد أصــبحت ناقصة (أهلاً وبناء)، أراد أن يعيد تلك البداية بهذا البناء الجميل ليشــكل من خلاله علاقة وشائجية بين أبيات القصيدة، وبين الشاعر ومدينته، بل وبين المديــنة نفســها، وجــاء التوازي بهذه الصورة من خلال تكرار كلمة (أيام) في بداية أبيات الشاعر الثلاث[3]: (الكامل)

أَيّــامَ كانَــتْ عَيْــنُ كُــلِّ كَــرامةٍ مِــن كُــل ناحِــيَةٍ إِلَــيْها تَــنظُرُ

أَيّــامَ كــانَ الأَمْــرُ فــيها واحِــداً لأَمِــيرها وأَمِــيرِ مَــن يــتَأَمَّرُ

أَيّــامَ كانَــتْ كَــفُّ كُــلِّ سَــلامةٍ تســمو إِلَــيْها بالسَّــلامِ وتَــبْدُرُ

فجــاء التوازي هنا ليعبر عن تلك التدفقات العاطفية لدى الشاعر، والتي جاءت لــترفض ذلــك الواقع الذي قد وضعت قرطبة في بوتقته، ولذا جاء تذكّره لأيامه أولاً ليعــبر عــن كــرامة عيشه آنذاك تحت ظل إمارةٍ قوية، وليعبر ثانياً عن ذلك السلام والأمان الذي كان يغمر قرطبة آنذاك.

---

(١) موسى ربابعة: قراءة النص الشعري الجاهلي، ص ١٤١.

(٢) ديوان ابن شهيد: ص ١١٠.

(٣) ديوان ابن زيدون: ص ١١١.

وعمــق هذا التوازي ذلك الترتيب النحوي المتماثل في الشطر الأول من البيت الأول والثالــث، حيــث شــكل هذا التوازي علاقة حميمة، صور الشاعر من خلالها علاقــة عيشه الكريم آنذاك بالأمن والسلامة، وليشكل هذان التوازيان موسيقى داخلية، فلــتكرار البنية النحوية بل واللفظة (أيام) إيقاع حساس عبّر من خلاله الشاعر عن ذلك المعنى الذي أراده.

وأكــثر الشــاعر من بنية التوازي من خلال البنى النحوية حتى لنشهد ذلك في هذه القصيدة:

أ. بين شطري البيت الواحد[١]:

والزاهِــــريَّةُ بالمَراكِــــبِ تُزْهِــــرُ والعامِــــريّةُ بالكَواكِــــبِ تُعْمَــــرُ

فالــتوازي هــنا تــم بين شطري البيت ليحتوي كل شطر على (مبتدأ (اسم) + حــرف جــر واسم مجرور على وزن مفاعل + فعل مضارع) ولينهض هذا التوازي ببــث روح الحياة في مكان الحياة والمحبة لدى الشاعر (الزاهرية، العامرية)، ويمكن لنا أن نعد التوازي في البيت الثاني والعشرين من هذا القبيل[٢]: (الكامل)

جــادَ الفُــراتُ بســاحَتَيْك ودِجْلَــةٌ والنِّــيلُ جــادَ بهــا وجــادَ الكَوْثَــرُ

ب. بين بيتين في القصيدة وهذا ما نلحظه بقوله: (الكامل)

يــا جَــنَّةً عَصــفَتْ بهــا وبأَهْلِهــا رِيــحُ الــنَّوى فــتَدَمَّرتْ وتَدَمَّــرُوا

يــا مَــنْزلاً نَزَلَــتْ بــه و بأَهْلِــهِ طَــيْرُ الــنَّوى فَتَغَيَــرُوا وتَنَكَّرُوا[٣]

حيــث صــنعت هــذه المفردات توازياً جميلاً، كما أنها عبرت عن تلك العلاقة الحمــيمة بيــن الشــاعر ومدينته التي شكلت منزلة بل وجنته التي كان يبتغي، ولكن هيهات، هيهات، دمرت، وتغيرت، وأصبح حري بالشاعر أن يناديها على البعاد.

---

(١) ديوان ابن شهيد، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١.

وتـوازت أفعـال الشـاعر هـنا مـثل (عفـت – نزلت) (تدمرت – تغيرت) (تدمروا – تغيروا).

لـيكون بهذا التنوع البنائي أسمى صور البنائية وأشدها لا سيما وأن شاعرنا قد عبر عن تلك القوة من خلال أبيات القصيدة الأخيرة .

ج. التوازي في البنى النحوية لأبياته الثلاثة الأخيرة يقول[1]: (الكامل)

حَـزَنى علـى سَـرَواتِها ورُواتِهـا وثِقاتِهـا وحُماتِهـا يَـتَكَرَّرُ

نَفْسِـي علـى آلائِهـا وصـفائِها وبَهائِهـا وسَـنائِها تَتَحَسَّـرُ

كَـبِدِي علـى عُلَمائِهـا حُلَمائِهـا أُدَبَائِهـا ظُـرَفائِها تَـتَفَطَّرُ

إن هـذا الـتوازي الذكيّ الذي عمد إليه الشاعر جاء خلاصةً لرثائه حيث جمع فيه كل ما من شأنه أن يثير بكاء رجل رأى الدمار بقرطبة فرثاها وبكى عليها، وحمل هـذا البـناء دلالـة إيحائـية فكرية أراد أن يعبر من خلالها الشاعر عن مكنون قلبه الباكـي، الـذي ظهـر من خلال ذلك المد الذي لحق أسماءه ليضفي عليها جواً حزيناً باكـياً، يـزرع في المتلقي نغمة الحزن الدافئة التي أراد لها الشاعر أن تخرج من قلبه ليحاكـي ويرثـي بها سروات قرطبة، ورواتها، وثقاتها، وحماتها، وآلائها، وصفائها، وبهائهـا، وسنائها، وعلمائها، وحلمائها، وأدبائها، وظرفائها، لتخلد في نفسه المتحسرة حزناً أبدياً، يتفطر له قلبه وكبده.

وجاءت (صيغة تفعّلوا) بين ثنايا القصيدة، ومن خلال القافية أيضا لتشكل نمطاً مـتوازياً بين الأفعال، حاول الشاعر من خلالها أن يعبر عن الأثر الذي لحق به وبأهل قرطبة وبقرطبة نفسها من قبل اولئك العداة (البربر).

يقـول: (تغيروا، تفرقوا، تغربوا، تمصروا، تعمموا، تأزروا، تدمروا، تغيروا، تنكروا).

---

(١) ديوان ابن شهيد: ص ١١١.

وجـاءت هذه الأبيات لتحمل بين طياتها (إنْ صح لنا تقسيمها) كلمات متساوية فـي الوزن، مطرّزة ثوب القصيدة بخيط موشىّ جميل ولذا يمكن أن نعد هذا التوازي أيضـاً مـن قبيل ما يسمى بالتطريز، الذي استطاع الشاعر من خلاله أن يعزّز الفكرة الرثائـية التـي أرادهـا منذ بداية القصيدة ، وليشدَّ إزارها مضفياً على النص موسيقا غنائية جميلة تتلائم وإيقاع القصيدة .

ولـذا نـرى أن الشاعر قد أكسب -بتوازيه المتنوع- القصيدة بهاءً وجمالاً إلى جمالهـا. وقـد عمـق مـن خلاله أيضاً لحن الحزن والبكاء ، ليصنع موسيقى داخلية وخارجـية للقصـيدة يحاكـي من خلاله إيقاع القصيدة الرثائية الباكية ، ونفس الشاعر المضطربة، ذلك الاضطراب الذي قد نلحظه من خلال استخدام الشاعر للتوازي القائم على الجناس الاستهلالي[1] المتمثل في بيتيه[2]: (الكامل)

١٤. والقَصْرُ قَصْرُ بَنى أُمَيّةَ وافِرٌ .....

٢١. يا مَنْزلاً نَزَلتْ به و بأَهْلِه .....

ومـن أشكال التوازي في هذه القصيدة ما ورد منها متوازياً في نهايات الأشطر الأولـى مشـكلة وحدة الترابط الموضوعي لحديث الشاعر، وظيفة إلى الجو الموسيقي إيقاعاً جزئياً جميلاً إلى إيقاعها العام، يقول[3]: (الكامل)

٧. دَارٌ أَقالَ اللهُ عَثْرةَ أَهْلِهَا، .....

١٢. والقَوْمُ قد أَمِنُوا تغيُّرَ حُسْنِها .....

١٨. يا جَنَّةً عَصفَتْ بها وبأَهْلِها .....

وورد هـذا الشكل في البيتين (الأول والخامس عشر) بين كلمة (مخبر، تزهر). وفـي البيتين الخامس والعشرين والسابع والعشرين بين كلمتي (كرامة، سلامة). وفي

---

(١) موسى ربابعة، قراءة النص الشعري الجاهلي، ص ١٤٠.

(٢) ديوان ابن شهيد: ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٠.

الأبـيات الثامـن والعشـرين والتاسع والعشرين، والثلاثين بين (رواتها – صفائها – حلمائها).

ولننـتقل الآن إلى الشاعر ابن أبي الخصال لنرى تلك المتوازيات الجميلة التي شكل من خلالها بناء معمارية مسمطته.

لقـد شـرع ابن أبي الخصال منذ بداية المسمطة بتسطير أجمل بناء متوازٍ من خـلال نهايـة الأشـطر الأولى التي انتهت بها أبياته، ففي كل دور من هذه المسمّطة كانت النهايات الأولى لأشطره تسير على نفس الشكل العروضي، وكذلك القافية، وهذا شـيء طبيعـي ومشروط في المسمّطة، ومن هنا شكل هذا النمط توازياً متكاملاً على الرغم من تنوّعه من دور إلى دور، ليوحي لنا:

أولاً: بالتـنوع الجغرافـي الـذي أراد أن يصوره من خلال حديثه الطويل عن معالم قرطبة وذكرياته فيها.

وثانـياً: بالتـنوع الإيقاعـي الذي يختبىء وراء الموسيقى ذات النغمات المختلفة التي شـكلت سـيمفونية الحـب المتجذّر لقرطبة، والتي إستنطقها الشاعر من خلال مـناجاته مواطـن الجمال واللهو، واللحظات الجميلة التي قضاها في قرطبة، لاسـيما في أجمل لياليها ليلة القدر، أمّا ذلك الشطر الشعري الذي كان يختم به الشـاعر أدواره فلقد جاءت نهاياتها متوازية لتشكل عقداً لؤلؤياً ربط الشاعر من خلالهـا أفكـاره ونظـرته إلى مدينته الحبيبة قرطبة. ليضفي ذلك على النص تجاوبـا موسـيقيا ينسجم مع الوضع الشعوري لدى الشاعر، وهنا عمد الشاعر إلـى اسـتخدام قافـية الـباء في نهاية هذه الأشطر، ومن أشكال التوازي عند الشاعر ما ورد في قوله[1]: (الطويل)

كـم احتضَـنَتْ فيها القيانُ المَراهِرا وكـم قَـدْ أجابَ الطَّيْر فيها المَزامِرا

وكـم فاوَحتْ فيها الرّياضُ المَجامِرا وكـم شَـهِدَتْ فـيها الفراقدُ سامِرا

---

(١) رسائل ابن ابي الخصال: ص ٥١٦.

فقــد شكلت (كم) الخبرية في بداية هذه الأبيات توازياً جميلاً، عمد إليه الشاعر لــيعمق إحساســه بفقــد تلك القصور (قصور بني أميه في الزهراء) التي احتضنت القيان، والطيور .....إلخ.

وشــكّل الشــاعر هذا التوازي من خلال تكرار البنية النحوية نفسها – لا سيما في الأشطر الأولى – لتشكل تطريزاً جميلاً حاكه الشاعر لتلك القصور، ليكون وصفه لها جميلاً منمّقاً. ولقد ورد هذا النوع أيضاً في قوله[1]: (الطويل)

فأيــنَ الشُّــموسُ الطالعــاتُ بِها لَيْلا وأيــنَ الظِّــباءُ السّــاحباتُ بها ذَيْلا

وأيــنَ الغصــون المائســاتُ بها مَيْلاً وأينَ الثَّرى رَجْلاً وأين الحَصى خَيْلا

ففــي الأشــطر الــثلاثة الأولــى تماثل في البنية النحوية ، وفي نهاية الأشطر الأولى هناك توازٍ.

وإن صــحّ لــنا القــول فإن هناك توازياً من خلال كلمتي (الثرى) (والحصى) المتطابقتيــن، هذا بالإضافة إلى ذلك التوازي الجميل بين كلمات القافية، وبين كلمات القافــية والعــروض، وهــناك توازٍ أكثر فاعلية هو ترديد كلمة (أين) لتكون المحرك الرئيســي لعاطفة الأبيات، ومن هنا فإنه يحق لنا القول: إنَّ كلمات الشاعر، مهما كان موقعهــا، جــاءت لتشــكل بناءً مترابطاً داخل هندسة القصيدة ككل، تفنن الشاعر به لــيخرجه بأنمــاط وأنــواع مختلفة من التكرار والتوازي، ليمنح القصيدة تلك العلاقة الترابطــية التركيبــية، وليلحــن من خلالها الشاعر كل نغمات الحب والحنان لقرطبة، لــتكون موســيقاة عذبــة سلسة، تقود إلى إيقاع حسي أكثر عمقاً يربط بألحانه العذبة الدافئة بين الشاعر وبيئته الجميلة الرائعة.

ولقد سار الشاعر على هذا النمط من التوازي في قوله[2]: (الطويل)

سَــلامٌ علــى صَــخْرائها وقُصورِها ســلامٌ علــى أوْطانهــا وقــبورِها

سَــلامٌ علــى غُــيّابِها وحُضــورِها ولا زَالَ سُــورُ اللهِ مــن دون سُــورِها

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال، ص ٥١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢١.

فالأشطر الثلاثة الأولى في البيت تشكل توازياً من خلال البنى النحوية، وتشكل كلمة (سلام) لفظة البؤرة التي يرسم من خلالها الشاعر نسقاً تكرارياً يعبر من خلاله عن تلك التدفقات العاطفية التي توحي بشكل أو بآخر بالحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، وورد هذا التوازي الذي يتم من خلال تماثل البنى النحوية بشكل واضح في المسمطة ونذكر منه أيضا هذا التوازي[1]: (الطويل)

إلى مُلْكِها انقادَ المُلوك وسلَّمُوا وكَعْبَتَها زارَ الوُفودُ ويَمَّمُوا

فلقد تم من خلال مماثلة العجز للصدر . ومنه أيضاً قوله[2]: (الطويل)

ويُسْفرُ مَخْفُوراً بذمّتها الفَجْرُ ويوسَمُ مَخْتُوماً بطينَتِها الدَّهْرُ

ومنه أيضاً هذا القول الجميل[3]: (الطويل)

ففي ظَهرها المعشوقِ كُلُّ مُرَفَّعٍ وفي بطنها المَنْشُوقِ كلُّ مُشَفّعِ

ويمكننا القول: إنّ الطباق الذي جاء في هذه القصيدة قد صبَّ في بوتقة التوازي، ومن هذه الألفاظ (المشيب – الشباب)،(اسق– ضمآن)،(العلم – الجهل)، (سفل– عل)،(جنوبي – شمالي)،(أعلاها – سفلاها)،(بعد– دنو).

ولهذا فإنّ التنوع في استخدام هذه الأفانين المتوازية قد حدا بالشاعر إلى التعبير عن اللاشعور الذاتي له من خلال نظرته ووصفه لمدينة قرطبة، وليكون هذا التوازي تعزيزاً لتلك الوظيفة البنائية التركيبية للنص ،والتي تزيد النص أولاً وأخيراً ترابطاً وتجاذباً، تلتحم من خلاله أركانه بحيث يخرج بناءً معمارياً متيناً تعهد ببنائه شاعر أندلسي ثري اللغة، غني بالحب والشوق لوطنه. يمتلك أدوات التصوير البارعة.

---

(١) رسائل ابن ابي الخصال: ص ٥١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٢١.

وتكـــرر العديـــد من الأفعال عند الشاعر حتى أصبح لهذه الأفعال صدىً ورنة توقـــض كلمات النص لتهب مسرعة معبرة عن ذلك الوصف والتصوير التذكاري لأيام الشـــاعر قي قرطبة، ومن هذه الأفعال – إن صح لنا أن نعتبرها من قبيل التوازي من خلال تكرار صيغ معينه –.

(يرى-هوى – وعى- نوى- علا- عفى)

(زار- نام- زال- جاش – حان- جاء- قال- قام- جاس- خلع)

(أصبح- تابع- القى- انقاد – أجاب – أشرق- أذرع- أوشك- أقبل)

(يجبى – تعزى- تنضى- يرعى- يفنى- يهوى) (تلاقى- تجافى).

ولقـــد كان للتوازي دور واضح في تشكيل معمارية قصيدة ابن دراج القسطلي ،حيـــث حـــاول أن يســـتغل أكـــبر قـــدر ممكـــن من "التوازيات" ليمنح قصيدته وحدة موضـــوعية ،لا ســـيما أن قصيدته قد احتوت على أكثر من غرض، حيث تحدث في بدايتها عن شوقه وحنينه إلى قرطبة، مرسلاً إليها ذلك الحنين من خلال السقيا.

ثـــم يـــتحدث بعد ذلك عن حال قرطبة وحال أهلها ليخلص الى غرض القصيدة (الرئيسي) وهو مدح المنصور منذر بن يحيى، والإشادة بآثاره في تلك البلاد.

وشـــكلت قصـــيدة القسطلي هذه معجماً لغوياً أندلسياً ثرياً، استخدم الشاعر فيها كلمـــات كثـــيرة جـــاد بها من معينه اللغوي الذي تدفق لينساب كانسياب أنهار قرطبة، فالبيـــئة الأندلســـية الجمـــيلة – وخاصة قرطبة – حرية بأن تضع شعراءها في أجمل قصور الشعر وأعظمها (إن كان الشعر وليد البيئة.

فقصـــيدة بهذا الطول (٨٠ بيتاً) لا بدّ لها من بناء شعري محكم، يربط أجزاءها المتـــناثرة، ولهذا عمد الشاعر إلى التوازي بشتى أصنافه، ليخلق من خلاله النفس الذي أراد أن يسيطر على أبيات القصيدة .

ولنـــبدأ أولا بذلك التوازي الذي يجمع الأبيات مع بعضها، والذي يوحد معناها، ويقـــرب بينها لتتعاضد جميعاً مكونّة التركيب الدلالي المتين، والإيقاع الشعري الجميل

الــذي لا بد أن تولّده كلمات القصيدة، إذا تآلفت وتعاضدت، ألا وهو التوازي القائم بين نهايات الأشطر الأولى: وهذا يتمثل في الأمثلة التالية[1]: (الكامل)

٨. ذُلُلاً تَعَسَّفْنَ الدُّجى بأذِلةٍ .....

١٥. وتَقَطَّعَتْ أسبابُهُنَّ لِطِيَّةٍ .....

٧٣. ولقدَ تَجَلَّى العيدُ عَنكَ بِغُرَّةٍ .....

وكذلك في نهايات أشطر الأبيات الأولى التالية: (الكامل)

١٠. مِــن كُــلِّ مَفجُــوعٍ بــتُرْحةِ راحِلٍ .....

١١. كذَبَــتْهُ بارِقَــةُ المُــنى عن صادِقٍ .....

١٢. ظُعُــنٌ سَــرَيْنَ اللّــيلَ ضَرْبَةَ لازِمٍ .....

٣٢. أنَّ الرَّبِــيْعَ لَــدَيَّ شِــيمةُ قاطِــنٍ .....

٥١. فَنَظَمْــتُها فــي كُــلِّ أُفْــقٍ نــازِحٍ .....

٥٣. ذِكْــرٌ علــى الأَلْــبَابِ أَكْرَمُ نازِلٍ .....

٥٥. بفواتِــحٍ مِــنْ كُــلِّ مَــدْحٍ ســائِرٍ .....

٥٦. فاستَشْــرَفَ الــثَّقَلانِ أَخْطَبَ شاعِرٍ .....

٦٢. ورفَعْــتُ ســتْرَ اللــيلِ عنكَ لِغَابِرٍ .....

٦٧. ورأي الضَّلالَ عَلَيْكَ أَضْعَفَ ناصِرٍ .....

٧١. وأَجْرَتْنــي مــنْ كُلِّ خَطْبٍ طارِقٍ .....

٧٩. وتكــادُ تهتفُ عَنكَ: هل منْ رَاغِبٍ .....

٨٠. فاسْــلَمْ وكُــنْ لــلأَرْضِ آخِرَ عامِرٍ .....

---

(١) انظر ديوان ابن دراج القسطلي: ص ١٣٨-١٤٢.

كذلك في:

١٣. جَمُــدَتْ عليهــنَّ القُلوبُ فأَسْبَلَتْ .....

١٤. وتَخَــازَرَتْ عنها العُيُونَ فأَبْرَزَتْ .....

١٧. لَحِقَــتْ بأسْبَابَ السَّمَاءِ فأُعْطِيَتْ .....

٢٠. مــا بَــلَّ بَحْــرٌ صُوَفَةً وتقاذَفَتْ .....

٢٩. قَنَّعْــتُها الصَّبْرَ الجَميلَ فَأَسْفَرَتْ .....

٣٠. وشَــدَدْتُ عَقْــدَ خِتامِها فاسْتَفْحَتْ .....

٣٨. وسُــدْكِتُ بالغَمَــرَاتِ حتى بَلَّدَتْ .....

وأيضاً في:

١. قُــلْ للرَّبــيع اِسْحَبْ مُلاءَ سَحائِبِ .....

٧. حيــثُ اسْــتَكَانتْ للعَفَاءِ منازِلي .....

٤٤. والمَكْــرُمَاتُ منازِلي ومشاهِدِي .....

٤٦. عــبِقُ الــرَّوائِحِ مِن نَثِيرِ غدائِرِي .....

٤٧. وتَــرُوحُ مُغْتَــبِقاً شَمُولَ شمائِلِي .....

٤٨. نَغْــدُو فَتَسْــتَمْلِيَ بديــعَ محاسِني .....

٥٠. ممَّــا تَــرفُّ بِهِ رِيَاضُ حدائِقي .....

٥٧. فَخَطَبْــتُ والعَوَّاءُ بَغْضُ مَنَابِرِي .....

٦٩. ولقــد تراءَتْ في ذَرَاكَ مطالِعي .....

٧٢. ووجَــدْتُ عند يَدَيْكَ سَدَّ مفاقِري .....

وكذلك:

٩. وكواكــبٌ نــاءَتْ بقِربَــتِها النَّوى .....

٤٢. نعَــمْ تكــاد تَــرُدُّ أَيَّــامَ الصِّــبا .....

٤٩. وتبيتُ تنشُرُ في الأَبَاطِحِ والرُّبى .....

٦٠. وجلَـوْتُ للدنيا مثالَك في الوَغى .....

٦٣. حـتَّى أَرَيْتَهُمُ السَّنا تحتَ الدُّجى .....

١٨. وأَعَـدَّتِ الأَزْمَـانُ مَـاءَ شَبَابِها .....

٤١. ورفَعْـتُ نـاراً للعيونِ وقودُها .....

٥٤. سُـوّر لمَجْـدِكَ رَفَّعَـتْ آياتِهـا .....

ومنه:

٢٣. تَشْـدُو بها خُضْرُ الحَمَامِ وَحَظُّها .....

٢٨. ولقـد قَضَـيْتُ من الصَّبابَةِ حَقَّها .....

ومنه:

٢٧. بِشَـوارِدٍ في الأَرْضِ غيرِ أو ابدِ .....

٣٦. وشَـفَيْتُ سُـمَّ عَقَـارِبٍ بأَساوِدِ .....

ومنه:

٢٧. حَلَّيْـتُهَا الأَرْضَ الَّتي هِيَ فارِكِي .....

٣٣. مـن بعدِ ما غَمَّ الصَّباحُ لِناظِري .....

ومنه:

٥٩. حـتى تركتُ سَناءَ مُلْكِكَ حاضِراً .....

٦٥. حتَّى "ابنُ شَنْجٍ" يَوْمَ أَمَّكَ خاضعاً .....

ومن هنا فإنّ التوازي قد شمل كل أبيات القصيدة بل كل كلماتها وعليه نستطيع القــول إنَّ القصــيدة بأكملها قد شكلت توازيات متجاورة متآلفة كوّنت البناء المعماري للقصيدة لتخرجة بهذا الشكل الجميل.

أمّــا الــتوازي عــند ابــن خفاجه فقد جاء من قبيل التماثل في نهايات الاشطر الأولى للأبيات وهذا ما نلحظه فيما يلي[1]: (الكامل)

٦. فَلَــوَ أنَّ سَــرْحَة بَطْــنِ وادٍ بــالِّلوى حَيَّيــتهَا تُصْــغِي إلَــى مُشْــتَاقِ
١٣. وَالثْمْ يَدَ ابْنِ أبي الخِصَالِ عَنِ العُلَى مُتَشَــكِّراً وَاضْــمُمْهُ ضَــمَّ عِــنَاقِ
٢٦. جَــمُّ الْعُلَــى مَسَــحَتْ بهِ كَفُّ العُلَى عَــنْ حُــرِّ وَجْــهِ مُطَهَّــمٍ سَــبَّاقِ

والأبيات[2]: (الكامل)

٣. عَبِثَــتْ بِهِــنَّ يَــدُ النُّعَامَى سُحْرَةً فَوَضَــعْنَ أَعْــنَاقاً عَلَــى أعْــنَاقِ
١٤. وَافْــتُقْ بِــنادِيهِ التَّحِــيَّةَ زَهْرَةً نَفَّاحَــةً تُغْــنِي عَــنِ استِنْشَــاقِ
٢٧. يُــزْهَى بــأعْلاَقِ المَعَالِــي حِلْيَةً إنَّ المَعَالِــي أَنْفُــسُ الأَغْــلاَقِ

والأبيات[3]: (الكامل)

٥. ضَــمّا ولَــثْماً وَاســتِطَابَةَ نَفْحَــةٍ وَخُفُــوقَ أَحْشَــاءٍ وَفَــيْضَ مــآقِ
مُتَرَكِّــبٍ مِــنْ نَفْحَــةٍ فِــي لَفْحَــةٍ وَكَفَــاكَ مِــنْ كَــأْسٍ تُهَــزُّ دِهَــاقِ

والأبيات[4]: (الكامل)

كَالشَّــمْسِ يَــوْمَ الدَّجْــنِ تَنْدَى مُجْتَنَى ظِــلٌّ وَتَحْسُــنُ مُجْــتَلَى إشْــرَاقِ
فَهُــنَاكَ أَرْوَعُ مِــلءُ عَيْــنِ المُجْــتَلِى يَقْظَــانُ مُوثَــقُ عُقْــدَةِ المِيــثَاقِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ص ١٥٨-١٥٩-١٦٠(على الترتيب).
(٢) المصدر نفــه.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧-١٥٩.
(٤) المصدر نفسه،ص ١٥٩.

فقد تشابهت الأشطر الأولى في البيتين التاليين ليشكلا توازياً[1]: (الطويل)

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُودِرَت ... خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرا

ولَكِنَّ أقداراً من اللهِ أُنفِذَتْ ... تُدَمِّرُنا طَوعاً لمَا حلَّ أو قَهْرا

وكما فعل ابن شهيد في "رثاء قرطبة"، نجد ابن حزم هنا في رثائه يكثف الدلالات الرثائية، والإيحاءات الدلالية في آخر قصيدته، لتتأجج نيرانه بعد أن أشعل وقودها في الأبيات السابقة، ولتأتي أبياته الثلاثة (التي تسبق الأخير) لتشكل بنبراتها المتساوية بنية نحوية متوازية لتعبر عن شدة الفاجعة، ولتعمق إحساس الشاعر البكائي، لتتخرج (الأبيات) والمقاطع ناحبة نادبة حال قرطبة بجو بكائي حزين من خلال موسيقيا شجية تبثها المقطوعات بنبراتها المتوازية، لتشكل إيقاع القصيدة – المعنى الشعوري لدى الشاعر، ولهذا جاء التوازي في أبياته على الشكل التالي:

توازي في البنية النحوية، والنبرات الصوتية، وفي نهايات الأشطر الأولى[2]:

(الطويل)

فواجْسيَ المضنَى وواقَلْبيَ المُغْرى ... ووانَفْسيَ الثكلى وواكبدي الحَرَّى

ويا هَمُّ ما أعدى، ويا شَجْوُ ما أبرا ... ويا وَجْدُ ما أشجى، ويا بَينُ ما أفْرا

ويا دهرُ لا تبعَدْ، ويا عهدُ لا تحُلْ ... ويا دمعُ لا تجمَدْ، ويا سقم لا تَبْرا

ليكشف الشاعر من خلال هذا (الترصيع) عن حالة نفسه الثكلى، ولتنسجم تلك الفواصل السجعية مع حالة الشاعر، وهو يرى مدينته العظيمة مدمرة، وبهذا النغم الحزين استطاع الشاعر أن يعمق ذلك البعد الوجداني بينه وبين مدينته، وأن يبرهن على صدق علاقته بها، هذا بالإضافة إلى ذلك الصوت الموسيقي الذي أحدثته الأبيات حتى جئن وكأنهن نائحات يندبن فقيداً عزيزاً.

---

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي: ص ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٣.

الوزن والقافية

أولاً: الوزن

قيل إنّ أكثر من ثلثي الشعر العربي قد نظم على بحر الطويل لما يتصف به من الكمال حتى لا يأتي مجزوءاً ولا مشطوراً، أمّا حروفه فقد تصل إلى ثمان وأربعين حرفاً عند التصريع.

ومن أهم أغراضه الحماسة والفخر والقصص، وهذا ما حدا بالشعراء مثل (امرئ القيس، وطرفه بن العبد، وزهير بن أبي سلمى) إلى اتباعه حيث يروون من خلاله قصص حياتهم في البوادي[1].

أما القصائد التي محط دراستنا فهي أربع عشرة قصيدة فقط، جاء نصفها على هذا البحر، حيث استطاع شعراؤنا أن يرووا من خلاله قصص حياتهم في مدينة الحُسْنِ والجمال قرطبة، وقد ساعد هذا البحر بتفعيلاته الثمانية الشعراء على الإسهاب في الحديث حول وصفهم لمعالم مدينتهم، والافتخار بها، دفعهم إلى هذا بلا شك، تلك الحماسة الخَلْقية التي تربط الإنسان بموطنه الأصلي، هذا بالإضافة إلى أن معظمهم قد شرد وابتعد عن قرطبة ولهذا كان لابد أن يتذكرها، ويرسم قصورها في خياله، لينطلق خياله بالتالي كالماء السلسبيل ليصف أجمل ما فيها.

أما شاعرنا ابن زيدون ففي (ليالي قرطبة) نراه مفتوناً بجمال مدينته وجمال حبيبته، وهنا كان لابُدَّ له أن يعبّر عن أجمل اللحظات التي قضاها في عرصاتها، إنّ حديث الشاعر عن هذه الأماكن سيدفعه بلا شك إلى الإسهاب في تصويرها بأجمل تصوير ولقد استطاع بحر الطويل أن يضم تلك المعاني وأن ينطق بتلك الإحاسيس، ولهذا جاء موشح ابن زيدون الأول (ليالي قرطبة) لتشكل أدواره أنصاف هذا البيت،

---

(١) انظر: صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية. منشورات مكتبة المثنى ببغداد ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ط ٥، ص ٤٣-٤٤. وانظر أيضاً: يوسف بكار: في العروض والقافية، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م، ص ٦٢ و ٣٣. وانظر أيضاً د. نايف معروف وعمر الأسعد: علم العروض التطبيقي، دار النفائس، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٦٢.

أمّـــا أقفالـــه فهي على البحر الطويل بأكمله، ولقد بدأت هذه القصيدة بالدورم أولاً، ولم تـــبدأ بمطلـــع (قفل) فهي موشح (أقرع). فالموقف مدهش، والشاعر لا يريد أن يزين القصـــيدة بهـــذا الشكل، فهي قصيدة جميلة زاهية بكلماتها لا سيما وأنها تقال في أجمل بقاع الأرض.

جاءت قصيدة ابن زيدون هذه في مائتي تفعيلة مائة وعشرين منها في الأدوار، وثمانين في أقفالها.

أمـــا أدواره فقـــد احتوت تفعيلاتها على ثمانٍ وأربعين تفعيلة مقبوضة في كلا التفعيلتيـــن، ففـــي الأولـــى والثالثة سبع وعشرون (ب-ب) والرابعة إحدى وعشرون (ب-ب-) وجـــاءت التفعـــيلة الأخـــيرة فـــي الأدوار مقبوضة ما عدا الأبيات الثالث والخـــامس والســـادس، حيـــث جاءت أدوارها تامة (ب---) أما الأقفال العشرة فقد جاءت حسب هذا الشكل.

الأبيات التي وردت فيها التفعيلة تامة:

ب- - / ب- - - / ب- - / ب- - -/ ب- - / ب- - - / ب- - / ب - -

(٣، ٤، ١٠) (١-١٠) (٢، ٣، ٥،٦، ٧، ٨) (٣، ٥، ٦) (١، ٢، ٥)

الزحافات والعلل:

ب- ب / * / ب -ب / ب -ب-/ ب -ب- / ب - - - /ب -ب / ب - -

(١،٢،٥،٦،٧،٨،٩) (١،٤،٩،١٠) (١،٢،٤،٧،٨،٩،١٠) (٦،٧،٨،٩،١٠،٣،٤)(١-١٠)(١-١٠) ١-١٠)

يمكـــن أن نســـتنتج مـــن الشـــكل السابق أن الزحافات والعلل التي حصلت في الأدوار والأفعال قد وصلت إلى ثلاث وتسعين تفعيلة.

إنّ وجـــود مثل هذا العدد، أي نصف عدد التفعيلات تقريباً، يدل على أن هناك علاقـــة بيـــن هـــذه التفعـــيلات، وحال الشاعر، فالشاعر هنا يصرخ بحبه تجاه مدينته وحبيبـــته، ولكنّ هتافه هذا جاء متوازياً ليعبر عن حاله الاتّزان الشعوري لدى الشاعر، إن هـــذا العـــدد للزحافات جاء ليخبر أنّ هناك حالة من الاضطراب والهلع، ولكنها لم تسيطر على كل أحاسيس الشاعر ولم تأخذ بحاله كثيراً.

إنّ اختيار الشاعر في الأصل لهذا البحر الذي تتناغم تفعيلاته بين (ب – – فعولن) و(ب--- مفاعلين) ما هو إلاّ انقباض وانبساط يحصل من خلال زيادة ذلك المقطع (__) للتفعيلة الأولى، فهناك حدث، هناك مدينة ما زالت تُفرح الشاعر، وتمنحه النشوة لينطلق بعدها غداً أحاسيسه تجاهها.

ولقد تضاعفت تفعيلات ابن زيدون في قصيدته التالية (مواكب الذكريات) لتصل إلى أربعمائه تفعيلة، إنّ جو العشق والحزن جو الأسى والشوق يتضاعف، ولكنّ حالة الشاعر ما زالت تحت طور التذكر والوصف، ولذا جاءت زحافاته وعلله لتشكل مائة وستاً وثمانين تفعيلة من تلك التفعيلات.

أما أدوار القصيدة فلقد تضاعفت أيضا لتصل إلى عشرين دور في كل دور ثلاثة أسماط كما في سابقتها ، ولقد جاءت التفعيلة الأخيرة في هذه الأدوار مقبوضة ما عدا الأدوار الثاني والسادس والعاشر والسابع عشر بأسماطها حيث جاءت نهاياتها تامة (ب---) وقد كان لهذه الأدوار: الثاني، والسادس، والعاشر، والسابع عشر بتفعيلاتها (ب---) التامة علاقة بعروض القفل الذي يليها حيث جاءت العروض تامة فيها ومقبوضة في سواها أما ضرب الأقفال فقد جاء بأكمله مقبوضاً.

بعد هذا العرض يمكننا القول: إنّ بنائية ابن زيدون لهاتين القصيدتين على هذا الموشح الأقرع يمكّنُ لنا أن نعيد بناءها مرة أخرى ليشكل بها مخمساً جميلاً، حيث تشكل أدوارها وأول غصن في القفل ويأتي الغصن الثاني في القفل بيتان طويلان ويأتي الغصن الثاني في القفل ليكون قفل للخمسة[1]: (الطويل)

سَقَى الغَيْثُ أَطْلاَلَ الأَحِبَّةِ بالحِمى وحَاكَ عَلَيْهاَ ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَما

وَأُطْلِعَ فِيهَا لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى

إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلاَمُ

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٢٨.

ولكـن بناءَ ابن زيدون السابق أكثر لحمة واتحاداً، لا سيما وأنّه قد منح الشاعر حريّة التعبير والوصف، ليرصد في أدواره كل ما أراد من معانٍ وليختمها في كل قفل يليها.

أمّـا قصـيدته الثالثة والتي جاءت على هذا البحر فهي (معاهد صبوات) وهنا نـرى الشاعر ينظم قصيدته على منوال القدماء حيث يبدأها بالحديث عن الطلل (الثغب الشهدي، وادي العقيق، الرصافة) ليهديه تحيته وسلامه، وهذا الموقف ولّد فيه إحساس الشوق والحنين، فهاجت بلابل حزنه ألماً، فالموقف يستدعي الغنائية الحزينة، والشاعر حزيـن علـى تلـك المعاهد، يبكيها ويتمنى أن يزورها، إنّ هذا الشوق كان لا بُدَّ أن يظهـر من خلال إيقاع القصيدة الخارجي المتمثل في هذا الوزن الشعري إلا وهو بحر الطويـل، ومن خلاله نرى أن تفعيلات الشاعر هنا قد بلغت مائة واثنتي عشرة تفعيلة، جـاء أكـثر من نصفها في حال زحاف وعلل، وهنا نرى أن التفعيلات قد عبّرت هي الأخـرى عن حال الشاعر، فلا وقت لديه حتى ينظم القصيدة على البحر التام . ولعلَّ فـي الزحاف اختصار للوقت أيضاً، فهو لا يصف ويتغنى بمدينة يعيش في أكنافها، إنّه يحاكـي مديـنة فـي الخيال، تعاوده بين الحين والآخر، فَمِن خلال هذا التصاعد في التفاعـيل غـير الـتامة نلحظ تصاعد الحزن والشوق والألم الذي يعيشه الشاعر حيث اضطربت أفكاره، وفقدت عاطفته التوازن، وهل يبقى للإنسان قلبٌ متّزنٌ بعد أن يحل غريباً عن وطنه !.

أمّـا وقد جاء الضرب في القصيدة بأكملها على علَّة الحذف (ب – –) بشكل لازم، فالشـاعر يريد أن يصرّح من خلال هذا بأن نفسه قد أنقطع، بل إنّ مشاعره قد توقفت فلم يعد قادراً على التذكر وعلى الوصف، فقد أضناه الشوق وأخذ به ما أخذ.

أمّـا عروضـه فقـد جـاءت مقبوضة في كل أبيات القصيدة، لتوحي بنغمة موسيقية متسـاوية، لا سيما إذا ما لحظنا تفعيلة الضرب أيضاً، فكأنَّ الشاعر يعزف كل القصيدة علـى وتـر واحـد تمـثله من بدايتها إلى نهايتها، إنّه وتر الشوق والحب إلى معاهد قرطبة.

رسم توضيحي لانتشار تفعيلاته في القصيدة

- التفعـيلات التامة	ب – – /	(ب – – – /	ب – – /ب– –
في صدر البيت	٧) تامة	(١٤) تامة	(٨) تامة (لا شيء)
- الزحافات والعلل	ب – ب/	*	ب – ب / ب – ب
في صدر البيت	(٧) زحافات		(٦) زحافات (١٤) علة
- التفعـيلات التامة	ب – – /	(ب – – – /	ب – – /ب – – –
في عجز البيت	٨) تامة	(١٤) تامة	(لا شيء) (لا شيء)
- الزحافات	ب – ب/	*	ب –ب / ب– –
في عجز البيت	٦) زحافات		(١٤) زحاف (١٤) علة

* عدد أبيات القصيدة (١٤) بيت = ١١٢ تفعيلة.

* عدد تفعيلات العروض والضرب = ٢٨ تفعيلة، وكلها معلّلة.

* عـدد تفعـيلات الحشـو = ٨٤ تفعـيلة، الزاحفة منها (٣٣)، والتامة (٥١) تفعيلة.

وفـي (أنّة الطريد) نرى ابن زيدون مشرداً، بعيداً عن أهله ووطنه في أجمل لحظـات اللقاء بالوطن والأهل في عيديَ الفطر والأضحى، هذا الجو الحزين الباكي، وهذا الأنين الذي يختلج أنفاس الشاعر كان لا بُدَّ له من ضرب تام يستطيع الشاعر أن يـنطلق بأنفاسه المكبوتة من خلاله ليعبّر براحة وسهولة، وليزفر قدر استطاعته عسى أن يخفف ذلك من لوعته وشوقه، فقد جاءت الأضرب تامة في هذه القصيدة في أبياتها التسعة عشر، محاولة بذلك استجماع آهات الشاعر وزفراته وأنينه، ليصفى بذلك قلبه، ويتشـوق إلـى مدينته بشيء من التوازن الشعوري، فأنينه لا ينفع في شيء، ومن هنا كـان حري به أن يلجأ إلى استخدام التفعيلات التامة أكثر، حتى يتسنى له أن يعبر عن أجمـل أمنـيات اللقاء بقرطبة ومدنها ، فلقد جاءت التفعيلات الثانية والسادسة وتفعيلة الضرب تامة:

التفعيلات التامة:

ب--/ب---/ب--/ب--- ب--/ب---/ب--/ب---

(١٤) (١٩) (٩) (١) للتصريع (٩) (١٩) (١٢) (١٩)

التفعيلات المزحفة والمعللة:

ب-ب/ ب-ب/ ب-ب- ب-ب/ * /ب-ب/ *

(٥) زحاف قبض(١٠) زحاف(١٨) علة (١٠) زحاف قبض (٧) زحاف

حيث بلغ عدد التفعيلات المزحفة والمعتلة ثلث عدد التفعيلات تقريباً (٥٠ من ١٥٢) تفعيلة، احتوت عليها القصيدة (١١٤) في الحشو و(٣٨) في الضرب والعروض (١٩، ١٩).في هذه القصيدة نرى أن الشاعر قد استخدم العروض المقبوضة ب-ب- في كل أبيات القصيدة، عدا الأول الذي جاءت فيه تامة للتصريع، لنشكل عقداً موسيقياً يزين صدر الأبيات كما يزين الضرب بموسيقاه (التامة) أعجاز الأبيات، ليشكلا بالتالي نغمة إيقاعية تواشجت مع تفعيلات القصيدة الأخرى لتعبّر عن إيقاع القصيدة المتناغم، والذي عبّر بطريقة أو بأخرى عن وزنٍ شعريٍ جميلٍ بتفعيلات بحر الطويل، التي تنشر بين أحضانه لتكون تلك الموسيقى والألحان التي تعزفها أوتار الشاعر القلبية.

ننتقل الآن إلى شاعر أحب قرطبة أيّما حب، وأهاج بعده عنها قلبه هيجاناً عنيفا جعله يصف مدينته وصفاً دقيقاً، جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً، مركزاً على أجمل المناطق غنىً بالطبيعة الجميلة الزاهية، واصفاً حال المدينة وصفاً دقيقاً في أفضل أيامها ولياليها وهي ليلة القدر، مفتخراً بتاريخها المجيد ، مصوراً حال الخلافة والحكم فيها، راسما معالم قصورها، معبراً عن حبه الخالد لها، حتى يتمنى أن يدفن فيها ليحس بطعم لذّتها بعد الممات، فحب الشاعر وتعظيمه لهذه المدينة، كما أن نظرته الدينية لها (لا سيما وأنه فقيه متنسك) حدا به إلى أن يعبر بمخمسة جميلة عن كل ما يخفيه من زخرفٍ ولؤلؤ يطرز به قرطبة، وعن كل ما يحسّ به من مشاعر وأحاسيس لتكون إكليل الحب الذي يبعث الحياة في المدينة، وعن كل ما زرعته الأيام

في نفسه حول تلك المدينة، ليكون حب الوطن الثمار التي أراد أن يقطفها الشاعر كلما أحسَّ بجوع الغربة، بل جوع الشوق والحنين لأجمل جنّة في الأندلس: قرطبة.

ومن هنا كان لا بد لابن أبي الخصال أن تتداعى لديه الأفكار والمشاعر، وأن تـنهال إلـيه حبات الشوق والأمل للقاء مدينته قرطبة بغزارة، لتحوي مخمسته الجميلة سـتة وأربعيـن دوراً في كل دور بيتين ولكل دور قفل ينتهي به. أما تفعيلات الأدوار فهي سبعمائة وست وثلاثون تفعيلة جاءت على النحو التالي:

البيت الأول في الأدوار

*ب – – (٢٦) تامة /	ب – – – / ب – – (٢١) تامة	ب – – –
ب – ب (٢٠) زحاف/	ب – ب	ب – ب–
قبض	(٢٥) زحاف قبض	ب – –
*ب – –(٢٧) /	ب – – – ب – – (٢٣)	ب – – –
ب – ب (١٩)	ب – ب (٢٣)	ب – – –

البيت الثاني في الأدوار:

*ب – – (٢٧) /	ب – – – / ب – – (٢٣)	ب – – –
ب – ب – (١٩)	ب – ب (٢٣)	ب – ب –
		ب – – –
ب – ب–(٢٧)	ب – – – ب – – (١٩)	ب – – –
ب –ب(٩)	ب–ب(٢٧)	ب–ب–
		ب––

أمّا الأقفال فهي تحتوي على ١٨٤ تفعيلة جاء توزيعها على الشكل التالي:

ب – – (٢٢)	ب – – – ب – – (١٥)	ب–ب–
ب – ب (٢٤)	ب – ب (٣١)	

إن مسـمطة كهذه تقع في تسعمائة وعشرين تفعيلة لا بد أن يسودها الترابط في الـوزن، والتركيب والبناء والدلالة، ليعبر عن حال واحد، وعن فكرة محورية أراد أن يعـبر عنها الشاعر ولهذا كان لتقارب تفعيلتي الطويل علاقة وشيجة بالمعنى المترابط المـتقارب الذي أراد أن يصوره الشاعر، ونستطيع من هذا التوزيع (السابق) أن نلمح شـاعرية ابـن أبي الخصال، وحرصه على توليد إيقاع مناسب للمسمطة تخلقه لغتها بترابط حروفها وألفاظها وتراكبها، فقد جاءت التفعيلة الثانية في كل شطر (تامة ب-- -) في كل أدوار القصيدة المتتالية، كما أنَّ التفعيلة الثانية في الأقفال قد جاءت (ب-- -) تامـة أيضاً، مثل هذا الشكل لا بُدّ له أن يصنع متواليات موسيقية تتجاوب أصداؤها لتـتَّفِقَ علـى صـوت واحـد، ونغمة واحدة تسود كل أبيات المسمطة بل إ نّ حرص الشـاعر علـى هذه الايقاعية الترنميّة كان نتيجة حالة نفسية سيطرت على الشاعر في كل أبيات مسمطية، ونستطيع أن نرسم الآن حال العروض والضرب في أدواره:

أ.	ب – ب–	(٣٥ دوراً)	ب – ب–
	ب – ب –	قبض	ب – ب –
ب.	ب – – –	(٩ أدوار)	ب – – –
	ب – – –	تام	ب – – –
ج.	ب – –	(٢ دور)	ب – –
	ب – –	حذف	ب – –

مـن هـذا الـتوزيع نرى أن مسمطة الشاعر قد استحوذت على كل مكنونات الشـاعر النفسية، ولهذا لم يرد الحذف في تفعيلتي (العروض والضرب) إلاّ في دورين أي في ثماني تفعيلات فقط، فوجود الضرب والعروض بحالة علّة كان قليلاً.

فهـناك خمسـة وثلاثـون دوراً أي سـبعون سطراً شعرياً تشتمل على سبعين عروضاً مقبوضة (ب – ب–) وسبعين ضرباً مقبوضاً (ب – ب–).

وهـــناك أيضـــاً تسعة أدوار -أي ثمانية عشر سطراً شعرياً تشتمل على ثماني عشرة عروضاً تامة، وثمانية عشر ضرباً تاماً.

نستنتج من هذا التوزيع ما يلي:

١. أنّ الشاعر قد أطال في مسمطته في وصف قرطبة ومعالمها، والحديث عن آثارها وتاريخهـــا، هذا الوصف جاءت العروض والضرب المقبوضة لتتناسب معه، حيث شكلت أعلى نسبة في المسمطة وهي حوالي ثمانون بالمئة.

٢. أمّـــا العـــروض والضـــرب التامين والذان يعطيان للشاعر تلك النفس الطويلة في الـــبكاء، والحزن، والتعبير عن الشوق، فقد جاءت بنسبة أقل إذا ما قورنت بحديث الوصـــف وهذا ما لحظناه في المسمطة، فلم يرد ذلك الحزن العميق بشكل واضح إلاّ في المقطع الأخير، حيث السلام على قرطبة، والدعاء بالدفن في أرضها، ومن هنا شكل هذا الجو خمسة عشر بالمئة من أجواء المسمطة

٣. جاءت تفعيلتا الضرب والعروض محذوفتين في دورين؛ أي أربع مرات، وهنا يـــبرز تـــأوّه الشاعر ورفضه للزمان الذي أطال عذابه فيه، إنّه يريد أن يعبّر عـــن مـــدى حبه للعوده فيستفهم قائلاً: (هل يتقاضى النازحون إياب؟) ويربط ذلـــك بعـــودة الشباب بعد المشيب، ففي كلتا الحالتين نرى الشاعر يتكلم كثيراً، فأثـــر الزمن عليه كبير، وجاء الشاعر هنا بالتفعيله محذوفة فكأنه يريد القول: إنّ هـــناك أثراً عميقاً وآثاراً أخرى للزمان لا بُدَّ أنْ يتأولها المتلقي، أما حالته الثانـــية فمشاعر الحزن واليأس من العودة التي تولدت نتيجة بعد الشاعر عن قرطبة شكلت شرخاً بل نقصاً كبيراً لدى الشاعر أخذ يتشكل من خلال التفعيله الناقصـــة (ب--) المحذوفـــة، فكأنّي به يقول، إنّني لن أقهر الزمن إلاّ بعد أن أحطـــم لحظات الفراق بيني وبين قرطبة، كما أنّه يود القول: إنّه لن يعيش كل مشـــاعر الأمـــل والحياة إن لم يعد إلى قرطبة، لهذا يتمنى أن يموت بأرضها كما سيرد في نهاية المسمطة.

إنّ هـذا التـناوب بين تفعيلات الضرب والعروض قد شكل لدى الشاعر تنوعاً إيقاعـياً فـي الموسـيقى الداخلـية للنص، فالشاعر لم يعمد إلى التنوع الموسيقي في مسـمطته مـن خـلال تناوب أوزان شعرية (بحور) متعددة، بل لجأ إلى ذلك التنوع الموسـيقي المتمثل في التناوب بين العروض والضرب في التفعيلات، وكذلك في تلك التدرجيّة في الزحافات وعدمها على هذا الشكل:

الصدر	**التفعيلة الأولى**	**التفعيلة الثانية**	**التفعيلة الثالثة**	**التفعيلة الرابعة**
	زحاف	لا زحاف	زحاف	تناوب أشكال متعددة من العروض
العجز	**التفعيلة الخامسة**	**التفعيلة السادسة**	**التفعيلة السابعة**	**التفعيلة الثامنة**
	زحاف	لا زحاف	زحاف	تناوب أشكال متعددة من الأضرب

وكـأن الشاعر قد عبّر من خلال تفعيلاته عن حالته التي يحياها، بل عن حالة اللغـة التي استخدمها، حال مفرداته وألفاظه وتراكيبه، فقد جاءت لتتناسب وهذا التقلب فـي الوزن. فالشاعر يحيا حياه تدمج هداءة العيش بهيجان الشوق، لتتشكل في عباراته ولغـته، تلكمـا الحالـتان، ولتتناوبا على نفس الشاعر ولغته بل وعلى وزن مسمطته أيضـاً، وهذا ما نلحظه إذا ما أحصينا عدد التفعيلات المزحفة والمعتلة، والتي وصلت إلـى مئتيـن وثلاثيـن زحافاً ومئة وأربع وثمانين علة، لتصبح أربعمائة وأربع عشرة تفعيلة تشكل حوالي ٤٥% من تفعيلات الشاعر.

وممـن نظم شعره القرطبي على بحر الطويل ابن حزم في مرثيته التي احتوت عشـرين بيـتاً شعرياً – يبكي كل منهما لاحقه – لينتهي المطاف في آخر أربعة أبيات بحسـم الشاعر المضني، وهمّه الأكبر، فيخاطب الدهر بأن لا يبعد، وأخيراً يندب ذلك العهد.

لقـد سيطرت ألفاظ الفاجعة والحزن، وألفاظ الألم والفقد على لغه الشاعر لتحيا مشـاعره المـوات، وليصـرخ بأعلى صوته باكياً نادباً قرطبة، إنّ مثل هذه المشاعر الصـادقه كـان لها بعدٌ ايقاعي جسده الشاعر من خلال اختياره لوزنه الشعري أولاً، ولتمـثله لتفعيلات ضربه وعروضه ثانياً، وكذلك للاضطراب التفعيلي (الزحاف) الذي حصـل فـي حشـو أبـياته، والـذي عبر من خلاله عن حالة القلق والفجائعية، بل الجنائزيه التي حلت به.

فوزن قصيدة الشاعر جاء ليرتسم بهذا الشكل:

التفعيلات التامة:

(١٥) (٢٠) (١٨) (١)

ب - -/ ب - - -/ب - -/ب - - -

(١٠) (٢٠) (١٣) (٢٠)

ب--/ ب--- / ب --/ ب ---

التفعيلات المزحفة والمعتلة:

ب-ب/ * / ب-ب/ ب-ب- ب -ب / * /ب -ب / *

(٥) زحاف (٢) زحاف (١٩) زحاف (١٠) زحاف ٧ زحاف

التفعيلات المزحفة: (٢٤) تفعيلية.

التفعيلات المعتلة: (١٩) تفعيلة.

الزحافات المعتلة والعلل: (٤٣) تفعيلة.

فالتفعـيلة الثانية في كل شطر لم يحصل عليها أي زحاف، وهذا ما لحظناه في كل الأشعار التي قيلت في قرطبة، والتي جاءت على بحر الطويل فيما دُرِسْ.

فلعلـنا نسـتطيع القول الآن: إنّ هذا التوزيع للتفعيلات في القصائد قد اتبع عند كـل مـن تحدث عن قرطبه راثيا، مفتخراً، معبراً عن حنينه مع الأخذ بالفارق البنائي (الطولي) للقصائد.

أمّـــا وقد اختار الشاعر لضربه تفعيلة تامة (ب---) في جميع أبياته، فإنّ لهذا علاقـــة وطـــيدة بالحالة النفسية الفجائعية للشاعر ولهذا فإنّ مثل هذه الحركات الطويلة المتتالـــية(---) تســـمح للشـــاعر أن ينفّس عن قلبه كل ما يعتريه من مشاعر الحزن والأسى الدفينين، لتشكل هذه المدات امتداداً لأحزان لشاعر فنراه من خلالها حقاً نادباً.

أمّـــا ابن قرطبة (ابن شهيد) فقد رثى قرطبة معتلياً عرش بحر الكامل، وتغزل بهـــا وهي عجوز (في وزن المتقارب) وتحدث عنها نادباً إيّاها وأهلها في (نية هروبه إلى مالقة) وهي مكان حديثنا الآن.

ففـــي هذه القصيدة التي تحتوي على مئة وست وثلاثين تفعيلة تمثلت في سبعة عشـــر بيتاً، نرى الشاعر كغيره، يتمثل التفعيلة الأولى والثالثة في كل سطر، ليمنحها صـــفة الاضـــطراب النفســـي الذي يختلج أنفاسه مقطعة إحدى لحظات حديث الشوق لقرطـــبة، هـــذا الصـــوت الـــذي افتقده الشاعر سيطر على تفعيلاته هذه معبّراً بذلك الـــزحاف عن حالة الانفعال التي سيطرت على أنفاسه، والتي تتوجب اختصار الزمن الذي أصبح يشكل دافع البكاء للشاعر، هذا الزمن الذي أراد أن يختصره الشاعر ليلقى قرطـــبة ويمنحها ودّه كان له أن يبرز في ذلك الإيقاع الحاصل من تلك الزحافات وهذا ما رأيناه بشكل جليّ عند ابن زيدون، وابن أبي الخصال، وابن حزم.

أمـــا التفعـــيلة الثانية في (الشطرين) فقد جاءت تامة، جاءت تفعيلات العروض والضرب كالتالي:

١٧ عروضاً: (١٧ قبضاً) ب-ب-

١٧ ضرباً : (١٧ قبضاً) ب-ب-

لـــنخلص إلى ذلك الانسجام الموسيقي الذي شكل إيقاع القصيدة والذي يتمثل في حال التفعيلات التالي:

التفعيلات التامة:

ب--/ب--/ب--/*/ ب--/ب---/ب--/*

(١٢) (١٧) (٨) (١١) (١٧) (١٠)

التفعيلات المزحفة والمعتلّة:

ب-ب/ * /ب-ب/ب-ب- ب-ب/*/ب-ب/ب-ب-

(٥) مزحفة (٩) (١٧) (٦) (٧) (١٧)

(علة، قبض) مزحفة مزحفة (علة، قبض)

إن هذا التوافق بين عروض الأبيات وأضربها جاء ليشكل الشاعر من خلاله التصريع في كل أبيات القصيدة، وإنْ كانَ هذا غير مستحسن لدى البلاغيين إلاّ أننا نحسّ من خلاله ونتصور حالة الشاعر، بل وما يسيطر على عقله وقلبه من أفكار جعلته يندب قرطبة وأهلها باكياً، ويشتُم سبب الفتنة والخراب (البربر) ساخراً منهم ومن أعمالهم، أمّا عدد التفعيلات المزحفة والمعتلّة فهو نصف عدد التفعيلات التامة إحدى وستين تفعيلة من أصل مائة وست وثلاثين تفعيلة.

لقد كان بحر الطويل من البحور التي نسج من خلالها الشعراء أجمل أثواب الحب والولاء لقرطبة، فيالطول أماليهم وأحلامهم فيها، ويالطول أيامهم الهانئة التي قضوها في أجمل رياضها، ويالطول الزمان الذي حال بينهم وبينها. إنّها فعلاً مشاعر استنطقت شعراء عظام (كابن زيدون وابن أبي الخصال وابن حزم) ليتحدثوا كثيرا عن تلك الميادين وتلك اللحظات؛ وليكون بحر الطويل الصهوة المثلى التي توصلهم إلى مدينتهم قرطبة.

وامتطى بعض الشعراء صهوة بحر الكامل لينتقلوا من خلاله إلى مشاهد البكاء والألم التي حلت بمدينتهم، وليستمطروا السماء رحمة بها، وليسقوها دموعاً غزاراً عسى أن يجددوا بذلك حلم الحياة لتلك الأرض الطهور. فجاء ابن شهيد ابن قرطبة ونظر إلى نفسه فوجدها بعيدة عن الأهل والأصدقاء والوطن ولهذا سيبكي كثيراً حتى تتفجر عيناه، إنّ هذه الحالة الأسيانة، هذه الحالة الجنائزية لابدّ لها أن تفجر في نفس الشاعر مشاعر الحزن المكبوت الذي يولّد في خلده الاضطراب، وعدم التوازن وضبط النفس أمام هذا الخطب، ولهذا كان لابدّ لكل تفعيلات بحرة أن تضطرب، فلم نجد في قصيدته تفعيلة واحدة استمرت في كل أبيات القصيدة على حال واحدة سواء أكانت تامة أم مضمرة.

*ب ب-ب- (٩) تامة	ب ب-ب- (٢٠) تامة	ب ب-ب- (٢٧) تامة
--ب- (٢١) مضمرة	--ب- (١٠)مضمرة	--ب- (٣)عله اضمار
*ب ب-ب- (١٢) تامة	ب ب-ب- (٢١) تامة	ب ب-ب- (٢١) تامة
--ب- (١٨) مضمرة	--ب- (٩) مضمرة	--ب- (٧) مضمرة

وجـاءت الزحافات لتشكل ثلث تفعيلات القصيدة. حيث بلغ عددها ثمانٍ وسنتين مـن أصـل مائة وثمانين تفعيلة. إنّ استخدام الشاعر لتفعيلة الكامل الرئيسية (متفاعلن ب ب-ب-) قـد جعلـته يكـثر مـن استخدام الوزن (متفاعلن ب ب-ب-) بصيغته (فتفعّلـن، وتفعّلـوا) واللتيـن تشكلان البؤرة التي انطلق منها الشاعر ليرثي قرطب، فصـيغة (فتفعّلـت) تدل على ذلك الأثر (الخطب) الذي حلّ بقرطبة بعد أن كانت تحيا بأمان ودعة في العيش (فالفاء تدل على تعاقب زمن جديد على قرطبة)، أمّا تفعّلت فقد جـاءت الألفاظ (تغيّرت، تدمّرت) لتدلّ على ذلك الدمار الذي قد غيّر حال قرطبة إلى حـال تستحق البكاء. أمّا الصيغة الثانية فكلمات الشاعر فيها (تفرقوا، تغيّروا، تبربروا، تغـربوا، تمصـروا، تدمـروا، تغيروا،تـنكروا) جاءت لترصد تلك الحال التي حلت بقرطـبه آنـذاك، هاتـان الصيغتان جاء تكرارهما ليشكل تفعيلة البحر الأساسية، بل محـور حديـث الشـاعر في القصيدة، فهو يتحدث عن حال قرطبة وحال أهلها راثياً إياهما.

ولعلنا نلحظ أن تفعيلة هذا البحر لا تأتي إلاّ مضمرة غالباً، ولهذا خلت القصيدة مـن أي تفعـيلة ثالـثة تخرج عن التفعيلتين (ب ب-ب-،--ب-)، فمثل هذا التناوب والـتزاوج بين التفعيلتين، كان لابدّ منه حيث يستطيع الشاعر من خلالها أن يقارن بين حالـة فجائـية، وأخـرى يـرى فيها الخير والفرح، لتتشكل تلك الثنائية القائمة على المقارنـة بيـن حـال قرطـبة سـابقاً وحالها الآن (مدينة الخير والحياة مدينة الدمار والهلاك).

أمّـــا ابن دّراج القسطلي فقد جاءت قصيدته الطويلة في ثمانين بيتاً ليتحدث في مقدمـــتها فـــي ثلاثين بيتاً- عن حال قرطبة، ثم ينتقل بعد ذلك ليتحدث مادحاً المنصور منذر بن يحيى التجيبيّ.

جـــاءت هـــذه القصيدة لتشتمل على أربعمائة وثمانين تفعيلة، مائة وثمانين منها جـــاءت في الحديث عن قرطبة، وعن شوق الشاعر لها من خلال سقياه التي عبّر من خلالهـــا عن حبّه الشديد لها. وكذلك كان له حديث جميل حول ما حلّ بقرطبة من هدم ودمار حيث صور من خلاله قرطبة بكل ما فيها.

إنّ قـــراءة إيقـــاع القصيدة الخارجي المتمثل في وزنها الكامل جاء في القصيدة على النحو التالي:

التفعيلات التامة:

ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ

(٤٣) تامة (٣٨) تامة (٦٤)تامة (٤٢) تامة (٤٤) تامة (٦٤) تامة

التفعيلات المزحفة والمعتلّة:

ـــب ـ/ ـــب ـ /ـــب ـ / ـــب ـ/ـــب ـ/ـــب ـ

(٣٧) (٤٢) (١٦) (٣٨) (٣٦) (١٦)

مضمرة مضمرة علة إضمار مضمرة مضمرة علة إضمار

حيـــث إنّ مجموع الزحافات مائة وثلاثة وخمسون زحافاً، ومجموع العلل اثنتان وثلاثـــون، فـــيكون المجموع مائة وخمس وثمانون تفعيلة، ولكن نص قرطبة المتمثل في أول ثمانية وعشرين بيتاً بالتحديد جاءت تفعيلاته على الشكل التالي:

التفعيلات التامة:

ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ/ب ب ـب ـ

(١٤) (١٠) (٢٥) (١٥) (١٨) (٢٠)

التفعيلات المزحفة والمعتلّة

--ب-/ --ب- /--ب- / --ب-/--ب-/--ب-

(١٤) (١٨) (٣) (١٣) (١٠) (٨)

إنّ قـراءة سـريعة لهـذه التفعيلات تقودنا إلى ما تخفيه من إيقاع متناغم حدا بالشاعر من خلال هذا التنويع إلى التعبير عن حالة الهذيان النفسي التي سيطرت على عاطفـته، التـي جعلته يدعو بالسقيا لقرطبة، هذه السقيا التي حملت كل معاني الوفاء والعـرفان لقرطـبة بالفضل والسبق، والتي شكلت بطريقة ما حالة الفزع التي يحياها الشـاعر، فقـد حمّل تلك السقيا ما حمّل، فلم يبقَ شئ يستطيع أن يصافح به قرطبة إلاّ وقدمـه لهـا فـي سـقياه هذه، فكان اختيار شاعرنا للبحر الكامل موفّقاً، لا سيما وأن مخـزونه اللغـوي جمٌ كثير، استجمعته تلك البيئة الجميلة لينطق به شاعرنا، وليجعله مقدمـة لحديـثه ومدحه أمام المنصور بن يحيى، لما تمتاز به تفعيلات هذا البحر من اسـتيعابها للفكـرة بأكملها. وقد سيطرت التفعيلة التامة -في الأغلب- على أعاريض الشـاعر وضـروبه، فقد جاءت خمساً وعشرين مرة في العروض، وعشرين مرة في الضـرب، وسـيطرت على أكثر تفعيلات الحشو في القصيدة. هذا في الأبيات الثماني والعشرين الأولى.

ولقـد سار ابن خفاجه في قصيدته التي قالها يراجع فيها ابن أبي الخصال على المـنهج الإيقاعي الذي سار عليه سابقوه في اختياره للبحر، فجاءت قصيدته على بحر الكـامل لكنّه اختلف عنهم في عروضه وضربه فجاء بناء التفعيلات في قصيدته على هذا النحو. التفعيلات التامة:

ب ب-ب-/ب ب-ب-/ب ب-ب-/ ب ب -ب-/ب ب-ب-/*

(١٥) (١٩) (٢٥) (١٧) (١٤)

التفعيلات المزحفة والمعتلّة

--ب-/--ب-/ب ب--(١١) تصريع مقطوع --ب-/--ب-/ب ب --(١٢) مقطوع

(٢١) (١٧) --ب- (١٠) علة إضمار (١٩) (٢٢) ---(٢٤) مقطوع مضمر (متفاعل)

حيث أن عدد أبياته (٣٦) بيتاً وتفعيلاته (٢١٦) تفعيلة.

إن استخدام الشاعر للضرب (- - -) حيث ثلاثة مقاطع طويلة متتالية يجعله يعبر عن حالة الحزن والفراق بشئ من الألم الطويل، بل بزفرة طويله تستخرج مكنونات قلبه تجاه قرطبة. ولقد عمدت تفعيلة الضرب الأخرى إلى شئ من هذا فانتهت بصوتين طويلين ليكون لكلامه مد طويل يعانق قرطبة من خلاله حيث لابد لمثل هذا الصوت من جهر وطول نفس.

بقي من قصائدنا - التي ستتناولها في هذا البحث - أربعة قصائد، جاء أحدها على الرجز، واثنتان على بحر البسيط، وهناك قصيدة ابن شهيد (حبّه لقرطبة) ذات الأبيات الستة وهي على بحر المتقارب.

ولنبدأ بقصيدتي ابن زيدون من وزن البسيط، ولنبدأ بقصيدته مجالي الزهراء والتي قالها الشاعر بعد فراره من قرطبة حيث استخفى في الزهراء، وبعثها من هناك إلى حبيبته، أمّا ألفاظ هذه القصيدة فقد جاءت رقيقة عذبة، حاولت أن تشكل بحروفها الرنانة تلك الموسيقية، وذلك الإيقاع الرقيق الذي أحبّه الشاعر.

ولقد استمد الشاعر هذه الألفاظ الرومانسية العذبة مهم البيئة الأندلسية وهي: الأفق النسيم، الروض، وجه الأرض، الأصائل، الماء، الزهر، الندى، الورد، المنابت، الصخر، النيلوفر، الصبح، اليوم)، أمّا تفعيلات الشاعر فقد جاءت في أبياته الخمسة عشر لتشكل مائة وعشرين تفعيلة، ولكن زحافاته لم تتجاوز اثنين وعشرين زحافاً و ثلاثين علة، لتشكل بالتالي ما مجموعه اثنين وخمسين زحافاً وعلة، فألفاظ الشاعر ووزنه البسيط حاولا أن يقللا من اضطراب التفعيلة لديه، لهذا جاءت ألفاظه مناسبة ومنسجمة بشكل كبير وواضح مع الوزن الشعري الذي أراد، ومع المعنى الدلالي الذي عبر عنه ذلك التركيب الجميل:

التفعيلات التامة:

--ب-/-ب-/--ب- /* --ب-/-ب-/--ب- / *

(١٢) (٨) (١٥) (٨) (١٠) (١٠)

التفعيلات المزحفة والمعتلّة:

ب-ب-/ب-ب/*/ - - (١) مقطوعة ب-ب-/ب ب - /*/ ---

(٣) (٧) ب ب- (١٤) خبن (٧) (٥) (١٥) مقطوع

إن هـذا الرسـم للتفعيلات يوحي بأن حالة الشاعر مازالت هادئة، لم يبلغ فيه الشـوق مـبلغاً كبـيراً، إنه فقط يريد أن يعبر عن أحلى أيامه التي قضاها مع حبيبته (ولادة) ومـثل هـذا المعنى لا يسيطر على تفعيلات الشاعر بشكل كبير فلم تضطرب تفعـيلاته لـتكون صورة مماثلة لحالة أسيانة يعيشها الشاعر، إنه فقط يتذكر اللحظات الجمـيلة التي كان يقضيها مع حبيبته ولادة في "الزهراء" أجمل مدن قرطبة وأعظمها، ولهـذا جاء الضرب المقطوع في قصيدته "وهو علة لازمة" ليشمل كل أبيات قصيدته حيـث حـاول الشاعر من خلاله ومن خلال تلك الحركة الطويلة التي تسبقه أن يعبّر عن لحظات البعد والفراق بين العشاق ولهذا جاءت هذه الحركات الطويلة الثلاث (-- -) لتكون حلقة الوصل التي يتصل الشاعر من خلالها بحبيبته، ولتشكل زهرة الطبيعة الأندلسية الجميلة التي يقدمها الشاعر لحبيبته.

ومـن هـنا يمكن القول: إنّ ابن زيدون (وغيره من الشعراء الذين تحدثوا عن قرطـبة) قـد ارتبط اضطراب تفعيلات وزنه الشعري بحديثه عن الفاجعة التي حلت بمدينته قرطبة، فكلّما جنح الشعراء إلى الحديث عن أنفسهم وعلاقاتهم الشخصية كانت تفعيلاته تتجه نحو التمام، أمّا عندما يهتاج شوقه للقاء مدينته الكريمة نرى أنه يريد أن يختصـر الزمن، ولهذا حاول أن ينقل تلك الحالة إلى تفعيلاته ليحدث فيها زحافاً وعلة عسـى أن يكون لاختصار ذلك الصوت اختصار لزمن البعد والفرقة عن قرطبة. ففي هـذه القصيدة مثلاً جاء الاضطراب ليشكل ما نسبته حوالي ربع تفعيلات القصيدة، فلقد فـرّ الشاعر من السجن في قرطبة فما كان له أن يتذكر قرطبة، فلم يمضِ على فراقه لهـا وقـتٌ طويل، ولكن فراقه هذا يزيد يوماً بعد يوم إلى أن تتأجج زفراته، ويهتاج شـوقاً للقـاء أهله في قرطبة، خاصة وأنه قد حلّ عليه العيد وهو خارج وطنه، ولهذا نـاجى أهله على البعد، في قصيدة جاء عنوانها (لا أهل ولا وطن) لتحمل وزن البسيط

أيضـــاً، ولكن الحالة هنا حزينة باكية، لذا كان لابُدَّ للتفعيلات أن تهيج مضطربة لتصل إلـــى حوالـــي نصف تفعيلات القصيدة فهناك ثمانٍ وثلاثين تفعيلة مضطربة من أصل ٨٠ تفعيلة.

فمـــرة جـــاءت تفعـــيلاته لتعبّر عن موقف عشقي في "مجالي الزهراء"، وهنا جـــاءت لتعـــبر عـــن موقـــف حزين باكٍ أودى بالشاعر إلى أن يستسلم للواقع، فماذا سيصـــنع؟ لابد له أن يطأطأ رأسه أمام شبح الغربة ليعبر عن ذلك الانقياد والتذلل لها فنراه قائلاً[1]: (البسيط)

بِـــمَ الـــتَّعلُّلُ؟ لاَ أهْـــلٌ!وَلاَ وَطَـــنٌ! وَلاَ نَدِيـــم ! وَلاَ كَـــأسٌ ! وَلاَ سَـــكَنُ !

ألســـت تـــرى فـــي قوله تلك الروح التي ملَّت الدنيا بأسرها، وتلك النفس التي أشـــعلت الغـــربة نيرانها. إنّ هذا المعنى الدلالي قد أجبر الشاعر على أن يختار وزن البســـيط لقصـــيدته لـــتخرج كلماته كالماء الزلال، الذي يسقي به مدينته، ولتحمل بين دفاتها معاني الحزن والوفاء التي لابد للحمام أن يزفها إلى مدينته:

التفعيلات التامة:

--ب-/-ب-/--ب-/* --ب-/-ب-/--ب- / *

(٦) (٤) (١٠) (٥) (٧)

التفعيلات الزاحفة:

ب-ب-/ب ب -/ * /ب ب - ب-ب-/ب ب- /* /*

(٤) خبن (٦) خبن (١٠) خبن (٥) (٣)خبن ب ب- خبن

ولقـــد اعتلى شاعرنا جواد الرجز في إحدى قصائده القرطبية ليشكل لنا ارجوزة جمـــيلة جـــاءت في اثنتي وأربعين شطراً حيث استخدم شاعرنا فيها مشطور الرجز، ولهـــذا علاقـــة إيحائية عمد إليها الشاعر، إنّ شطر هذا البيت ما جاء إلاّ ليحمل بين

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٦٣.

طـياته ذلك المعنى المتمثل في عنوان الأرجوزة (زفرة الشريد)، فمن شُرِّد عن وطنه لا بـد لقلـبه أن ينشـطر، ولا بُـدّ لفكره أن ينصدع، ولهذا أفلا يحق لوزنه الشعري الانشطار؟

ولقد جاءت هذه الارجوزه في مائة وست وعشرين تفعيلة وزعت على الشكل:

(٢٠) - -ب- تام (٢٤) - -ب- تام - - -(١٢) ـــ مقطوع

(١٥) ب-ب- خبن (٩) ب-ب- خبن ب- - (٣٠) مقطوع مخبون

(٧) -ب ب- طي (٩) -ب ب- طي

إن هذا المشطور يتكون من تفعيلة واحدة تتكرر ثلاث مرات:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

- -ب- - -ب- - -ب-

فمـثل هـذه التفعـيلة الوحيدة جاءت لتعبر عن أكثر من دلالة، أهمها الإيقاعية الموسيقية التي عبّرت عنها من خلال تناغمها وتشاركها لتشكيل الوزن الموسيقي الذي أعطى الأرجوزة ذلك الصوت الحزين الدافئ.

وثانـي هـذه الدلالات ما تخبئه هذه التفعيلة من التعبير عن معنى الوحدة الذي يعيشـه الشـاعر، ولوجـود مثل هذه التفعيلة وتكرارها كان لابد له أن يعبر بشكل أو بآخـر عـن الحياة المأسويّة لدى الشاعر (فهو في حالة متشردة يشعر فيها بأنه غريب عـن وطـنه)، هذا الشعور سيطر على كل لحظات حياته، ولذا لا بد لمثل هذه التفعيلة أن تشـمل كـل أبـيات (أشطار) الأرجوزة، ومن هنا نحسُّ بذكاء شاعرنا ودهائه في اختـياره للـوزن الشـعري الـذي يتناسب وحالته النفسية التي يعيشها. أمّا اضطراب تفعـيلاته فقـد حل الخبن والطيّ في التفعيلين الأولى والثانية أربعين مرة، ولقد جاءتا تامتيـن في أربع وأربعين تفعيله، أمّا نهايات الأشطر فقد كان حري بالشاعر أن تأتي تفعـيلة فيها إما مقطوعة وإما مقطوعة مخبونة حيناً آخر (ب- -) لتشمل كل أشطر الأرجـوزة، ومـن هـنا نستطيع القول: إنّ هناك عللاً وزحافات بلغت النسبة العظمى (٨٦) تفعـيلة لتشـكل أعلى نسبة زحافات وعلل في أشعار ابن زيدون التي قالها في

أنّة الطريد ٣٢,٨

من خلال الجدول السابق نستنتج ما يلي:

١- انفـردت قصـيدة زفـرة الشريد بمشطور الرجز لتتميز عن غيرها من القصائد حيـث بلغت تفعيلاته أكبر نسبه اضطراب عبرت عن حال الشاعر المضطربة في غربته.

٢- أنيـن الشـاعر الباكـي في "أنّة الطريد" (التي جاءت على البحر الطويل) حاول الشـاعر مـن خلالـه أن يعبّر عن كل ما في نفسه لتعبّر لغته وحروفه عن أنينه ولأن هـذا الأنيـن عميق في الشعور (أو اللاشعور) لم يسمح له الشاعر أن يعتلي تفعـيلاته، ومـن هـنا لم نجد هناك اضطراباً وهيجاناً خارجياً عند الشاعر، وفي التفعيلات، حيث عوّض عن ذلك من خلال الموسيقى الخارجية للنص.

٣- إنّ إعـادة ترتيـب لهذه القصائد حسب حسّ الشاعر الموسيقيّ وإيقاعه المشجون يجعلـنا نرتـبها حسب نسبة التفعيلات مع تعديل بسيط يستوجب أن يكون (أنينه) ثاني القصائد في التعبير عن الحب المتجذر لقرطبة الذي أظهرته موسيقى الشاعر الباكية:

زفره الشريد:	رجز
أنّة الطريد:	طويل
معاهد صوات:	طويل
لا أهل ولا وطن:	بسيط
ليالي قرطبة:	طويل
مجالي الزهراء:	بسيط
مواكب الذكريات:	طويل

من هنا نحسّ بتلك الشاعرية لدى شاعرنا ابن زيدون فاختياره لأوزانه الشعرية المختلفة جاء ليحكي لنا مايلي:

١. استخدم الشاعر الرجز في (زفرة الشريد) أي في أعلى لحظات الهيجان العاطفي المتمثل في الشوق لمعانقة قرطبة لما لهذا البحر من ميّزات:

أ- اسمه يعني (الضعف والمرض) لقول العرب (ناقة رجزاء) إذا ارتعشت عند قيامها لضعف فيها أو مرض[١]، وهذا الحال هو ما أصاب الشاعر عند ابتعاده عن قرطبة.

ب- كثرة اضطراب هذا البحر، الذى ينتج عنه كثرة الزحافات والعلل والجوازات[٢]، فالشاعر مضطرب النفس ولهذا جاءت تفعيلاته مضطربة أيضاً.

ج- استخدام الشعراء هذا البحر قديماً في الشعر الحماسي الارتجالي الذي ينظم على الأغلب في ساحات القتال[٣]، والشاعر هنا متحمّس للقاء قرطبة فيتخيل نفسه وكأنه في معركة، إنّها فعلاً معركة مع العدو ومع الحياة.

٢. نظم الشاعر القصائد التالية: "أنّة الطريد، ليالي قرطبة، مواكب الذكريات" على بحر الطويل، وبحر الطويل يتسع لأغراض كثيرة، ولذا جاءت قصائده الطويلة على هذا الوزن لتعبر عن معانٍ وأغراضٍ كثيرة في نفس الشاعر، وهذا ما نلحظه في قصيدة ابن أبي الخصال أيضاً.

٣. أمّا قصيدتاه: "لا أهل ولا وطن ومجالي الزهراء"، فهي أصغر القصائد وأعذبها.

وأكثرها رقة في المشاعر والمعاني، ومثل هذه المعاني الرقيقة والعاطفة السهلة المناسبة سواء أكانت في التلهف للقاء المعشوقة وتذكرها، أو في رسم حالة اليأس من الأمل المنشود (حيث تخبو العاطفة) استوجبت من الشاعر ان ينسجها تحت وزن البسيط الأكثر رقة من الطويل .

إنّ نظرة خاطفة لكل القصائد القرطبية التي تناولناها تكشف عن وجود ٥٠% من القصائد على وزن الطويل، و ٢١,٤٢% على الوزن الكامل.

---

(١) يوسف بكار: في العروض والقافية، ص ٨٢.

(٢) صفاء خلوصي: فن التقطيع الشعري والقافية. ص ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

و١٤,٢٨% علـــى وزن البسيط، ٧,١٤ على وزن الرجز، ٧,١٤% على وزن المتقارب

فالحديـــث عن المكان وتجلياته يستوجب كلاماً طويلاً ومعانٍ وأغراضاً كثيرة لا يســـتطيع أي وزن شـــعري أن يحملها بقدر ما يحملها وزن الطويل، وفي نهاية حديثنا عـــن هـــذه الأوزان الشـــعرية نجد ابن شُهيد ينظم لنا مقطوعة شعرية جميلة في ستة أبـــيات ارتـــأى لهـــا أن تتمثل وزن المتقارب، حيث جاء توزيع تفعيلاتها على النحو الآتي:

التفعيلات التامة:

ب -- / ب -- / ب -- / * ب --/ب--/ب--/*

(٤) (٣) (٦) (٣) (٤) (٦)

التفعيلات المزحفة والمعتلّة:

ب - ب / ب - ب /* ب-/ ب-ب/ ب-ب/ * / ب-

(٢) (٣) (٦) حذف (٣) (٢) (٦) حذف

ونلحـــظ وجـــود غنائية جميلة من خلال تناوب التفعيلات بيت التمام والزحاف وكذلـــك مـــن خلال تشابه الضرب والعروض في التفعيلة المحذوفة، (ب-) ومن هنا صـــنع الشـــاعر إيقـــاع القصيدة الباهر الذي يتناسب وحالته أبّان غرامه لتلك الحزينة العجوز التي رسم لها صورة غانية فاتنة.

بلـــغ عـــدد التفعيلات المزحوفة والمعتلة اثنين وعشرين تفعيلة من أصل ثمان وأربعيـــن تفعـــيلة أي مـــا نســـبته (٤٦%) تقريباً من نسبة الزحافات وهذا يشي بحالة هائجـــة في نفس الشاعر اختبأت وراء تلك الموسيقى، وذلك الإيقاع الرقيق العذب في القصيدة.

ذهب الخليل بن أحمد إلى أن القافية هي الحرفان الساكنان اللذان في آخر البيت مع ما بينها من الحروف المتحركة ومع الحرف المتحرك الذي قبل الساكن الأول[1]، وقد قسم الباحثون القافية إلى نوعين قافية مطلقة وقافية مقيّدة، أمّا الأشعار التي قيلت في قرطبة فقد جاءت على النوع الأول، وهذا شيء لابُدّ أن يتم في مثل هذا النوع من الشعر، فالشعراء يريدون أن يصرخوا بأعلى صوتهم ليندبوا قرطبة تارة، وتارة يتذكرون جمالها وحياتها، وتارة يعبرون عن الحب المتجذر في قلوبهم، وهذا لا يتطلب قافية قيِد حرف الروي عن انطلاق الصوت فيه، فالشاعر لا بدّ أن يعبر عن تلك الأمور من خلال إطلاق صوت القافية لتكون علامة دالة على ذلك النفس المحمّل بالشجن والأسى. ولذا جاءت قصائدها مطلقة لا مقيدة.

أمّا القافية عند ابن زيدون ففي قصائده السبعة نجدها كالتالي:

ففي (ليالي قرطبة) جاء الشاعر بمخمسة جميلة ذات إيقاعات مختلفة، عبرت عنها القافية من خلال ذلك التنوع في القوافي الذي شكل إيقاع القصيدة الخارجي، الذي عبر عن موسيقية القصيدة التي تبعثها مفرداتها والتي هي بالتالي صورة لمشاعر ابن زيدون النفسية، فقد جاءت القوافي في مخمسة بشكل جميل جداً نستطيع أن نجعل من تلك المخمسة شكلاً آخر كما هو في المسمطات.

حيث تأتي الاسماط في ـــــ أ
الدور الأول على قافية هي ـــــ أ
نفسها في الغصن الأول في ـــــ أ
القفل ولكن القافية الخامسة ـــــ ب ـــــ ع
ـــــ ب
ـــــ ب
ـــــ ب ـــــ ع

(1) نايف معروف وعمر الأسعد: علم العروض التطبيقي، ص ١٨١.

هي التي تختلف ومن هنا يمكن كتابة القصيدة بالشكل التالي

ولقـد جـاءت كل قوافية مطلقة حيث ـــــ أ ـــــ أ

ـــــ أ ـــــ أ

ـــــ ع

حملـــت حـــرف روي مـــتحرك ـــــ ب ـــــ ب

ـــــ ب ـــــ ب

ـــــ ع

وعلـى هـذا المـنوال سار الشاعر في قصيدته التالية (مواكب الذكريات)، أمّا قصـائده الأخـرى، فقد بنيت على أساس بحور الخليل الشعرية، ففي قصيدته (مجالي الزهراء)، حيث يقول مطلعها[1]: (البسيط)

إنـي ذَكَـرْتُكِ "بالزَّهْـرَاءِ" مُشْـتَاقاً والأُفُـقُ طَلْقٌ، وَمَرْأى الأرْضِ قَدْ رَاقَا

نجـد قافية القصيدة (قافية) حيث حرف رويها (القاف) ولوقوع الحرف متحرك فـإنّ هـذا يعنـي بـأن قافيـته مطلقة، ولقد جاءت هذه القافية المطلقة مردفة بألف وموصـولة بـالمدّ، حيث سبق حرف الروي بحرف علة (الألف) مثال "قد راقا" حيث الألـف للـردف، والقـاف حرف روي، والألف التي تليها للوصل، فقافية الشاعر هنا جـاءت مطلقة مردفة بألف وموصولة بالمدّ، ومثل هذه القافية لابدّ لها أن تشكل إيقاعاً موسـيقياً متـناغماً ومتوالياً من بداية القصيدة إلى آخرها لتشكل نغمة موسيقية موحدة يقـف علـيها الشـاعر فـي نهاية كل بيت ليسترجع شوقه وحنينه فيبثه طاقة أخرى تسـتنهض بيته اللاحق وهكذا إلى آخر القصيدة، ولعلّنا نلحظ تلك الإنسيابية والتزاوجية بين القافية والفكرة التي أرادها الشاعر.

وفي معاهد صبوات والتي مطلعها[2]: (الطويل)

عَلَـى (الثَّغَـبِ الشَّـهْدِيِّ) مِنِّي تَحِيَّةٌ زَكَـتْ، وَعَلَـى (وَادِي العَقِـيقِ) سَلامُ

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٩.

(2) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

تأتـــي قافية الشاعر مطلقة مردوفة بألف وفي الردف مدّ، والشاعر بحاجةٍ ماسّة إلـــى مـــثل هذا؛ ليستطيع من خلاله أن يحاكي مكنون قلبه الحزين، وفي هذه القصيدة يـــريد أن يســـلّم على (الرصافة، والعقيق، والثغب الشهدي) وأن يدعو لقرطبة بالسقيا وفـــي (السلام والدعاء والسقيا) مدٌّ، لا بُدّ منه حيث إنّه يرافق سيكولوجية نفس الشاعر فـــي تلك المواطن رغماًعنه، ومن هنا جاءت قافيته (متحرك+ ساكن(١) ردف+روي) لتصافح قرطبة ومدنها وبسلامها وسقياها ولترفع يديها داعية لها.

وفي "زفرة الشريد" والتي مطلعها[١]: (الرجز)

يَا دَمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أنْ تَصُوبَا

جاءت قافيته مطلقة موصولة من خلال إشباع حرف الباء (الروي) بحرف المد (الألـــف)، والقافية هنا جاءت لتشكل امتداداً للجرح العميق في نفس الشاعر المتمثل في غربـــته التـــي جســـدها من خلال حرف (الرويّ الباء)، هذا الإحساس بالغربة أصبح يســـيطر على نفس الشاعر حتى أصبح يتأسى كثيراً، ويزفر وكأنه شريد هجر وطنه، ولكي يوصل للمتلقي ذلك الشعور كان لا بُدّ له أن يلجأ إلى مثل هذا النوع من القافية، إنـــنا نســـتطيع القـــول إنّ حالته النفسية هي التي استوجبت مثل هذا الحدث. كما نلحظ أيضاً أنّ حرف الروى سبق بحرف (واو أو ياء) على طول القصيدة.

أمّا قصيدته (أنّة الطريد) والتي مطلعها[٢]:

خَلِيلَـــيَّ لاَ فِطْـــرٌ يَسُـــرُّ وَلاَ أَضـــحى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسى مَشوقاً كَمَا أَضحى؟

فقـــد جـــاءت قافيتها أيضاً مطلقة موصولة، حيث أشبع الشاعر حرف (الحاء) الـــروي ليشكل ذلك المدّ المطلوب الذي خدم أنينه (لا سيما أنّ الأنين نفسه مدّ)، ولهذا شـــكلت لغـــة القصيدة موسيقى خارجية جميلة)، أمّا موسيقى القافية فقد جاءت لتشكل تلـــك الوقفة الإيقاعية التي يتوقف عندها الشاعر ليستجمع ذكرياته ويبثها ثانية، فالقافية

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

فـــي قصـــيدته نهايـــة لزفراته الممتدة وبداية لآهات وزفرات أخرى، أراد الشاعر بل أرادت هـــي أن تحكـــي قصـــة الشاعر الطريد: (أضحى) حيث الحاء حرف روي، والألـــف المقصـــورة حرف مدّ ناتج عن إشباع حركة الروي، أمّا قصيدته الأخيرة (لا أهـــل ولا وطـــن)، فقـــد جاءت قافيتها على حرف الروى (ن) إذن فهي نونية، جاءت لتحكـــي قصة الحزن واللوعة بل الشجن والألم لمن لا أهل ولا وطن له (في إحساسه الداخلي)، غريباً بعيداً عن وطنه يقول في مطلعها[1]:

هَـــلْ تَذْكُـــرُونَ غَرِيـــباً عَـــادَهُ شَجَنُ مِـــنْ ذِكْـــرِكُمْ – وَجَفَا أَجفانَهُ الوَسَنُ ؟

وهـــذه القافـــية المطلقة جاءت لتشمل كل أبيات القصيدة، ولكنَّ الشاعر لم يُتْبع رويّـــة بحـــرف مـــدّ ليشـــكل ذلـــك (الوصل) الناتج عن إشباع حركة الروي (النون المضـــمومة)، وجاءت هذه النون المضمومة مشبعة في حالة واحدة في القصيدة كانت وراء الغـــرض الدلالـــي الذي استدعى وجود واو الجماعة. ولكنَّ الضمة هنا تُمدّ ولا تكتـــب واواً. إنّ مـــثل هـــذه النونـــية ترسم في نفس المتلقي ذلك المد الذي تنشئه تلك الضـــمة، التي عبرت بحال أو أخرى عن حالة مد شجوني لدى الشاعر، حيث إحساسه في العيد وهو بعيد عن أهله.

أمّا ابن شُهيد ففي رائيته الجميلة التي مطلعها[2]:

مـــا فـــي الطُّلُـــولِ مِن الأَحِبَّةِ مُخْبِرُ فَمَـــن الَّـــذِي عـــن حالِهـــا نَسْـــتَخْبِرُ ؟

شـــكّلَ حـــرف الـــروي (الراء) تلك القافية المطلقة وذلك الإيقاع الرنَّان، الذي حـــاول مـــن خلاله الشاعر أن يدقَّ على أبواب قرطبة لتحيا بعد رقادها، ولتعمر بعد خـــرابها، ففـــي حرف الراء رنَّه ومَوسيقى عذبة تبعث الحياة لمن أغفل عنها، بل إنّها تـــدق طـــبول الفـــزع والانـــبهار لموقف غريب مدهش وهو (دمار قرطبة) فالشاعر العامـــري وقـــف أمـــام مدينـــته، فوجدها جاثيةً على عرشِها، خربةً، فقال مرثيته فيها

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٦٢.

(2) ديوان ابن شهيد الاندلسي: ص ١٠٩.

رافضـــاً ذلك السكون والموت، ولذا لا بد لقافيته أن تجهر مدويّة في عالم الخراب هذا، وقــد جاءت القافية بحرف روي مضموم تارة وتارة أخرى ممدوداً، فلقد جاءت القافية فـــي الكلمـــات (أغـــوروا، تغيّروا، تمصروا، تدمّروا، تنكّروا) حيث شكل الشاعر هذا الوصل من خلال واو الجماعة ليعبر عن حال الموت والدّمار الذي عمّ الجميع.

وفي مقطوعة ابن شهيد (حبّه لقرطبة) والتي مطلعها[1]: (المتقارب)

عجُـــوزٌ لَعَمْـــرُ الصِّـــبا فانِـــيهْ لهـــا فـــي الحشَـــا صُـــورةُ الغانِـــيهْ

جـــاءت هـــذه المقطوعة لتحمل نغماً متتالياً تشكل من خلال الصوت (انيه) في نهايـــة كـــل بيـــت لتشكل القافية التالية، فالقافية مطلقة مؤسسة وموصولة بحرف الهاء (الفانيه) فالألف حرف تأسيس، والنون حرف صحيح، والياء روي والهاء هنا للسكت، وهي منقلبة عن تاء تأنيث مربوطة، ومثل هذا النوع كره الباحثون مجيئه روياً، فالهاء هـــنا لا تصـــلح أن تكون رويّا، ولكننا نستطيع أن نعذر الشاعر فما بين أيدينا مقطوعة لا قصـــيدة، وقـــد جـــاءت قافية الشاعر في قصيدته التالية "في نية الهروب إلى مالقة" ميمية مطلقة.

أمّا شاعرنا ابن أبي الخصال فقد جاءت مسمطته والتي مطلعها[2]: (الطويل)

ســـمتْ لَهُـــم بـــالغَوْرِ والشِّمْلُ جامعُ بُـــروقٌ بـــأعلامِ العُذَيْـــبِ لَوامِـــعُ

برسم جميل للقوافي يمكن توضيحه بالشكل الآتي:

_____ أ _____ أ

_____ أ _____ أ

_____ ع

_____ ب _____ ب

_____ ب _____ ب

---

(1) ديوان ابن شهيد: ص ١٦٨.

(2) رسائل ابن أبي الخصال، ص ٥١٢.

ـــــــــــ ع

ـــــــــــ ج ـــــــــــ ج

ـــــــــــ ج ـــــــــــ ج

ـــــــــــ ع

فالأشـــطر الأربعـــة الأولى من كل مخمس جاءت على قافية واحدة غير قافية الآخـــر أمّـــا الشـــطر الخـــامس فلقد التزم بقافية واحدة شكلّ حلقة الوصل التي يربط الشـــاعر من خلالها أجزاء قصيدته دلالياً وإيقاعياً، وجاء هذا القفل عند شاعرنا ليحمل قافـــية بائية مطلقة تكررت في النص ستاً وأربعين مرة لتمنحه جرساً موسيقياً متناغماً مـــع ذلك الإيقاع الدلالي الذي يعبر عن حالة الشاعر المحبِّ لقرطبة ليكون رابطاً وثيقاً للقصيدة يشدُّ أواصرها.

أمّا ابن دّراج القسطلي فقد عبّر بقصيدته التي مطلعها[1]: (الكامل)

قُـــلْ للرَّبـــيع اِسْـــحَبْ مُـــلاءَ سَحائِبِ فاجْـــزُرْ ذُيُولَـــكَ فـــي مَجَـــرِّ ذَوائِبـــي

عـــن حال من التناوب الإيقاعي الذي عبرت عنه القافية من خلال المدّ وعدمه فـــي حرف الروي (الباء)، حيث جاءت قافيته البائية مطلقة موصولة ومؤسسة أحياناً، وأحـــياناً أخـــرى مطلقـــة مؤسســـة فقط، (لاحظ أول قافيتين): ذوائبي : الألف حرف تأســـيس والهمـــزة حرف دخيل والباء حرف روي والياء حرف وصل وساكب: حيث الألـــف حـــرف تأسيس والكاف حرف دخيل والباء حرف روي، فالشاعر يشبع حركة الـــباء أحياناً لتشكل ذلك المدّ الذي حاول أن يعبر من خلاله- كغيره من الشعراء- عن شوقه الكبير لقرطبة.

أمّـــا الياء فقد كانت نتيجة المد الحاصل لحرف الرويّ المكسور، فالكسرة تلفظ يـــاءً ولكنّها لا تكتب ياء إلاّ إذا جاء المد ليشكل ضمير متكلم، أو مخاطبة، وهنا جاءت الـــياء كضـــمير متكلم في قصيده القسطلي لتشكل ذلك الوصل (٢٤ مرة)، ولعلنا نلحظ

---

(١) ديوان ابن درّاج: ص ١٣٨.

تلـــك الموسيقى الناتجة من خلال التنوع المدى الذي يحصل -للباء المكسورة- للقافية لتشـــكل ياء صغيرة من خلال الكسر وياءً أصلية من خلال ياء المتكلم حيث تعبر هذه الموســـيقية عـــن حالة الشاعر المضطربة، ولتشكل تنوّعاً موسيقياً يصب في موسيقي القصـــيدة الخارجية، التي ترسم أحد أهم أركان القصيدة. أمّا صيغة القافية (فاعل) فقد ارتســـمها الشاعر ليؤكد أنّه سيفعل شيئاً يقدّمه لقرطبة، لابدّ أنْ يعبّر عن حبّه لها ومن هـــنا حاول أن يشكّل -في بداية مقدمة قصيدته- سقياً كريمة لتراب قرطبة، سقيا ملؤها الدمع، وطيب التحية والغمام والأسى.

إن ابـــن حـــزم الأندلســـي فقد جاءت مرثيته التي رثى فيه قرطبة رائية، جاء حـــرف الـــروي المفـــتوح مشـــبعا لـــيكون له المد (قفرا)، حيث يقول في مطلعها[1]: (الطويل)

ســـلامٌ علـــى دارٍ رَحَلْـــنا وغُودِرَت خـــلاءً مـــن الأهليـــن موحشـــةً قَفْـــرا

إنّ قافـــية الشـــاعر المطلقـــة الموصـــولة جاءت لتشكل كلّ القوافي في أبيات القصـــيدة العشـــرين، وكما عبّر ابن شهيد بمرثيته الرائية جاء ابن حزم ليرثي قرطبة بقافـــية رائـــية أخرى،فكانت هذه الرائية هي ما تناسب الرثاء،رثاء المدن، رثاء قرطبة فقـــد رأيـــنا عـــند هذين الشاعرين قوة حرف الراء وسيطرته على الكثير من الألفاظ والمفـــردات التـــي يحاكي من خلالها الشاعرين أهل المدينة المتفرقين ويخاطبا أرض المديـــنة البالية، لذا فصوت الراء المدوي ذو قرقعه تستنهض الأجداث وتحيي الموات، لـــذا لابدّ لمن يرثي تلك المدينة بخرابها وبتفرق أهلها أن يرى لها الحياة والأمل يجب أن يرســـم لها أعظم الصور وأبهاها، حتى لا يضعف أمامها -كما ضعف غيره- ومن هـــنا جـــاءت القافـــية لتمدّ الشاعر بالحياة والهدوء والسكينة التي رسمها صورة دائمة لقرطبة لم يتصور في يوم من الأيام أن يهزها أو يخربها شيء.

---

(1) رسائل ابن حزم الأندلسي: الجزء الأول، ص ٣١٢.

أمّا ابن خفاجه في قصيدته التي مطلعها[1]: (الكامل)

أمُقَـــامُ وصْـــلٍ أمْ مَقـــامُ فِـــرَاقِ فَالقُضْـــبُ بَيْـــنَ تَصَـــافُحٍ وَعِـــنَاقِ

فقـــد مال إلى استخدام القافية (القافية)، فقد جاء حرف الرويّ تالياً لحرف المدّ، ولكـــن حرف الرويّ المكسور لم يكن له الوصل، فقد جاءت القافية مطلقة مردفة، أمّا المـــدّ فهـــو ما يحصل نتيجة حركة الكسرة التي تلت حرف الروي، وقد أشاع الشاعر في هذه القصيدة كل معاني الشوق والحب لمدينته من خلال وسائل الحنين التي وردت في ثنايا القصيدة من (حمام، وغيم، ونسيم).

جماليات اللون في القصائد التي قيلت في قرطبة

حظيـــت قرطـــبة كمدينة أندلسية بألوان زاهية مبهجة أصبغتها طبيعتها الجميلة الفاتـــنة التـــي حـــباها إياها الخالق لتكون إحدى جنان الأرض، لذا رسمت أشعارها بريشـــة شـــعراء فنانيـــن استمدوا صبغتهم من تلك البيئة الغنّاء لتأتي أشعارهم صورة مثالـــية تجســـد ذلـــك الواقـــع من خلال الألوان وتمازجها، "وتعد الألوان من أغنى الـــرموز اللغويـــة التـــي توسع مدى الرؤية في الصورة الشعرية وتساعد على تشكيل أطـــرها المخـــتلفة بما تحمل من طاقات إيجابية، وقوى دلالية، وبما تحدثة من إثارات حسّية وانفعالات نفسية في المتلقي[2].

أمّـــا اللـــون في شعر ابن زيدون فقد نال حظاً كبيراً لا بأس به حيث كثر هذا الاســـتخدام فـــي أشـــعاره التـــي قالها في قرطبة في قصيدته (ليالي قرطبة ومواكب الذكـــريات) حيـــث يصـــف الشـــاعر فيهما قرطبة ورياضها فطبيعة قرطبة ومنظرها الجمـــيل لا بد أن ترسم في ذهن الشاعر ألواناً زاهية ليعبر عنها من خلال شعره تحت ملمـــح إيحائـــي جمـــيل، ففي ليالي قرطبة كثر استخدام الشاعر للألوان حيث يريد أن يرســـم لمدينته صورة مثالية، استخدم فيها كل معاني الحياة: الطهر والخصب والعشق،

([1]) ديوان ابن خفاجة: تحقيق الدكتور سيد غازي، ص ١٥٨.

([2]) يونس شنوان: اللون في شعر ابن زيدون، جامعة اليرموك، اربد ١٩٩٩، ص ٥.

ولـــم يكـــتفِ بهذا بل حاول أن يجعل لها زخرفاً جميلاً لتخرج بصورة زاهية مشرقة، أمّا ألوانه في هذه القصيدة فهي ألوان زاهية تجدها عندما تنظر إلى حديقة غنّاء جميلة يقول[1]:

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الأَغْصَانِ وُرْقُ الحَمَائِمِ
"بِقُرطُبَةَ" الغَرَّاءِ دَارِ الكَارِمِ

بـــلاَدٌ بِهـــاَ عَـــقَّ الشَّـــبَابُ تَمَـــائمى وَأنجَبَـــنى قَـــوْمٌ - هُـــنَاكَ - كِـــرَامُ

وفـــي هـــذا المقطع جاء اللون الأبيض ليصف الشاعر فيه قرطبة مكان ولادته ونشأته، ولذا رسم الشاعر من خلال هذا اللون كل معاني الصفاء والسلام للمدينة التي أحـــسّ فـــيها بالأمـــن والحياة الهانئة بين أهلها الكرام، ولهذا غنّت عصافيرها وشدت بـــأجمل ألحـــان الحـــرية، وقـــد صرّح الشاعر كذلك بلونين من ألوان حديقته الأصفر والأحمر يقول[2]:

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِندَ "العَقِيقِ" وَجِسرِهِ
قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَظَبْيٍ يُسَقِّينَا سُلاَفَةَ خَمْرِهِ

حَكَـــى جَسَدِي-فِي السُّقْمِ-رِقَّةَ خَصرِهِ لوَاحِظُـــهُ - عِـــنْدَ الـــرُّنُوِّ - سِـــهَامُ

فقد عبر من خلال لونه الأحمر عن تلك العلاقة التي تربطه بذلك المكان (عين شهدة) فالمكان ساحر يجذبه إليه باستمرار لذا نراه قائلاً: (كم مشهد)، ليعبر عن ذهابه المســـتمر لذلك المكان الجّذاب الغائب، أمّا اللون الأصفر فقد جاء ليؤكد صورة الجمال التي أرادها الشاعر،وقد مزج الشاعر بين اللون الأبيض والأسود في قصيدته قائلاً[3]:

(الطويل)

وَأكْرِمْ بِأَيَّامِ العُقَابِ السَّوَالِفِ
وَلَهوْ أثَرْنَاهُ بِتِلْكَ المَعَاطِفِ

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٣١.
(2) المصدر نفسه: ١٣١.
(3) المصدر نفسه، ص ١٣١-١٣٢.

بسُودِ أثيثِ الشعْرِ بيضِ السَّوالفِ

إذَا رَفَلُـوا فِـي وَشْيِ تِلْكَ المَطَارفِ فلَـيْسَ – عَلَـى خَلْـعِ العِذَارِ – مَلاَمُ

أمّـا هـذا المزج فقد رسم من خلاله الشاعر صورة الفاتنة التي كان يلهو معها فـي العقاب، والتي جعلته مستهتراً لا يبالي بشيء، وخاصة إذا ما تهادت أمامه في تيه وعجـب، وهـي ترتدي ثياباً جميلة من الخزّ، هذه الفتاة الفاتنة فتنت الشاعر بشعرها الأسـود، وعـنقها الأبيض، فمن خلال هذين اللونين رسم لها أبهى الصور وأجملها، وأراد أيضـاً مـن خلال كلمة (وشي) أن يوحي بجمال الثوب الذي ترتديه، واستخدم الشـاعر فـي هذه القصيدة ألفاظاً متعددة حاول من خلالها أن يزركش ويزيّن مدينته، ومن هذه الألفاظ ما نلحظه في الكلمات (حاك، وشي، منمنما) في قوله[1]: (الطويل)

سَقَى الغَيْثُ أَطْلاَلَ الأَحِبَّةِ بالحِمى

وحَاكَ عَلَيْهاَ ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَما

وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا

فَكَـمُ رَفَلَـتْ فِـيهَا الخَـرَائِدُ كَالدُّمَى إذِ الْعَـيْشُ غَـضٌّ وَالـزَّمَانُ غُـلاَمُ

هـذا بالإضـافة إلى اللون الأبيض الذي يظهر في (النجما) بشكل غير صريح كمـا أنّ الأزاهـير تحمل ألواناً شتى بل إنّها سلّة من الألوان الجميلة يريد أن يطرز الشاعر بها أطلال أحبته، يقول ابن زيدون[2]: (الطويل)

قضيبٌ – مِنَ الرَّيحَانِ – أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ

لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ

وَدِيبَاجُ خَدَّيهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ

وَأَلْفَاظُـه –فـي النُطْقِ–كَاللُّؤلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَـيُهُ – فِـي الارْتِشَـافِ – مُـدَامُ

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٢٨.

(2) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

فقضـــيب الريحان يوحي لنا بلون أخضر، والبدر يشع باللون الأبيض، والديباج يوحي بزركشة عدد من الألوان، أمّا خدا حبيبته فيوحيان بلون أحمر كرونق الخمر.

فهـــذه الألـــوان الجميلة التي أوردها في وصفه جاءت لتحمل كل معاني الحياة والنضـــارة: الأخضـــر. والعشق والهيام: الأحمر. والبراءة: والصفاء: الأبيض، وكلّها صفات وجدها الشاعر في حبيبته.

لهـــذا نجـــد الشاعر يستخدم الألوان المختلفة في هذه القصيدة، ويجعلها طواعية ريشـــته ليرســـم بها جمال حبيبته، وجمال مدينته قرطبة حتى اللون الأسود جاء ليكون كعلامـــة جمال في شعر محبوبته، واحتوت قصيدة الشاعر على ألفاظ أخرى تحمل بين طيّاتها وتلمّح إلى ألوان عدة مثل:

مساء وإصباح: الأسود والأبيض

اليل - العشي: الأسود

مشرق وضاح: الأبيض

اللؤلؤ: الأصفر: الفضي

ولقد حوى مقطع الشاعر التالي العديد من الألوان[1]: (الطويل)

وَيَوْمٍ "بِجُوفِيِّ الرُّصافَةِ" مُبْهِجٍ
مَرَرنَا برَوْضِ الأُقْحُوَانِ المُدَبَّجِ
وَقَابَلَنَا فِيهِ نسيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلاَحَ لَـــنَا بِخَـــدٍّ مُضَـــرَّجٍ تَـــرَاهُ أَمَـــامَ الـــنَّوْرِ وَهْـــوَ إِمَـــامُ

والشـــاعر هـــنا يتذكر أيامه في الرصافة ويصف يومه (بالبهجة) وهذا يشعّ لنا نـــور تلك الأيام الذي يعبر بشكل أو بآخر عن اللون الأبيض الذي يرسم صورة السلام والأمن والفرح لتلك الأيام.

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٠.

ومـــرّ الشـــاعر في ذلك اليوم على روض الأقحوان المدبَّج، وفي هذه الكلمات زخـــرفة وزيـــنة، فالروض بستان ملئ بالأزهار الملوّنة، والتي حددها الشاعر بأزهار الأقحـــوان، هذه الأزهار التي تحمل ورقاً أبيض مطرز في وسطه بدائرة صفراء تزيده جمـــالاً، وبهجـــة مـــنظر، أمّا النسيم الذي يشمه الشاعر في هذا الروض فقد صبغه بـــاللون (البنفســـجي)، وانظر أيضاً إلى ما لاح للشاعر أمام النور (الأبيض) من ورد (مضرّج) أي شديد الحمرة، ومن هنا فان الشاعر قد وظّف كل مخزونة اللوني

ليشـــكل لوحـــة أيامه في رياض قرطبة. أمّا "مواكب الذكريات" فقد برز اللون الأبيض في قوله[1]: (الطويل)

أَقُرْطُبَةَ الغَرَّاء ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبُعْدِكِ تَنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيْدَةِ مَرْجِعُ ؟
إذِ الْحُســـنُ مَرْأىً–فِيكِ–واللَّهوُ مُسْمَعُ وَإذْ كَـــنَفُ الدُّنْـــيَا – لَدَيْـــكِ – مُوَطَّـــأُ

فـــاللون الأبـــيض هو الصفة التي أرادها الشاعر لقرطبة (فلا بدّ أن تكون عنده غرّاء) بكل ما يحمله من معاني الطهارة والطمأنينة والوداعة والنقاء.

ولقـــد مـــال الشـــاعر إلى استخدام العديد من الألفاظ والمفردات التي قد ترتبط بـــاللون الأبـــيض لـــتكون صفة لكل ما تحتويه مدينته، أو قد يأتي الشاعر بألفاظ تلمح بـــاللون الأبيض، فقد ارتبط بهذا اللون كلمة (نهارك) في قوله (نهارك وضّاح) خاصة بعـــد أن أخـــبر عـــنه الشـــاعر بأنه وضاح ليظهر اللون الأبيض بكل نصاعه، وعمد الشـــاعر إلـــى الاهـــتمام بهذا اللون لنراه يأتي مكرراً أكثر من مرة خاصة في لفظتي (الشـــمس والكواكـــب) حيـــث أراد أن يهـــب مدينـــته الدفء (الشمس) والأمن (نور الكواكب) فهي مصدر إحساسه بالحياة. وعبّر عن هذا اللون أيضاً من خلال قوله:

وَمَا زَالَ لمْعُ الْبَرْقِ – لَمَّا تَأَلَّقَا

---

(1) ديوان ابن شهيد، ص ١٣٣.

فلقــد مزج الشاعر الكلمات (لمع، برق، تألق) لتشكل اللون الأبيض الذي أراده لحبيبته قرطبة.

ولكــن بعــد أن أشاع هذا اللون (الأبيض) الأمل في الحياة سيأتي اللون الأسود ليشــكل نيران الذكريات في نفس الشاعر لتهتاج مشاعره وليقلب ليله إلى نهار ونهاره لــيل فــبعد أن كان نهاره وضاح في (لياليه بقرطبة) أصبح الآن محطّ اليأس والتذكر وخداع النفس[1]، ولهذا يتمنى ان تعود ليالي قرطبة الحميدة.

يقــول: هــل لياليك الحميدة مرجع ورسم لنا ابن زيدون حاله وهو في السجن من خلال ألوانه الأبيض والأسود[2]:

وَلاَ يُعْطِ الأَعْدَاءَ كَوْنِيَ فِي السِّجْنِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَمْسَ تُحْضَنُ بالدَّجْنِ
وَمَا كُنْتُ إلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْن
أَو اللَّيثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ أوِ الْعِلْــقَ يُخْفَــى فِــي الصِّوَانِ وَيُخْبَأُ

فابــن زيدون لا يريد لأعدائه أن يفرحوا لأنهم أدخلوه في السجن، فهو يرى فيه الحــياة والقوة التي يراها في الشمس على الرغم من احتضان الغيوم لها، فابن قرطبة (ابــن زيــدون) ما زال يتمسك باللون الأبيض (الشمس) الذي سيظل يسطع رغماً عن تلــك الســوداوية (الدجن ،الغيم)، التي أخذت تحوطه ولهذا ستظل قرطبة طاهرة رغم الدنــس الــذي سبّبه الأعداء، وسيبقى الأمل في نفوس أبنائها رغم اليأس القسري الذي ســبّبه الأعــداء (البربر) في نفوسهم، ولهذا فالزيدوني (كغيره من أبناء قرطبة) سيفٌ أبــيض ناصــع لا بد أنّ يخرج من جفنه الأسود، لينتشر النور في قرطبة وليكون لها الخصــب (غاب) ويحقق مجدها الشجعان (ليث) الذين يحلّقون كالصقور، وليكون لها الأمــن والطمانيــنة كي تخرج نساؤها مزدانة بالذهب الذي خبئ زمناً طويلاً، لذا فابن

---

(1) يونس شنوان: اللون في شعر ابمن زيدون. ص ١٧٨.

(2) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٧.

زيـــدون يشـــتاق إلـــى حبيبته بعد أن يضيق مذهبه بكل أنواع الصبابة فيقول ملوناً[1]: (الطويل)

يَضيقُ بأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ مَذْهبي
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ مِنْكُمْ مُهَذَّبِ
مَفَضَّضِ لأَلاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ
يُـــنَافِسُ مِـــنْهُ الـــبَدْرُ غُـــرَّةَ كَوْكَـــبِ دَرَى أَنَّهَـــا أَبْهَـــى سَـــنَاءً وَأَضْـــوَأُ

فـــاللون الذهبـــي المشرق المتلالئ هو لون كفها وجبهتها، وقد احتوت قصيدته علـــى ألفـــاظ ومفردات حملت بين طياتها صوراً وأشكالاً لونية، ومن هذه العبارات ما ورد في قوله[2]: (الطويل)

أَأَنْسى زَمَاناً "بِالعُقَابِ" مُغَفَّلاَ؟
وَعَيْشاً بِأَكْنَافِ "الرُّصَافَةِ" دَغْفَلاَ ؟
وَمَغْنىً – إِزَاءَ "الجَعفرِيَّةِ" أَقْبَلاَ
لَـــنِعْمَ مَـــرَادُ الأُنْـــسِ رَوْضـــاً وجَدْوَلاَ وَنِعْـــمَ مَحَـــلُّ الصَّـــبْوةِ المُتَـــبَوَّأُ

لتشـــي كلمـــة روض وجدولاً بكل ألوان الطبيعة الزاهية التي عاش الشاعر في أحضانها في (العقاب، الرصافة، الجعفرية).

---

(1) ديوان ابن زيدون، ص ١٣٧.
(2) المصدر نفسه : ص ١٣٣-١٣٤.

يقول ابن زيدون أيضاً[1]: (الطويل)

وَقَدْ ضَمَّنَا – مِنْ "عَيْنِ شُهْدَةَ" – مَشْهَدُ
بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيهِ، وَالعَوْدُ أَحْمَدُ
يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
لَــهُ مَبْسِــمٌ عَــذْبٌ، وخَــدٌّ مُــوَرَّدُ، وَكَــفٌّ – بِحِــنَّاءِ المُــدَامِ – تُقَــنَّأُ

ففــي مشهد له في (عين شهدة) حيث يدور بالخمرة عليه وعلى صحبة قناة ذو مبســم عــذب، وخدٍّ مورّد، ارتأى لها ابن زيدون صورة جميلة باختياره اللون الأحمر هذا اللون، الذي صبغ به أيضاً كف تلك القناة، وفي قوله[2]: (الطويل)

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا
أَغَضَّ – مِنَ الْوَرْدِ الجَنِيِّ – وَأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَا
وَقَدْنَــا إِلَــى اللَــذَّاتِ – جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَــهُ الأَمْــنُ رِدْءٌ، وَالغَضَــارَةُ مَــرْبَأُ

وكذلــك فــإن الشــاعر يزخــرف ويزين معاهدة تلك ليجعلها كالثوب الموشّى المطــرز، مــن خــلال لفظه (منمنما)، وكما يطرز الشاعر معاهد أنسه فإن الربيع قد كساها مطرزاً فيها أجمل لوحة[3]:

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الخَمَائِلِ
وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ البَلَائِلِ
وَغَادَى بَنُوهَا العَيْشَ حُلْوَ الشَمَائل
وَلاَ زَالَ مِــنَّا بِالضُّــحَى والأَصَــائِلِ سَــلاَمٌ – عَلَــى تِلْكَ المَيَادِينِ – يُقْرَأُ

---

(1) ديوان ابن زيدون ، ص ١٣٤.
(2) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(3) المصدر نفسه: ص ١٣٦.

فالربـــيع يزج بألوان الخضرة والعديد من الألوان الزاهية، وفي الوشي تطريز وزيـــنة لونية لتلك المعاهد، كما أن لفظتي (الضحى والأصائل) تشعان باللون الأبيض الناصع.

وبعـــد فإنّ الشاعر قد أكثر من استخدام الألوان في قصيديته السالفتين لا سيما وأنـــه قـــد أسهب في وصف أيام الجمال والبهاء في قرطبة وليشكل لها أجمل الصور الزاهـــية، ولذا سيطرت الألوان الزاهية التي تشع في مدينته روح الطهارة والطمأنينة، والتي تدب الخصب في أراضيها وتمنح جوّها الرحب بالحياة والصفاء والفرح، ولكننا بدأنـــا نشـــعر بأجواء الحزن شيئاً فشيئاً كلما ابتعد شاعرنا عن وطنه وعاش وحيداً في غياهـــب الغربة والسجن ولهذا بدأ شبح السواد ينتشر بين أشعة شمسه، وليقتل الشاعر ذلـــك الشـــبح السوداوي حاول أن يتذكر حبيبته (بالزهراء) ليبتعد في هذه القصيدة عن الأســـود وكـــل ما يحمل لون السواد، فالحب والعشق لابدّ له من نقاء وصفاء، لابدّ له من زهور وورود.

ففي كلمات هذه القصيدة مزج الشاعر الألوان التي توحي بها كلماته (الروض، مرأى، زهر نيلوفر، ماء فضي).

فكـــل مـــا توحي به هذه الكلمات من ألوان لابدّ أن يشكل ألوان الطيف السبعة، التـــي تشكل بدورانها في خيال الشاعر فكأنّها شريط ذكرى يعيد الشاعر رؤيته مراراً وتكـــراراً، ذلك اللون الأبيض الذي نلمحه أيضاً في الألفاظ (الضحى، إشراقاً الصبح)، ومـــن هـــنا فإنّ سيطرة مثل هذا اللون على هذه العلاقة إنّما يشي بصدق الشاعر في عواطفـــه وبقوة حبه العميق لحبيبته الذي لا يشوبه شيء فهو أبيض ناصع نقي. أمّا في "معاهد صبوات" فقد كان للون الأخضر حضور واضح، يقول[1]: (الطويل)

زَمَـــانَ: رِيَـــاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ تَـــرِفُ، وَأَمْـــوَاهُ السُّـــرورِ جِمَـــامُ

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٥٢.

لـيدلل علـى ذلـك النماء والخصب الذي ملأ مدينته (زمان) قبل أن تحل بها الكارثـة، أمّا اللون الأبيض فقد وصف به الشاعر وجوه من يديروا عليه وعلى صحبة الراح في أيام لهوه بمعاهد أنسه التي أصبحت الآن ذكرى، يقول[1]: (الطويل)

إذَا طَافَ بالرَّاحِ المُدِيرُ عَلَيْهِمُ أَطَـافَ بِـهِ بِـيضُ الوُجُـوهِ، كِرَامُ

فكانت وجوههم بيضاء تحمل بين ثناياها كل أسباب السعادة والسرور والراحة.

وقـد فـي قصيدته عدد من الألفاظ الموشاة بصفات لونية ومنها (ضرام) حيث جـاء هـذا اللـون الـناري ليحمل معاني الألم والحرقة واللوعة التي تولدت في نفس الشاعر جرّاء تذكّره لمعاهد صبواتها.

وفـي "زفـرة الشـريد" يتذكر الشاعر القرى والقصور التي قضى فيها أجمل لحظـات العشق مع فتاة ناعمة وناشئة في النعمة والدلال والتي خدع من أجل وصلها الرقـباء وتحيّـن الفرص للقائها تحت جنح الظلام الدامس ولهذا يلون ليلها بلون شديد السواد، يقول[2]: (الرجز)

مَصَانِعٌ تُجَاذِبُ القُلُوبَا
حَيثُ أَلِفْتُ الرَّشَأَ الرَّبِيبَا
مُخَالِفاً فِي وَصْلِهِ الرَّقِيبَا
كَمْ بَاتَ يَدْرِي لَيْلَهُ الغِرْبِيبَا

فكـيف إذن سيكون وصاله بقرطبة؟ فسوداوية ليله لا تشي إلاّ باليأس والقنوط الـذي سيطر على الشاعر منذ بداية قصيدته نتيجة بعده عن مدينته، أمّا اللون الأبيض فقد جاء لينهي ليالي اليأس والخوف التي عاشها الشاعر يقول[3]: (الرجز)

حَتَّى إذَا مَا أَعْتَنَّ لِي مُرِيبَا
شَبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا
بَادَرْتُ سَعْياً، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص١٥٢.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه: ص ١٥٦.

وفـــي (انّة الطريد) نجد اللون الأخضر والأزرق حيث يصف الشاعر لهوه في (مسناة مالك) حيث قضى فيها أوقاتاً سعيدة على نهر ساكن، كأن وجه مياهه من بلور أخضر مصقول، يتخيله الناظر إليه وكأنه مهيأ لبناء قصر عظيم، يقول[1]: (الطويل)

وَآصَـــالُ لَهْـــوٍ فـــي (مُسَـــنَّاةِ مـــالِكٍ). مُعَاطـــاَةَ نَدْمَـــانٍ إذَا شِـــئْتُ أوْ سَبْحَا

لَـــدَى رَاكِـــدٍ تَصْـــبِيكَ مِـــنْ صَـــفَحَاتِهِ قَوَارِيـــرُ خُضْـــرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا

أمّـــا اللـــون الأزرق فهو ذلك اللون الناتج من انعكاس زرقة السماء على المياه الغزيرة فيقول[2]: (الطويل)

هُـــنَاكَ الجِمَـــامُ الـــزُّرْقُ تُـــنْدَى حِفَافَهَا ظِلاَلٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا

ولقـــد لوّن الشاعر هذه المياه باللون الأزرق (السماوي) ليدلك على كثرة تدفق المياه في أرضها (الزهراء).

أمّـــا اللونـــان الأبـــيض والأســـود – تلك الثنائية التي تلّون حال الزهراء فقد اتضحت في القصيدة في قول الشاعر[3]: (الطويل)

مَقَاصِـــيرُ مُلْـــكٍ أشْـــرَقَتْ جَنَـــبَاتُها فَخِلْنَا العِشاءَ الجَوْنَ أثْنَاءَهَا صُبْحَا

فالقصـــور الملكـــية هـــذه كانت تضئ أرض الزهراء وتشع النور في سمائها ليـــتحول ليلها نهاراً (ليتحول السواد إلى بياض)، أمّا لفظة (جون) فاستخدام الشاعر لها جمـــيل، حيـــث جـــاءت لتحاكي ذلك التغيير في الليل حيث أصبح نهاراً لما تتمتع به الكلمة من ضدية تظهر في معنييها (الأبيض، الأسود).

وفـــي نهاية قصيدة الشاعر يأتي الليل بسوداويته ليشكل ليل الشاعر الأسود في (آنّـــة والبطحاء حيث الخطر والمتاعب)، وليشكل هذا الليل أيضاً نعيم الحياة (بياضها) حيث الشاعر يتأنس على شاطئ نيطة

ليلة القصير * أبيض * نعيم في (نيطة)

ليلة الطويل * أسود * متعب في (أنة والبطحاء)

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٥٩.

(2) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(3) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

أمّـــا قصيدته (لا أهل ولا وطن)، فقد جاءت كلمة (الظلماء) بسوداويتها لتصبغ ذلك الليل الذي أرّق الشاعر وهو ينظر إلى حمامة أضعفها الحزن، يقول[1]: (البسيط)

وَأَرَّقَ العَيْـــنَ – وَالظَلْمَـــاَء عَاكِفَـــةٌ– وَرَقَـــاءُ، قَـــدْ شَفَّهَا، إذ شَفَّنِي – حَزَنُ

فَبِـــتُ أَشْـــكُو وَتَشْـــكُو فَـــوْقَ أَيْكَـــتِهَا وَبَـــاتَ يَهْفُـــوُ أُرْتِـــياحاً بَيْنَنَا الغُصُنُ

وهـــنا جاء الغصن ليوحي بعلاقة الخضرة التي توحي ببعض الأمل الذي يرى الشـــاعر مـــن خلالـــه أهله، وتعود الليالي لتسيطر عليها ثانية لتجعله وحيداً بعيداً عن أحبـــته، وليشـــكل ذلك الليل بسوداويته بعداً نفسياً في نفس الشاعر، حيث بات ينشدها مما جنى الزمن، فلكل لون عند ابن زيدون إيقاع خاص، وأثراً نفسي خالص عبَّر عن حال الشاعر التي أخذت تتأجج شيئاً فشيئاً كلما أحسّ أنه بعيد عن وطنه (غريباً).

أمّـــا ابن شُهيد ففي رثاءه لقرطبة نراه يقف أمام حطام، أمام دمار وتفرقة، فلا مسكن، ولا أهل، فماذا سيصنع بهذا اللون المأتمي السوداوي، يقول[2]: (الكامل)

فـــدَع الـــزَّمانَ يصـــوغُ في عرصاتِهِم نُـــوراً تكـــادُ لـــه القُلُـــوبُ تُـــنَوِّرُ

إنـــه يمسح ذلك السواد، وليستمد النور (البياض) من القلوب، لينشره في أرجاء قرطبة ليهبها الحياة وليكون لها الخصب والنماء، يقول[3]: (الكامل)

عَهْـــدي بهـــا والشـــملُ فـــيها جـــامِعٌ مِـــنْ أَهْلِهـــا والعَـــيْشُ فـــيها أَخْضَرُ

حيث كانت مدينة النماء والتقدم والحضارة، ورياح زهرتها تلوح عليهم بروائح يفـــتر منها العنبر، وفي الزهور والعنبر ما يشي بألوان الحياة التي تبعث الأمل في تلك الجاثـــية لتـــنهض وتكبر لتصبح منزل الشاعر الذي نزلت به طير النوى والذي يقول فيه[4]:

وسُـــقِيتَ مِـــن مـــاءِ الحَـــياةِ غمامـــةٌ تحـــيا بهـــا مـــنكَ الـــرِّياضُ وتُزْهِرُ

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٦٢.

(2) ديوان ابن شهيد: ص ١٠٩.

(3) المصدر نفسه،ص١١٠.

(4) المصدر نفسه ، ص ١١٠.

ولهـذا فإن الشاعر يلّون قرطبة (منزلة) بكل ألوان الرياض والزهور عسى أن يطمس تلك المعالم السوداء، لتعود، صافية، بهية، سنية، يقول[1]: (الطويل)

نَفْسِـــي علـــى آلائِهـــا وصـــفائِها وبَهائِهـــا وسَـــنائِها تَتَحَسَّـــرُ

أمّـا ألـوان ابـن أبـي الخصـال فهي ثلاث: الأبيض، وهو الأكثر انتشاراً، والأخضـر والأحمـر، وهـذه هي قصيدته، فالأبيض يرسم به معاني الجمال والبهجة لقرطـبة ويصـور مـن خلالـه النعيم المتجدد في قرطبة ويتمنى لها الخصب والنمو والازدهـار، أمّا الأحمر فهو يعبر فيه عن العشق الالهي والجسدي لقرطبة. أمّا اللون الأبـيض فقـد جـاء لفظه في قوله: (يتحدث عن قصور بني أمية) و(أم عمرو) [2]: (الطويل)

ببيضـــاءَ للبـــيضِ البَهالـــيلِ تَعْـــتَزِي وتعـــتُز بالبانـــي جَـــلالاً وتَتْـــتَزِي

ســوى أنَّهــا بعــد الصَّــنيع الْمُطَــرَّزِ كسَــاها الــبِلى والــثُّكل اسمالَ مُعْوِزِ

فتَبْكِي وتُبْكِي الزّائرين وتندبُ

ويقول أيضاً[3]: (الطويل)

ألسْـتَ تَـرى أنّ المُقـامَ علـى شَـفا وأنّ بَـياضَ الصُّـبح لـيس بذي خَفا

وكَـم رَسْـم دَارٍ للأحـبَّةِ قـد عَفَـا وكـانَ حديـثاً للوفـودِ مُعَـرِّفا

فأصبحَ وحْشَ المُنتدى يُتَجَنَّبُ

---

(1) ديوان ابن شهيد: ص ١١١.

(2) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥١٤.

(3) المصدر نفسه: ص ٥١٨.

ويأتي اللون الأبيض ناصعاً في قوله[1]: (الطويل)

وللهِ فـــي الـــدَّارات ذاتِ المَصـــانعِ أخِـــلاَّءُ صِـــدْقٍ كالـــنُّجومِ الطَّوالِـــعِ
أُشَـــيِّعُ مِـــنهم كـــلَّ أبـــيضَ ناصِـــعٍ وأرجـــعُ حـــتّى لســـتُ يومـــاً بِراجعِ
فيالَيْتَني في فُسْحَةٍ أتأهّبُ !

وكذلـــك فإنه لا بد أن توحي (النجوم الطوالع) بشيء من البياض الذي تتصف بهـــا القصـــور والحصـــون والقرى وغيرها في قرطبة، وكذلك أصدقاء الشاعر منهم كالـــنجوم الطوالـــع يشعون نوراً وبشراً، وفي هذا دلالة على حياتهم الهانئة، ولكن لم يغفل الزمان عن هذه القصور البيضاء فعاث فيها ما أراد وشيّعها (الشاعر) واحدة تلو الأخرى.

ولقـــد ورد في قصيدة شاعرنا العديد من المفردات التي أصبغها الشاعر باللون الأبـــيض، مـــنها مـــا نستشـــفه في[2]: الفجر، بدر، كوكب، نجوم، المصابيح، مشيب، الشموس.

أمّـــا اللـــون الأحمـــر فقد شكل عند شاعرنا صورة عظيمة تحمل معاني الوفاء والاعتزاز بالوطن والتضحية من أجله، يقول[3]: (الطويل)

خُـــذوا بِدَمـــي ذاكَ الوميضَ الْمُضَرَّجا ورَوْضـــاً لقـــبضِ العاشِـــقين تأرَّجـــا
عفـــا الله عـــنهُ قـــاتلاً مـــا تحـــرَّجا تمشّى الرَّدى في نشرِه وتَدرّجا
وفي كُلِّ شَيْءٍ للمنيّة مَذْهَبُ !

ويلاحـــق اللـــون الأبـــيض عند شاعرنا اللون الأسود ليمحوه ويسود عليه[4]: (الطويل)

---

(1) رسائل ابن أبي الخصال:ص ٥١٨.

(2) المصـــدر نفسه: الفجر ص ٥١٥، ٥٢٠، ٥٢١. بدر ص ٥١٥. نجوم ص ٥١٥. المصابيح ص ٥٢١. مشيب ص ٥٢١. الشموس ص ٥١٦.

(3) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥١٢.

(4) المصدر نفسه، ص ٥١٦.

فأيــنَ الشُّــموسُ الطالعــاتُ بِهــا لَيْلا وأيــنَ الظّــباءُ السّــاحباتُ بهــا ذَيْلا
وأيــنَ الغصــون المائســاتُ بهــا مَيْلاً وأيــنَ الثَّرى رَجْلاً وأين الحَصى خَيْلا
فواعَجَباً لو أنّ من يتَعجَّبُ !

أمّا ابن دّراج يصرح لفظاً، ولكننا نجده قائلاً[1]: (الكامل)

تَشــدُو بهــا خُضْــرُ الحَمَــامِ وَحَظُّها عَــنْقَاءُ ريعَــت بالغُــرَابِ النَّاعِــبِ

فهو يصرح باللون الأخضر، وهناك إشارة واضحة إلى اللون الأسود.

وجاءت الألفاظ التالية لتعبّر كل منها عن لون ما[2]:

الربيع: ألوان عدة يسود فيها الأخضر، كواكب، الصباح، الصبح: الأبيض، دم، نار: الأحمر. الليل: السواد. جنة: ألوان عدة.

أمّا ابن حزم فقد ورد اللون الأخضر في قوله[3]: (الطويل)

ســأندب ذاك العَهَــدَ ما قامت الخَضْرا علــى الــناس سقفاً واستقلّت بنا الغَبْرا

حيــث أراد أن يندب قرطبة ما قامت السماء سقفاً فوق تلك الأرض التي يمكث علــيها (فهــو ســيبكيها حتى يوم القيامة)، والشاعر أراد أن يعبر ببكائه هذا عن حبه المتأصــل فــي قلــبه لهــا، وليهبها الخصب والخضار، رأى سماءها خضراء (فهي المســبب لذلــك) ولهــذا قام بلعبه (تراسل الألوان) هذه، ولقد جاءت الألفاظ (الشمس، الليل، والبدر) في قوله[4]: (الطويل)

فــيا ربَّ يــومٍ فــي ذراهــا ولــيلةٍ وصَــلْنا هــناك الشمسَ باللهو والبدرا

---

(1) ديوان ابن دراج القسطلي: ص ١٣٩.

(2) المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٤٠.

(3) رسائل ابن حزم الأندلسي: الجزء الأول، ص ٣١٣.

(4) المصدر نفسه.

المفارقة التصويرية في القصائد التي قيلت في قرطبة

وهـــي تكنيكا فنياً يقوم على إبراز التناقض بين طرفين أو مفهومين يتصارعان داخـــل النص الأدبي، هذا التناقض الذي قد يمتد ليشمل القصيدة برمتها فتقوم كلها على مفارقة تصويرية كبيرة[1].

وشـــكلت القصـــائد القرطبية التي بين أيدينا مفارقة تصويرية كبرى عمد إليها الشـــاعر مـــن خـــلال إتكائه على الصراع بين حالتين حال قرطبة قبل الفتنة والدمار، وحالهـــا بعـــد ذلك، كذلك حال الشاعر وهو في قرطبة، وحاله وهو غريب بعيد عنها، مـــن هـــنا شـــكّل هذان الطرفان ثنائية الحضور والغياب التي شكلت بدورها المفارقة التصويرية في قصائد برمتها من قصائدنا التي قيلت في قرطبة.

فابـــن زيـــدون في قصائده التي تدرج فيها من وصف لقرطبة إلى الحديث عن حالهـــا إبان فترة الدمار وحالها بعد ذلك بنى قصائده تحت عرش تلك المفارقة، لنجده فـــي ليالـــي قرطـــبة يتذكر أيام لهوه في قصور قرطبة، وفي (البنتي والرصافة وعين شـــهدة والعقاب والرصافة والعقيق) راسماً أجمل الصور وأبهاها، ولكن جاء من يقلب الأمـــور رأساً على عقب، لتصبح تلك الليالي ذكرى، وليصبح الشاعر غريباً عن بلده مشـــتاقاً، باعثاً بالسلام لها، مدللاً على تلك العلاقة الروحية بالوطن (عليك من الصب المشـــوق سلام) ولذا تشكلت المفارقة في قصيدته لتقسم عاطفة الشاعر وأحاسيسه إلى قســـمين قســـم يحـــدث بأيام قرطبة فرحاً، وقسم يندبها ويندب حظه من خلالها، وفي مواكـــب الذكـــريات حيـــث يتذكر الشاعر أيام صباه ولهوه في رياض قرطبة وقراها (الرُصـــافة، عيـــن شـــهدة، الجعفرية، الزهراء)، وليبك تلك المعاهد، وهنا نلمح نفس المفارقة التصويرية التي رأيناها سابقاً فالشاعر يفرق بين صورة قرطبة ورياضها قبل أن تحـــط فيها جيوش الفتنة،وصورتها بعد أن أصبحت مستسلمة أمام هذا العد،يقول[2]:

(الطويل)

مَعاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا
أَغَضَّ – مِنَ الْوَرْدِ الجَنِيِّ – وَأَنْعَمَا

---

(1) علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة. ص ١٣٧.

(2) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٦.

لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنمْنَا

وَقَدْنَــا إلَــىَ اللــذَّاتِ – جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَــهُ الأَمْــنُ رِدْءٌ، وَالغَضَــارَةُ مَــرْبَأُ

ولــذا جــاءت ثنائــية الحضــور والغــياب لترسم صورة المفارقة الكبرى في القصيدة، حيث قرطبة حاضرة في نفس الشاعر غائبة على أرض الواقع.

أمّــا حــال الشاعر فقد قامت على مفارقة عبّر من خلالها الشاعر عن علاقته بقرطبة وعن حاله إبان قوّتها، وهو حالٌ فيها حيث كان يلهو في كل رياضها الجميلة، وعــن حالــه –الآن– بعد أن أصبح غريباً تائهاً في بلاد الغربة، والسجون، واستطاع الشــاعر مــن خــلال تلــك المفارقة أن يرسم لنفسه صورة قوية ليكون بطل مدينته الأسطوري يقول[1]: (الطويل)

وَلاَ يُغْبِطِ الأَعْدَاءَ كَوْنِيَ فِي السِّجْنِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْضَنُ بِالدَّجْنِ

وَمَا كُنْتُ إلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْنِ

أَوِ اللَّيْثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ ؟ أَوِ الْعِلْــقَ يُخْفَــى فِــي الصِّــوَانِ وَيُخْبَأُ

وتبرز مفارقة الشاعر التصويرية في مقطعها الآخير حيث يقول[2]: (الطويل)

أَسِفْتُ، فَمَا أَرْتَاحُ – وَالرَّاحُ تَعْمَلُ –

وَلا أُسْعِفُ الأَوْتَارَ – وَهِيَ تَرَسَّلُ –

وَلاَ أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ – حِينَ أُعْذَلُ –

وَلاَ لِــيَ – مُــذْ فَارَقْــتُكُمُ – مُــتَعَلَّلُ سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمُ – عَلَى النَّأْيِ – يَطْرَأُ

حَمِدْتُمُ – مِنَ الأَيامِ – لِينَ خِلاَلِهَا

وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلاَلِهَا

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٣٧.

(2) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

مُؤمِّنةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلاَلِهَا

وَلا زَالَ مِـنْكُمْ لابِـسٌ مِـنْ ظِلاَلِهَـا سَـوَّغُ أَبْكَـارَ المُـنَى وَيُهَـنَّأُ

وفي "أنّة الطريد" تبرز المفارقة التصويرية في حال الشاعر حيث استبدل بغناء الجواري أصواتاً مخيفة تنبعث من الصحراء، أرّقته وقضّت مضجعه، واستبدل بالنعيم ومعاقـرة الشـراب الأخطار التي حمل بها الرمح ليقتحم، وكذلك فإنّ ليلهُ فوق شاطئ نيطة أقصر من ليله في آنّة والبطحاء يقول[1]: (الطويل)

تَعَوَّضْـتُ مِـنْ شَـدْوِ القِـيَانِ خِلاَلَهَا صَـدَى فَلوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الكَرَى ضَبْحَا

ولقـد شـكلت القصـيدة "لا أهل ولا وطن" مفارقة تصويرية واضحة عبّر من خلالهـا الشـاعر عـن حاله وهو بعيد عن أهله، بعد أن حل العيد حيث يغمره الحزن والأسى، يقول[2]: (البسيط)

إنْ كَـانَ عَـادَكُمُ عِـيدٌ، فَـرُبَّ فَـتًى بِالشَّوْقِ قَدْ عادَهُ – مِنْ ذكْرِكُمْ – حَزَن

وَأَفَـرَدَتهُ اللَّيَالِـي مِـنْ أحِبَّـتِهِ فَـبَاتَ يُنْشِـدُهَا – مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ–:

"بِـمَ الـتَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْـلٌ ! وَلاَ وَطَنٌ ! وَ لا نَدِيـم ! وَلاَ كَأْسٌ ! وَ لاَ سَكَنُ !"

أمّـا ابن شُهيد فقد بنى قصيدته "رثاء قرطبة" على مفارقة تصويرية صوّر فيها قرطـبة بعـد أن حل فيها الدمار وتفرّق أهلها، هذا المنظر الذي رآه بعثه على التذكر ليرسـم في خياله صورة قرطبة المشرقة في مقابل هذه الصورة الباكية الرمادية ومن هنا كانت المفارقة، يقول في بعض أبيات قصيدته[3]: (الكامل)

جَـرَتِ الخُطُـوبُ علـى محلِّ دِيارِهِم وعلَـيْهِمُ فَتَغَيَّـيرَتْ وتَغَـيّرُوا

دَارٌ أَقَـالَ اللهُ عَـثْرَةَ أَهْلِهَـا، فَتَـبَرْبَرُوا وتَغَـرَّبُوا وتَمَصّـرُوا

---

(1) ديوان ابن زيدون: ص ١٦١.

(2) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(3) ديوان ابن شهيد: ص ١٠٩-١١٠.

والــدارُ قــد ضَــربَ الكَمــالُ رِواقَهُ فــيها وبــاعُ الــنقص فــيها يَقْصُــرُ

ومن هنا فإن ثنائية الهلاك والخراب -البناء والحضارة، في القصيدة قد رسمت تلك المفارقة يقول أيضاً[1]: (الكامل)

يــا جَــنَّةً عَصــفَتْ بهــا وبأَهْلِهــا رِيــحُ الــنَّوى فــتَدَمَّرتْ وتَدَمَّــرُوا

ورســم ابن شُهيد لمدينته صوراً جميلة زاهية لاسيما (قصر بني أمية والزاهرية والجــامع الأعلــى والأسواق) لتشكل بالتالي منزله وجنّته التي لم تدم على حالها حيث دمــرها الــبرابرة وفــرقوا أهلها، ومن هنا يقف الشاعر على أطلالها باكياً راثياً إياها بــروح مليئة بالندم، وروح فيّاضة بالوطنية ليسطّر من خلالها تلك المفارقة التصويرية التي ارتآها، وتظهر تلك المفارقة في أبياته الأخيرة حيث يتحسر على أيام قرطبة التي كانــت تهبهم الكرامة والأمن حيث يحكمها أمير واحد، الكل له ولأمره وبمفارقته هذه الأيــام بأيامه التي يحياها الآن (بعد الدمار) يرسم صورة قرطبة الزاهية التي أراد لها الخلــود علــى مــرّ الأزمــان وفي مقطوعته (حبّه لقرطبة) يرسم صورة جميلة لتلك العجوز قائلاً[2]: (المتقارب)

عجُــوزٌ لَعَمْــرُ الصِّــبا فانِــيهْ لهــا فــي الحشَــا صُــورةُ الغانِــيهْ

ليشــكل من خلال هذه الكلمات مفارقة تصويرية كبرى يخلص من خلالها إلى وضــع قرطبة تحت حالين حال الدمار الذي يوحي بعجزها، وحالها السابق الذي رسم في صدر الشاعر ليدل على شبابها.

ممّــا تقدم نلحظ أن هذا الأسلوب لم يشكل في القصائد التي قيلت في قرطبة إلاّ مكاناً يعتليه الشاعر ليخاطب من خلاله قرطبة على هذا النمط:

---

(1) ديوان ابن شهيد : ص ١١٠.

(2) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

حال قرطبة	قبل الفتنة والدمار	أيام الفتنة وما بعدها
حال الشاعر	صورة مشرقة (الأمن والسلام) في لهو وأنس	صورة سوداوية (الفتنة والدمار) وحيد، غريب، حزين، باكٍ

وهذا ما نستشفه من قول ابن دَرّاج حين يخاطب الربيع قائلاً[1]: (الكامل)

واجْنَحْ لِقُرْطُبَةٍ فعَانِقْ تُرْبَها ... عَنِّي بِمِثْلِ جوانحي وتَرَائِبي

حيثُ اسْتَكَانتْ للعَفَاءِ منازِلي ... وهَوَتْ بأفلاذِ الفؤادِ نَجَائِبي

أمّا ابن أبي الخصال فهو يصف معظم آثار قرطبة وأماكنها الجميلة مصوراً إياها بصور جميلة فاتنة، ويتحدث أيضاً عن الأماكن التي قضى فيها أجمل أيام حياته في الزهراء، والقصور الأموية، تلك القصور التي يصفها كثيراً ويصور حالها، ليشكل بعد هذا الوصف مفارقة تصويرية بينها وبين الطرف الآخر الذي رسمه الزمان في ذهنه والذي حدا به إلى القول[2]: (الطويل)

فأينَ الشُّموسُ الطالعاتُ بِها لَيْلا ... وأينَ الظِّباءُ السّاحباتُ بها ذَيْلا

وأينَ الغصون المائساتُ بها مَيْلا ... وأينَ الثَّرى رَجْلاً وأين الحَصى خَيْلا

فواعَجَباً لو أنّ من يتَعجَّبُ !

فطرفا المفارقة هما: الأول صورة قرطبة الماثلة أمام الشاعر، والطرف الثاني: صورتها التي سُجّلت في شريط ذكريات الشاعر.

أما ابن حزم ففي رثائه لقرطبة نجده باكياً على حالها بعد أن كانت شامخة عظيمة، يقول[3]: (الطويل)

كأنَّك لم يسكنْك غيدٌ أو انسٌ ... وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزَّهْرا

---

(1) ديوان ابن دراج القسطلي: ص ١٣٨.

(2) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥١٦.

(3) رسائل ابن حزم الأندلسي: الجزء الأول، ص ٣١٣.

تفـــانَوا وبـــادُوا واســـتمرَّت نواهُـــمُ لمـــثلهِم أســـكبت مقْلَتـــيَ العـــبرى

فطـــرف المفارقـــة الأول يتمثل في صورة قرطبة قبل الدمار حيث كانت ملاذ بالغـــيد الأوانس والرجال الصيد، وحالتها بعد الفتنة والدمار حيث أقفرت المدينة، وباد أهلها، يشكل طرف المفارقة الآخر.

الخاتمـــــــة:

إن علاقةَ الإنسان بالمكان حقيقةٌ بالغةٌ في القدم ووجودُه مرتبطٌ بالمكان، وعلى قدر إحساسه بأنه مرتَبط بالمكَانِ يكون إحساسَه بذاتِه، فالإحساس بالمكان إحساسٌ له أصـــالته وعمقـــه في الوجدان البشري، لأن المكانَ يعبَّرُ عن هوية تاريخية ووطنية ونفسية، ولذا كان لقرطبةَ كلُّ التقديرِ والإجلالِ عند العديدِ من الشعراءِ فهي مدينتُهم الأمُ، وموطنُهم الأصيل.

ومـــن هـــنا كـــان لا بـــد للأطـــروحةِ أن تقدِّم في التمهيدِ تعريفاً للمكان لغةً واصـــطلاحاً، وتصـــوّراً عامـــاً للعلاقةِ بين المكانِ والإنسانِ، وبين المكانِ والنصِ الأدبـــيِّ، لمـــا للمكانـــية من اتصال بجوهر العمل الفني، وبمكنون الشاعر الداخلي، وكذلـــك صوَّرَ التمهيد العلاقةَ التكاملية بين المكان والزمان، ومدى ارتباطِهما داخل الـــنص الأدبـــي وبعـــد. فـــإن القرنَ الخامسَ الهجريَّ من أكثرِ عصورِ الحضارة الإســـلاميةِ فـــي الأندلس تقدماً وازدهاراً في مجال العلومِ والآدابِ، أما قرطبةُ فهي قـــاعدةُ الأندلـــس، وأمُّ مدائنها، لما تحتويه من مدنٍ وقرى، لا سيما مدينتا الزهراء والزاهـــرة وقـــد كانـــت بداية هذا القرنِ من أقسى الفتراتِ التي عاشتها قرطبةُ لما تعرضت له من الفتن والاضطرابات؛ لذا اهتم المؤرخون والكتاب بالتطورِ التاريخي الذي شَهَدَتهُ قرطبةُ، فكانتَ كتاباتهُم سجلا تاريخياً، رصد كل مجريات الأحداث التي حصـــلت علـــى ساحاتها، وسجلا جغرافياً رسَم كلَّ ما يتعلق بقرطبةَ من مدنٍ وقرى وحصـــون وقـــلاع ومتنزهات ومساجدَ ومِنىً وأبوابٍ وغيرها...الخ، وقد شغل هذا الوصفُ الفَصلَ الأولَ من الرسالة.

أمـــا الفصـــلُ الثاني فقد تناول ذلك الكمَّ الشعريَّ الذي نُظِّم في قِرطبةَ محاولاً الفصل بين الأشعار حسب الغرض الذي ارتآه الشاعرُ، فمنهم من هدف إلى تصوير معـــالم قرطبةَ وأهلِها، وقد هدف بعضهُم إلى التغزلِ بها، ومنهم من رثاها باكياً نادباً على ما حلّ بها، ومنهم من اشتاقَ إليها بعد غربتهِ ونأيهِ فنظم شعره في الحنين إليها معبِّراً عن صادقِ أحاسيسهِ النبيلةِ تجاهَها.

وقــبل الخوض في هذه الأغراض الشعريةِ حاولت الأطروحةُ أن ترصَد تلك المقدماتِ التي سار عليها الشعراءُ في أشعارِهم التي نظموها في تلك المدينةِ "قرطبة" وقد تمثلت في أنماطٍ ثلاثة:

أ- **المقدمــة الغزلــية:** حيــث رسم الشعراءُ لقرطبةَ صوراً متعددةً تنمّ عن حبّهم الخالصِ لها، بل هيامهُم بها.

ب- **مقدمــة السقيا:** حيث دعا الشعراءُ لقرطبةَ بالغيثِ بشتى أشكالهِ، وقد تمثلت السقيا في مقدماتِهم من خلال الأمطارِ والدموع.

ج- المقدمــة الطللــية: فقد بكى بعض الشعراءِ قرطبة لا سيما ما كان من أبنائِها كابــن شــهيد وابــن زيــدون، ووقفوا على أطلالِها الدارسةِ بعد أن دُمِّرت وخربت وأطلقوا زفراتِهم الثكلى.

ثم عمدت الأطروحةُ إلى تبويب الأشعار التي قيلت في قرطبةَ حسب أغراضِها، وإلى دراسةِ هذه الأشعارِ وتحليلِها على ضوء المنهجِ الاستقرائيِّ الوصفيِّ، ولذا قسِّمت الأشعارُ إلى ما قيل في:

تصويرِ معالمِ قرطبة.

وصفِ قرطبة.

التغزلِ بقرطبة.

رثاءِ قرطبة.

الحنين إلى قرطبةَ، وقد شكل معظمُ الأشعارِ التي قيلت في قرطبةَ.

وعند دراسةِ هذه الأشعارِ تبيّن أن بعضها قد شكل مادةً جغرافيةً صوّرت مدنَ قرطبة وقراها ومتنزهاتِها، وأن بعضها قد وصفَ قرطبةَ بصور زاهيةٍ خلدت في نفوسِهم ثمرة الحب، لهذه المدينةِ الرائعةِ التي فاقت بعلمِها سائر المدنِ والتي شكل جامعُها منارة الدين الإسلاميِّ في تلك البقاعِ، فحقَّ لهم أن يتفاخروا بها.

أمــا غزلُهم فيها، فقد كانت لدى بعضهم فتاة عذراء، وعند غيره عشيقةٌ ولهانةٌ تشــتهي الوصــال، ومنهم من خطبها رغم أنفِها، ومنهم من رأى فيها صورة الغانيةِ على الرغم من عجزِها.

ورثـــى الـــبعضُ قرطبةَ بعد دمارها، أما الحنينُ إليها فقد كان له باعٌ طويلٌ في تلـــك الأشعار، لا سيما وأن هناك العديدَ من الدوافعِ التي نزعت بالشعراءِ إلى ذلك، فتشـــوقوا إلى مرَاتعِ لهوهم، وملاعبِ هواهم بقرطبة ودعوا لها بالسقيا وعبّروا عن حـــبهم لها بشتى أشكالِ ووسائلِ الحنينِ الصادقةِ، لذا كان حنينهُم من أسمى الصور الإنفعالية التي لمسناها عند شعراءِ القرن الخامسِ الهجريِّ في قصائدهم الشوقية إلى مدينةِ العلمِ والدينِ قرطبة.

وفـــي الفصـــلِ الثالـــثِ كانت الدراسةُ الفنية؛ حيث ناقشت الأطروحةُ المستوى الإيقاعـــيَّ والبلاغـــيَّ فـــي معظمِ الأشعارِ التي قيلت في قرطبة، مع التركيز على القصـــائدِ الطويلـــة كقصـــائد ابن زيدون وموشحاتهِ وقصائدِ ابن شُهيد وابن دّراج القسطلي وقصيدة ابن خفاجة ومسمطة ابن أبي الخصال وغيرها.

ومـــن الأســـاليبِ الإيقاعيةِ التي دُرِست: أسلوبِ التكرار؛ حيث قسم إلى ثلاثةِ أقسام:

- تكرارُ الحرفِ، وهو أكثرُها انتشاراً.
- تكرارُ الكلمةِ، وقد ورد في هذه القصائد بأشكال عدة.
- تكرارُ العبارةِ، وكان ورودُه قليلاً.

وقد بينت الأطروحةُ من خلال رصد الحروف المكررة أن هذه الحروفَ تحاكي الصورةَ التي أراد أن يعبرَ عنها الشاعرُ، والحالةَ النفسيةَ التي يحياها الشاعر.

أما تكرارُ الكلمةِ فقد ورد في أشكالٍ عدةٍ منها:

تكرارُ كلمةٍ في بدايةِ الأبياتِ الشعريةِ، وهو قليلٌ جداً.

تكرارُ كلمةٍ في نهاياتِ الأبياتِ الشعريةِ، هو قليلٌ أيضاً.

تكرارُ الكلمةِ من خلال العكسِ والتبديلِ، وقد ورد في ستِ مجالاتٍ فقط.

التكرار اللفظي والاشتقاقي، وهما أكثرُ الأنواعِ شيوعاً وانتشاراً في الأشعار التي قيلت في قرطبة.

وقد قامت الأطروحةُ بدراسةِ هذه الألفاظِ، ورصدِ دلالتِها وقيمتِها الفنيةِ والبلاغية في النص، ومدى صلةِ تلك الألفاظِ بجو القصيدةِ العام، وعلاقةِ تلك الألفاظ بالحالة النفسية للشاعر كما بينت الوظيفةُ التي قامت بها تلك الألفاظ في القصيدة.

ولقد رصدت الأطروحةُ الألفاظَ المكررةَ المتجانسة والألفاظَ التي تم فيها الاستبدالُ (عند كل من ابنِ زيدون، ابنِ شهيد، ابن أبي الخصال، ابن حزم، ابن دراج، ابن خفاجة).

ومن الأساليب الأخرى أسلوبُ التوازي، وقد تنوع البناءُ الهندسيُّ المتوازي في القصائدِ؛ فمنه ما جاء في بدايةِ الأبياتِ الشعريةِ، ومنه ما جاء في نهاياتها.

ومنه ما جاء بين نهاياتِ الأشطرِ الأولى من الأبيات (صدورها)، ومن التوازي ما ورد بين البنى النحويةِ، وهناك التوازي القائمُ على أساسِ التطريزِ، والتوازي من خلال التنوينِ الذي تنتهي به بعضُ أشطر القصيدة، وقد جاء التوازي أيضاً بين الأفعالِ التي احتوتها القصيدةُ، وهناك نسقٌ بنائيٌّ آخرُ يكمن تحت منظومةِ التوازي وهو الترصيعُ.

ومن الأساليبِ الأخرى التي درستها الأطروحةُ الوزنُ والقافيةُ،حيث درست الأوزانَ الشعريةَ التي نظمت فيها الأشعارُ التي قيلت في قرطبة، وحاولت تقصي مكنوناتها من خلال حشد تفعيلات تلك البحورِ، ونسبةِ ورودِها، سالمةً أو زاحفةً ومعللةً، حيث خلصت إلى أن هناك صلةً وثيقةً بين حالَ التفعيلاتِ والمعنى الدلاليِّ للنصِ والفكرةِ العامةِ المتسلطةِ على ذهنِ الشاعر، والحالة النفسيةِ للشاعر عند نظمهِ للقصيدة.

وقد اهتمت الأطروحةُ أيضاً بالقافيةِ، وبينت دورَها في تشكيل موسيقى القصيدةِ التي قيلت في قرطبة، كما واتضح أنّ معظم هذه القوافي جاءت مطلقة لا مقيدة، وإن لتلك القوافي علاقةً ما بمعنى القصيدةِ العام وجو الشاعرِ النفسي.

ثم درست الأطروحةُ جمالياتِ اللون في الأشعار التي قيلت في قرطبة وبينت أن للون دوراً كبيراً في رسم البناء الهندسي للقصيدة، والبناءِ العاطفي الذي شكلَ علاقة الشاعر بوطنه،وللون دلالةً خاصةً في التعبير عن الحالةِ التي أراد أن يصوِّرها الشاعرُ في القصيدة .

فهناك علاقةٌ حميمةٌ بين اللونِ والشاعرِ وبين اللونِ والنصِ الأدبي، وهناك معانٍ إيحائيةٌ لتلك الألوان عبَّرَ الشعراءُ من خلالِها عن مكنونِ خواطرِهم لتلك المدينة.

وأخـــيراً درست الأطروحةُ المفارقةَ التصويريةَ كأسلوبٍ بلاغيٍّ اعتمده بعض الشـــعراء، وقد برز في أشعارهم أن هناك صراعاً قائماً بين حال قرطبة قبل الفتنة والدمـــار، وحالهـــا بعد ذلك، كذلك حال الشاعر وهو في قرطبة وحاله وهو غريبٌ بعـــيد عـــنها، فمثلُ هذه الثنائيةِ شكلت طرفي المفارقةِ التصويريةِ التي أضفت على النص تلك الجمالية الرائعة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. **ابـــن حـــيان القرطبي:** المقتبس من أبناء أهل الأندلس حققه وقدم له وعلق عليه محمود على مكي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٢. **ابـــن خفاجـــه** :ديـــوان ابـــن حفاجـــة، تحقيق د. سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩.

٣. **ابـــن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان):** وفـــيات الاعـــيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهره، ١٩٤٨،الجزء الرابع.

٤. **ابن دراج القسطلي:** ديوان ابن دّراج القسطلي: حققه وعلّق عليه وقدّم له الدكتور محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، ط٢.

٥. **ابن زيدون:** ديوان ابن زيدون: شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة.

٦. **ابـــن ســـعيد المغربـــي:** المغُـــرب في حُلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٠م.

٧. **ابـــن شرف القيرواني:** ديوان ابن شرف القيرواني: ابو عبد الله محمد بن شرف القيرواني، تحقيق الدكتور حسن، ذكرى حسن نشر مكتبة الكليات، الأزهرية.

٨. **ابـــن شـــهيد الاندلسي:** ديوان ابن شهيد الأندلسي: جمعه وحققه د. يعقوب زكي، راجعه د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

٩. **ابن عذاري المرّاكشي:** البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثاني تحقيق ج.س كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

١٠. **ابـــن منظور:** لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٨هـــ ١٩٦٨م.

١١. **الادريسي(ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي، الحسني المعروف بالشريف الادريسي):** نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب ، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٢. **أ.ليفي بروفنسال:** الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور محمود عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، وراجعه الدكتور لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية، ١٩٩٠م.

١٣. **إبراهيم أنيس:** موسيقى الشعر، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ط٧، ١٩٩٧ م.

١٤. **أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه:** مختصر كتاب البلدان، تحقيق دي غوية، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل، سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.

١٥. **أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي، الأخفش الأوسط:** كتاب القوافي، أحمد راتب النفاخ، دار العلم بيروت، ١٩٧٤م.

١٦. **.أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني:** الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجمة الدكتور احسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م.

١٧. **أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠ – ٦٨٥):** رايات المبَّرزين وغايات المميّزين، حققه وعلّق عليه الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٧م.

١٨. **أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة الاعمى التطيلي:** ديوان الأعمى التطيلي ومجموعة من موشحاته: أ (– ٥٢٥هـ)، تحقيق الدكتور احسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٣م.

١٩. **.رسائل ابن أبي الخصال الكاتب الفقيه أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي:** تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق. ط١، ١٩٨٧م.

٢٠. **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم الحميري:** صفة جزيرة الأندلس، مقتبسة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتصحيح وتعليق إليفي بروفنسال مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ١٩٣٧م.

٢١. **أبو عبيد البكري:** جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق محمد عبد الرحمن علي الحجي، دار الارشاد بيروت، ط١، سنة ١٩٦٨.

٢٢. **.أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي:** العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده. حققه وفصله وعلّق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١م.

٢٣. **أبـــو القاســـم بن حوقل النصيبي:** كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٤. **أبـــو القاســـم محمـــد بـــن عباد، المعتمد بن عباد:** الديوان المعتد بن عباد مك إشبيلية، تحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٥م.

٢٥. **أبـــو محمد الرشاطي (ت ٥٤٢هـــ/١١٤٧م) وابن الخراط الاشبيلي، (ت ٥٨١ هـــ/١١٨٦م):** الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار تقديم وتحقيق ايميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩٦م.

٢٦. **أبـــو محمـــد علـــي بـــن أحمـــد الظاهري ابن حزم الأندلسي** رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر بيروت، الجزء الأول، ط١، ١٩٨٠م.

٢٧. **أبو مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيان:** القسم الثالث من كتاب المقتبس في تأريخ رجال الأندلس، نشر الأب ملشور. م. انطونيه، بولس كتز الكتبي، بباريس ١٩٣٧.

٢٨. **أبـــو نصـــر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الأشبيلي الشهير بابن خاقان:** قلائـــد العقـــيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١ ١٤٥٩هـــ/ ١٩٨٩م.

٢٩. **أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سعد العسكري (ت ٣٩٥):** الصناعتين الكتابة والشـــعر) تحقـــيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١م.

٣٠.**إحسان عباس:** دراسات في الأدب الأندلسي، البير مطلق دار القاضي، الدار العربية للكتاب، طرابلس ١٩٨٦م.
٣١.**أحمد بن المقري التلمساني:** نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
٣٢.**أحمد فكري:** قرطبة في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٧١م.
٣٣.**أحمد مطلوب:** معجم المصطلحات، البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلي العراقي، بغداد، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٣٤.**أنخل جنثالث بالنثيا:** تاريخ الفكر الأندلسي، نقله من الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة النهظة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
٣٥.**بدوي طبانة**، معجم البلاغة العربية، دار المنارة، جدة، ط٤، ١٩٩٧م.
٣٦.**جاك س. ريسلر:** الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والنشر.
٣٧.**جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن القزويني.** التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢، ١٩٣٢.
٣٨.**جلال الدين عبد الرحمن السيوطي:** الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣٩.**حاتم الصكر واعتدال عثمان**، الشعر ومتغيرات المرحلة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ط١، ١٩٨٦.
٤٠.**حسن أحمد النوش:** التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٩م.
٤١.**حلمي ابراهيم الكيلاني:** ابن شرف القيرواني حياته وأدبه، مؤسسة البلسم، عمان ١٩٩٨م.
٤٢.**الخطيب التبريزي:** الوافي في العروض والقوافي، تحقيق عمر يحيى، فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٣.**خليل الشيخ:** باريس في الأدب العربي الحديث، دراسة نقدية في إشكالية العلاقة بين المركز والأطراف، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط١، سنة ١٩٩٨.

٤٤.**رومان ياكبسون:** أفكار وأراء حول اللسانيات والأدب، ترجمة فالح صدام، عبد الجبار محمد علي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

٤٥.**رومان ياكبسون:** قضايا الشعرية، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البضاء، ١٩٨٨م.

٤٦.**سعد اسماعيل شلبي:** البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٨م.

٤٧.**سمويل د. ليفين. البنيات اللسانية في الشعر.** ترجمة محمد الوالي وخالد التوازني، منشورات الحوار الأكاديمي دار الخطابي، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٨٩م.

٤٨.**السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني** (١٠٥٢ – ١١٢٠هـ) أنوار الربيع في انواع البديع، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٩.**سيد غازي:** ديوان الموشحات الاندلسية، منشأة المعارف في الاسكندرية، ١٩٧٩م.

٥٠.**شكري محمد عياد:** موسيقى الشعر العربي، مشروع دراسة علمية، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٨م.

٥١.**شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي:** معجم البلدان، المجلد الخامس دار صادر، دار بيروت، ط٢، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٥٢.**شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله:** معجم الأدباء دار المستشرق، بيروت، لبنان.

٥٣.**شوقي ضيف:** عصر الدول والإمارات (الأندلس) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩

٥٤.**صـــفاء خلوصي:** فن التقطيع الشعري والقافية، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ط٥، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٥٥.**ضـــياء الديـــن ابن الأثير:** المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه بدوي طبانة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة – القاهرة، ط٢، ١٩٨٣.

٥٦.**عـــباس الجـــراري:** الأمـــير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي عصره حياته وشـــعره، منشـــورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥٧.**عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني:** البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، الجـــزء الثانـــي، دار القلـــم، دمشـــق، الـــدار الشـــامية، بـــيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٥٨.**عبد العزيز الدولاتي:** مسجد قرطبة وقصر الحمراء، ١٩٧٧م.

٥٩.**عبد العزيز سالم:** قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٤م.

٦٠.**عـــبد المجـــيد الحـــرّ:** ابـــن زيدون شاعر العشق والحنين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٦١.**عدنـــان صالح مصطفى:** في الشعر الأندلسي، نشر وتوزيع دار الثقافة الدوحة، قطر، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦٢.**عدنان محمد آل طعمة:** موشحات ابن بقي الطيلطلي وخصائصها الفنية، دراسة ونـــص، وزارة الثقافة والفنون سلسلة كتب التراث (٧٤) الجمهورية العراقية ١٩٧٩م.

٦٣.**علـــي عشـــري زايد:** عن بناء القصيدة العربية الحديثة دار الفصحى، القاهرة، ١٩٧٨م.

٦٤.**العمـــاد الأصفهاني:** خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الرابع، الجزء الثاني، تحقـــيق الأســـتاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجّالة، القاهرة.

٦٥.**العمـــاد الصفهاني:** خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق آذرتاش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م.

٦٦.**غاستون باشلار:** جماليات المكان، ترجمة غالب هلسه، بيروت، ١٩٨١م.

٦٧.**غوســتاف فــون غرنباوم:** دراسات في الأدب العربي، ترجمة الدكتور إحسان عــباس، والدكــتور أنيس فريحة والدكتور محمد يوسف نجم والدكتور كمال اليازجـــي، بإشراف الدكتور محمد يوسف نجم، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، ١٩٥٩م.

٦٨.**لســان الديــن بن الخطيب:** أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال. ط بيروت، سنة ١٩٥٦م.

٦٩.**محمد عبد المطلب:** البلاغة والأسلوبية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٤م.

٧٠.**محمــد عبد المنعم الحميري:** الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م.

٧١.**مصــطفى الســعدني:** البنــيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث. منشأة المعارف – الاسكندرية، ١٩٨٧م.

٧٢.**مصطفى محمود الحلوة:** محطات الغناء في الأندلس، دراسة في شعر الغناء، د. ن عمان، اربد، مطبعة الكرمل، ١٩٩٣م.

٧٣.**موسى ربابعة:** قراءة النص الشعري الجاهلي، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٨م.

٧٤. **نــازك الملائكــة:** قضــايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين بيروت، ط٥، ١٩٧٨م.

٧٥.**نــايف معــروف، عمــر الأســعد:** علم العروض التطبيقي، دار النفائس، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧٦.**هنري بيرس:** الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيســة وقيمته التوثيقية، ترجمة دكتور الطاهر احمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٧٧.**ياســين النصير:** إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسات نقدية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.

٧٨.**يوســف أشــباخ:** تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة وتعليق محمــد عــبد الله عنان، الجزء الأول، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

٧٩.**يوسف بكار:** في العروض والقافية، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م.

٨٠.**يونس شنوان:** اللون في شعر ابن زيدون. جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٩م.

الدوريات

١. **اعـتدال عـثمان:** جماليات المكان، مجلة الأقلام،عدد٢، شباط ١٩٨٦م، السنة الحادية والعشرون.

٢. **حسين خريوش:** ظاهرة السقيا وابعادها الدلالية في القصيدة العربية مجلة جامعة البعث، عدد ٢، ١٩٩٢م.

٣. **مخـتار علـي أبـو غالـي:** المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٩٦ الكويت، ١٩٩٥م.

٤. **موسـى ربابعـة:** ظواهرمن الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، أبحاث اليرموك م٨، ع٢، ١٩٩٠م.

٥. **نبـيلة إبراهـيم:** خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، مجلد ٩، عدد ١-٢، أكتوبر ١٩٩٠م

الرسائل:

حـنان حمـودة. المكـان فـي شعر أحمد عبد المعطي حجازي، جامعة اليرموك، ١٩٩٣م.

ملحق رقم (١)

ترجمة لشعراء قرطبة الذين ذكروا في الدراسة

١- أبو بكر عبادة بن ماء السماء.

هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن ماء السماء، وينتهي نسبه إلى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وكان شاعراً وشاحاً مشهوراً، وعاش خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس، وكانت وفاته سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨م) كما يُروى عن ابن حيان وابن شهيد[١].

"ولقد لحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية ومدح رجالها" وأشاد به ابن بسام وعده من أكبر من أقاموا منآد صنعة التوشيح وقوموا ميلها وسنادها حيث اشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته"[٢].

وقيل: إنّه توفي بمالقة سنة (٤٢٢هـ)، ويذهب ابن حزم إلى أنه كان حياً سنة (٤٢١هـ)[٣].

٢- ابن دّراج القسطلي:

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دّراج، من "قسطلة دّراج" إحدى أعمال مدينة "جيّان" سمي بمتنبي الأندلس، عاش إلى الفتنة في المئة الخامسة وقد توفي في سنة (٤٢١هـ)[٤].

---

(١) ابن حيان: المقتبس من أبناء أهل الأندلس، حققه محمود علي مكي، ص ٣٤٦.

(٢) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٦٨، ٤٦٩.

(٣) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠-٦٨٥):رايات المبرزين وغايات المميزين، حققه وعلّق عليه الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٧، ص ١٣٥ (الحاشية).

(٤) ابن سعيد المغربي: المُغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٠، ص ٦٠-٦١.

قال عنه ابن بسام "كان أسوة كتاب الجزيرة وشعرائها، وبه بدئ ذكرها الجميل وختم، حلّ اسمه من الأماني محلّ الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس، وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره"[1].

ويذكر له ابن شهيد أنه مطبوع النظام، شديد أسر الكلام مالك لأحرار الألفاظ، واسع الصدر، طويل النفس عند الوصف، يحب ترديد المعاني وتكريرها والتلاعب بها أيضاً[2]، وله ديوان شعر مطبوع حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور محمود علي مكي.

٣- ابن شهيد الأندلسي:

هو أبو عامر أحمد بن عبد الله بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي القرطبي، ولد في قرطبة عام (٣٨٢هـ-٩٩٢م)[3].

وكان جواداً، عزيز النفس، فكها ملماً بالطب، من وزراء المستظهر ثم المعتمد بالله آخر خلفاء الأمويين، وهو من سلالة وزراء، وأبوه عبد الملك أول من تلقب بلقب "ذي الوزارتين" في عهد الناصر، ومن أشهر كتبه التوابع والزوابع، وحانوت عطار، وكشف الدلّ وإيضاح الشك، وقد نوّه به ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس وتوفي سنة (٤٢٦هـ) وصلى عليه حاكم قرطبة أبو الحزم بن جهور.

يصفه ابن بسّام قائلاً: "كان أبو عامر شيخ (قرطبة) وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها وينبوع آياتها، ومادة حياتها، وحقيقة ذاتها وابن ساستها وأساتها، ومعنى أسمائها ومسمياتها... إنْ هزل فسجع الحمام، أو جَدَّ فزئير الأسد الضرغام، نظمٌ كما اتسق الدرُّ على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور..."[4].

وقد بقيت من شعره بقية جملها "شارل بلاّ" في ديوان (طبع في بيروت) ثم جمعه وحققه يعقوب زكي وراجعه محمود علي مكي حيث طبع في القاهرة.

---

(١) الشنتريني: الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٦٠-٦١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ١٢٤ (الحاشية).

(٤) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٩٢.

٤- ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور:

اســمه أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبي عبده الكلبي مولى بني أمية[١].

مــن بيت وزارة قديم وسابقه في خدمة الدولة المروانية ولد سنة (٣٦٤هــ) وتوفــي سنة (٤٣٥هــ) كان فيمن بايع هاشم المعتدّ ، ولما اجتمع أهل قرطبة على خلعــه، كــان أبو الحزم على رأس الجماعة وصار الأمر إليه برمتّه، وتولّى شؤون دويلة قرطبة بعده ابنه أبو الوليد[٢].

وقــد وُصِــفَ بالدَّهاء والسياسة، ولم يغير أمراً توجبه المملكة حتى أنه بقي يــؤذن علــى باب مسجده ولم يتحول عن داره، وأحسن ترتيب الجند فتمشت دولته وكان حرماً يلجأ إليه كل خائف ومخلوع عن ملكه[٣].

٥- عبد الوهاب بن حزم:

اســمه أبــو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم صــاحب طبقة عالية في النظم والنثر، وكتب عن عدة من ملوك ونال حظ عريضاً من دنياهم[٤].

وهــو وزير كاتب، من مقدمي أهل عصره في الأدب والشعر والبلاغة وفيه يقول الحميدي: "وشعره كثير مجموع" وكانت وفاته سنة (٤٣٨هــ)[٥].

٦- ابن شرف القيرواني:

يــرى معظم الذين ترجموا لابن شرف أنّ اسمه محمد وأن كنيته أبو عبد الله وقــد أضــافت بعــض المصــادر إلى سلسلة نسبه لفظة الجذامي. ويذهب صاحب

---

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص ٥٦.

(٢) انظــر الشنتريني، القسم الأول، المجلد الثاني، ص ٦٠٢. وابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، ص ٣٢.

(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص ٥٦.

(٤) انظــر ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج١، ص ٣٥٧. والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٣٢-١٣٣.

(٥) الشنتريني: القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٣٢.

"المطـــرب" إلى أن سلسلة نسبه :"أبو عبد الله محمد بن سعيد بن شرف الجذامي من ولـــد جذام بن عدي بن مرة بن أود بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[١].

وقـــد أضـــيف إلـــى نســـبه لفظه القيرواني نسبة إلى موطنه ومسقط رأسه القـــيروان، ولـــم تعرض المصادر القديمة إلى السنة التي ولد فيها ابن شرف ولكنّها تقدر ذلك في أواخر القرن الرابع[٢].

"ولابـــن شـــرف القيرواني من التصانيف: "أبكار الأفكار" جمع فيه ما اختاره مـــن شعره ونثره"، "وأعلام الكلام" مجموع فيه فوائد ولطائف ومُلح منتخبة، ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامه نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام وله ديوان شعر"[٣].

ويـــرى الدكـــتور حلمي الكيلاني أنّ معظم الذين تحدثوا عن زمن وفاته من القدمـــاء والمحدثيـــن قـــد اتفقوا على أنها كانت في سنة ستين وأربعمائة للهجرة[٤] ويصـــفه ابـــن بســـام بأنه "أحد من نظم قلائد الآداب وجمع أشتات الصواب تلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرياح بأعطاف الغصون"[٥].

٧- ابن زيدون[٦]:

شاعر الأندلس الشهير، وكاتبها الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي القرشي، نبغ في مقتبل شبابه شاعراً ماهراً وكاتباً بارعاً.

---

(١) حلمي إبراهيم الكيلاني: ابن شرف القيرواني حياته وأدبه، مؤسسة البلسم، عمان، ١٩٩٨م، ص ٤١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٨-٥١.

(٣) انظـــر شـــهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، لبنان، الجزء التاســـع عشـــر، ص ٤٣. وأنظر أيضاً. الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٧١.

(٤) حلمي الكيلاني: ابن شرف القيرواني: ص ٩١.

(٥) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٧٠.

(٦) انظر ترجمة عند: ابن سعيد المغربي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ١٢١ (الحاشية).

وكـــان فـــي جملـــة جماعة أبي الحزم بن جهور بقرطبة، وتولى شؤون أهل الذمـــة، وسفر عن الجهاورة إلى الملوك والأمراء الجدد في الأندلس، ودخل السجن أيام أبي الحزم، ثم عاد إلى مركزه وقربة أبي الوليد بن أبي الحزم بن جهور.

وفي سنة ٤٤١ قصد إلى المعتمد بن عباد في إشبيلية فاستقر هناك في منصبه العالي وزيراً كاتباً إلى وفاته.

واشـــتهر ابن زيدون بشعره الغزلي في ولادة بنت المستكفي وله ديوان يغلب عليه غرضا الغزل والمديح.

وفيه يقول ابن بسام:

كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جرّ الأيام جرا، وفات الأنام طُراً، وصَرَّف السلطان نفعاً وضراً.

ووســـع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر لـــيس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني شعري الألفاظ والمعاني"[١].

وقـــد بقيـــت مـــن رسائله قطع كافية للدلالة على مكانة في النثر الفني منها الرسالة الهزلية، الرسالة الجدية، الرسالة الحكمية.

أما ولادته فكانت في أوائل سنة (٣٩٤هـــ)، وتوفي في (٤٦٣هـــ)[٢] قال ابن حـــيان "كان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنة، وفرع أدبه وجاء شعره وعلا شأنه، وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب[٣].

٨- أبو بكر ابن عمار:

هـــو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري الشلبي الأندلسي مـــن أهـــل السياسة والرياسة، وزير، كاتب، شاعر بارع ممّن لقب بذي الوزارتين

---

(١) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٣٣٦.

(٢) عبد المجيد الحر: ابن زيدون شاعر العشق والحنين، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٣، ص ٥٥-٥٩.

(٣) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٣٣٧، ٣٣٨.

-١٠٨٨م) عاد إلى الأندلس يوسف بن تاشفين لمساعدة المعتمد على محاصرة حصن لـيط ثم عاد إلى المغرب وأعد غزوة (٤٨٤هـ ١٠٩٠م) فسقطت بيده الجزيرة الخضراء فمالقة وتوجه نحو الشمال الغربي فاحتل قرطبة وقتل المأمون بن المعتمد سنة (٤٨٤هـ) وفي نفس السنة حاصر إشبيلية ثم فتحها عنوة وأسر المعتمد وأهله ومن ثم حمل المعتمد مكبلاً وأسرته إلى جنوب المغرب فسجن في بلدة لا تبعد كثيراً من مراكش واسمها (أغمات) وبقي بها أسيراً، ذليلاً حتى مماته سنة (٤٨٨ هـ-١٠٩٥م).

١١- الوزير الكاتب أبو محمد بن الجُبير:

هو عبد الله بن عثمان بن علي بن الجبير اليحصبي من أهل لوشه، كان أديباً شاعراً من بيت نباهة وأدب توفي سنة (٥١٨هـ)[١].

وهو قرطبي، وصف في البراعة بالجري في حلبتها والجرأة بصولتها وهو أبرع أهل بلده وأبلغهم وأحوكهم لحلل النظم والنثر وحليها[٢].

وصفه صاحب القلائد قائلاً "شيخ الأوان، القاعد على كيوان الذي بهر بإبداعه وظهر على الصبح عند انصداعة وعطل العوالي ببراعة، وأطلع الكلام رائقاً، وجاء به متناسقاً[٣].

١٢- ابن السيد البطليوسي:

هو أبو بكر بعد العزيز بن سعيد البطليوسي أحد بني القبطرنه (ويقال فيهم القبطورنة والقبطورنية) من رؤساء الكتاب والوزراء كاتب أديب مترسل،

---

(١) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الأشبيلي، الشهير بابن خاقان (٥٢٩هـ): قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش. مكتبة المنار- الزرقاء- الأردن. ط١. (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م) جزء (١-٢)، ص ٤٤٧.

(٢) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الرابع، الجزء الثاني، ص ٢١٥.

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص ٤٤٧.

شـــاعر كتب للمتوكل بن الأفطس ثم كتب لبعض بني شفين وكانت وفاته سنة(٥٢٠ هـــ) [١].

وهـــو أحـــد من تفخر به جزيرة الأندلس من علماء العربية، وهو من شلب، ولازم مدينـــة بطلـــيوس فعرف بالبطليوسي، وله شرح كتاب الجمل، وتصانيف في النحو. ويورد شوقي ضيف له كتاب يسمى "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب"[٢].

وكانت ولادته سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٤٤٤هـــ) بمدينة بطليوس ولكن يـــبدو من كلام المقري التلمساني في (النفح) وابن سعيد في المغرب أنه ولد بمدينة شلب، يقول فيه صاحب الذخيرة: "إمام الأوان، وحامل لواء الإحسان، وهو بالأندلس في الأدب كالجاحظ بل أرفع درجة"[٣].

١٣- الأعمى التطيلي:

وهـــو أحمـــد بـــن عـــبد الله بـــن أبـــي هريرة التطيلي أحد شعراء الأندلس المشهورين، ووشاح بارع.

ولـــد في تطيله منها أهلُه وإليها نسبته، ثم ارتحل أهله إلى إشبيلية فاستوطنها معهـــم، وكانـــت ولادته في ظل دولة المرابطين، فقد توفي سنة (٥٢٥هـــ) [٤] ولم تصـــرح الـــتواريخ بولادتـــه، وقدَّرها الدكتور إحسان عباس في مقدمة ديوانه بعام (٤٨٥هـــ) تقديراً.

ولـــه ديـــوان شـــعر في آخره قدر من موشحاته[٥] نشره إحسان عباس صدره بمقدمـــة فـــي دراسة حياته وشعره، وله كنيتان تردان في المصادر وهما أبو جعفر وأبو العباس، ولقد كان ضريراً ولذلك اشتهر بلقب (الأعمى) [٦].

---

(١) ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ٩٦ (الحاشية).

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص ٣٨٥.

(٣) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٨٩٠-٨٩١.

(٤) انظر المصدر نفسه، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص ٧٢٨.

(٥) ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ٢٢٤. وانظر الشنتريني: القسم الثاني، المجلد الثاني، ص ٧٢٨ (الحاشية).

(٦) ديـــوان الأعمـــى التطيلي أبي جعفر احمد بن عبد الله بن أبي هريرة (٥٢٥هـــ) ومجموعة من موشحاته. تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة-بيروت لبنان- ١٩٦٣م، ص أ.

وصف بالفهم الفائض والذهن الدّراك لخفيات الغوامض، والبصيرة المبصِّرة لأسرار المعاني بعين الاطلاع[1].

١٤- أبو بكر محمد بن احمد الأنصاري المشهور بالأبيض:

يقول صاحب المسهب أنَّ أصله من قرية همدان وتأدب بأشبيلية وقرطبة وهو شاعر وشّاح، حسن التصرف هجّاء[2].

ويرى شوقي ضيف أنه كان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسبق في الشعر والأدب، ومات بعد سنة (٥٢٥هـ) [3]. ويذهب صاحب الخريدة أنه توفي بعد سنة (٥٣٠هـ)[4].

١٥- ابن خفاجة:

هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري من أهل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، من فحول الشعر الأندلسي وأشهر وصافي الطبيعة، له ديوان شعر مطبوع وهو صاحب نزعة خفاجية متميزة ولد سنة (٤٥٠هـ) وتوفي سنة (٥٣٣هـ)[5].

ويصفه ابن خاقان، فيقول: "مالك أعنّة المحاسن، وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها، الناظم لعقودها، الراقم لبرودها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائها وزفافها تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه في الإجادة الرّشاء، فشعشع القول وروقة، ومدّ في ميدان الإعجاز طلقه فجاء نظامُه أرقَّ من النسيم العليل،

---

(١) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق علي عبد العظيم وعمر الدسوقي، ج٢، ص ٥٦٧.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، ص ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه، (الحاشية).

(٤) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق أذرتاش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م، ج٢، ص ٢٥٨.

(٥) ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان (٣-٤) ص ٧٣٩ (الحاشية).

وآنف من الروض البليل، يكاد يمتزج بالرُّوح وترتاح إليه النفس كالغصن المَرُوح"[1].

١٦- الأديب أبو طالب عبد الجبَّار.

يترجم له ابن بسام قائلاً[2]:

من أهل جزيرة شقر، كان يُعرف بالمتنبي، أبرع أهل وقته أدباً وأعجبهم مذهباً، وأكثرهم تفنناً في العلوم وأوسعهم ذرعاً بالإجادة في المنثور والمنظوم".

ولقد استدل العماد الكاتب في الخريدة على أنه تجاوز العام (٥٣٧هـ) لأنه ذكر في أرجوزته علي بن يوسف بن تاشفين ولكن إحسان عباس يرى أنه استنتاج خاطئ، فذكره لابن تاشفين لا يعني أنه عاش حتى نهاية خلافته.

١٧- ابن بقي:

أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الطليطي، وينسب إلى سرقسطه وإشبيلية وسلا في المغرب ووادي آش، وكانت وفاته سنة (٥٤٠هـ) أو (٥٤٥هـ)[3]، ويرى "عدنان طعمه" صاحب كتاب "موشحات ابن بقي وخصائصها الفنية[4] أن مولده كان تقريباً في (٤٦٣هـ) على ضوء ما ذكر ابن بسام من أن ابن بقي خرج وهو صغير السن في طليطلة في محنتها وكان سقوط طليطلة عام (٤٧٨ هـ). فهذا يعني أنه كان أبن خمس عشرة سنة أو تقل ولقد عاش متنقلاً بين إشبيلية وقرطبة في سن الشباب ويصفه ابن خاقان بأنه "نبيل النثر والنظم، قليل الارتباط

---

(١) انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، جزء ٣-٤، ص ٧٣٩، (الحاشية) وانظر الشنتريني: القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٥٤١.

(٢) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص ٩١٦.

(٣) انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان (جزء ٣-٤)، ص ٩١٩ (الحاشية) وانظر الشنتريني: القسم الثاني، المجلد الثاني، ص ٦١٥ (حاشية).

(٤) عدنان محمد آل طعمة: موشحات ابن بقي الطليطلي وخصائصها الفنية دراسة ونص، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة، كتب التراث (٧٤) الجمهورية العراقية، ١٩٧٩، ص ٣٥.

والانـــتظام"[1]. وله موشحات في كتاب "دار الطراز" و"جيش التوشيح" ويرى إحسان عباس أن له ما ينيف على ثلاثة الآف موشحة ومثلها قصائد ومقطعات[2].

١٨- ابن أبي الخصال:

أبو عبد الله محمد بن مسعود بن طيب المشهور بابن ابي الخصال الفرغليطي الشـــقوري. (مـــن فرغلّيط من أعمال شقورة وشقورة تابعة لكورة جيّان)، ولد سنة (٤٦٥هـــ)، عالم بالحديث كاتب شاعر كان أشهر الكتاب في زمانه وعده الأندلسيون رئيس كتاب الأندلس وحفظوا رسائله حفظاً، وله ديوان رسائل (فيه رسائله وشعره) نشـــر عن أصل وحيد في دار الفكر بدمشق ١٩٨٧ وله مؤلفات منها :(ظل الغمامة وطوق الحمامة) و(سراج الأدب) وقصيدة في نسب الرسول تسمى (معراج المناقب) وهو من كتاب علي بن يوسف من تاشفين ملك المرابطين وكتب أيضاً عن غيره من الولاة والقواد[3].

وتـــنقّل فـــي المغـــرب والأندلس مصطحباً بعض أمراء المرابطين أو متولياً الأعمـــال الإداريـــة والكتابية لهم، ومن المدن التي استقر فيها في الخدمة السلطانية قرطبة، بلنسية وسرقسطة وفاس وسبته.

وعُمِّـــر ابن أبي الخصال طويلاً وفي سنة (٥٤٠هـــ) قتل شهيداً، قتله بعض جـــند المصـــامدة الذين دخلوا قرطبة في الفتنة بين ابن حمدين متولي شؤون قرطبة والداعي لنفسه بالخلافة وبين ابن غانيه الذي حاول أخذ الأندلس[4].

ويصـــفه ابن بسام قائلاً في ذكره: إنّه "أحد أعيان كتاب الزمان وحامل مجلة الإحســـان، بحـــر معرفة لا تعبره السُّفُنُ، ولو جَرَت بشهوتها الرياح، وطود علمٍ لا

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤، ص ٩١٩.

(٢) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص ٦١٥ (الحاشية).

(٣) انظر ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ١٨٨.

(٤) الكاتب الفقيه إلى عبد الله بن أبي الخصال الفافقي الأندلسي: رسائل بن أبي الخصال، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر دمشق، سورية، ط١، ١٩٨٧م، ص ١٢.

تـــرقى إليه الفطِنُ ولو سما بها الإمساء والإصباح، وأدب لا تعبِّر عنه الألسن، ولو أمدَّتها الأوتار الفصاح، إلى طول باع، ورقة طباع"[1].

١٩- الفقيه الحافظ القاضي أبو الفضل عَيّاض بن موسى بن عياض.

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي، نزل قومُه في جهات بسطة (من جنوب الأندلس) ثم خرجوا إلى فاس مُدّة وانتقلوا إلى سبتة.

قال ابن خلكان: "كان إمام وقته في الحديث، وعلومه، والنحو، واللغة، وكلام العرب وأيامهم، وأنسابهم، وصنَّف التصانيف المفيدة، وكان القاضي عياض قد دخل الأندلس طالباً العلم وتولى القضاء في بعض جهاتها، كان مولده سنة (٤٧٦هـــ) في ســـبتة وكانـــت وفاتـــه بمراكش سنة (٥٤٤هـــ)[2] ويرى صاحب الصلة أنه توفي بمراكش سنة (٥٤٤هـــ). ومنهم من يذهب إلى أنه توفي بفاس سنة (٥٤٣هـــ)[3].

---

(١) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني ص ٧٨٦-٧٨٧.

(٢) ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ١٩٢ (الحاشية).

(٣) العمـــاد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق علي عبد العظيم وعمر الدسوقي، القسم الرابع، الجزء الثاني، ص ٥٥٠.

ومن الشعراء أيضاً:

٢٠- أبو عيسى بن لَبُون

هــو لَبُّون بن عبد العزيز بن لَبُّون، وكان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون، وكان معدوداً من الأجواد موصوفاً بتجويد الشعر[١].

وهو من أمراء الطوائف الصغار، وزر للمأمون بن ذي النون وكان من قواده ثم أعلن استقلاله في مربيطر شمال بلنسية.

وورث حكم لورقه بعد وفاة أخيه أبي محمد عبد الله بن لَبُّون وضم إليها قلعة عبد السلام من أعمال طليطلة قرب وادي الحجارة.

ثم احتال عليه جاره ابن رزين صاحب (السهلة) فانتزع منه ملكه سنة (٤٨٦ هــ) ولم يعوض عنه شيء[٢].

وقيل: إنّه توفي سنة (٥٠٠هــ)[٣].

٢١- الأستاذ الأديب أبو القاسم بن العطار

ذكــر صــاحب القلائد أنه أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ووصفه بكثرة الارتياح والفرح والانتهاك في حب الغلمان[٤].

وقال الضبي فيه: إنّه أديب بليغ، وشاعر مجيد[٥]، ولم يقف أحد على ولادته ولا وفاته.

٢٢- الوشاح المبرز أبو الحسن المريني

هــو علي بن المريني أبو الحسن شاعر وشاح مشهور ببلاد المغرب، صحب والــد بــن ســعيد المغربي (مؤلف كتاب المغرب في حلى المغرب) ومات في مدة

---

(١) انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج ١-٢، ص ٢٨٩، (الحاشية).

(٢) انظر الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق علي عبد العظيم، ج٢، ص ٣٣١(الحاشية). وانظر الشنتريني، القسم الثالث، المجلد الأول، ص ١٠٤-١٠٥.

(٣) سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، ص ٥٣٧.

(٤) انظر ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج٣-٤، ص ٨٨٠.

(٥) ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، ص ٦١ (الحاشية).

"منصـــور بن عبد المؤمن"، وكان كثير التجول وله موشحة طويلة في أحد متنزهات قرطبة وهو السُّدّ[1].

٢٣- الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي:

وهو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي تربة أصله طبري، ينسب وينتمي إلـــى ربـــيعة الفَرَس، دخل المغرب في أيام المنصور محمد بن أبي عامر، له كتاب مترجم اسمه (الفصوص)[2].

٢٤- أيوب بن سليمان السهيلي[3]

والده سُهيل بن عبد العزيز بن مروان، كان يخدم محمد بن احمد بن خلف المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة، قال عنه المقري إنه من أهل المئة السادسة ولكن ابن سعيد يرى أنّه من أهل المئة الخامسة.

ومن الشعراء أيضاً:

٢٥- أبو الحسين الوَقشّي.

٢٦- الشريف الأصم القرطبي.

٢٧- قاسم بن عبود الرياحي.

٢٨- أبو عثمان بن إدريس.

٢٩- عبيد الله بن يحيى بن إدريس.

---

(١) التلمساني: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٣١٠.

(٢) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ٨-٩.

(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، ص ٦٠.

ملحق رقم (٢)*

الأشعار التي قيلت في قرطبة

عند ابن زيدون[١]:

"ليالي قرطبة" (موشحة) **(الطويل)**

سَقَى الغَيْثُ أَطْلاَلَ الأَحِبَّةِ بالحِمى
وحَاكَ عَلَيْهاَ ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَما
وَأَطْلَعَ فِيها لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلاَمُ
أَهِيمُ بِجَبَّار يَعِزُّ وَأَخْضَعُ
شَذَا الْمِسْكِ – مِنَ أَرْدَانِهِ – يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ – أَشْكُوهُ الجَوَى – لَيْسَ يَسْمَعُ
فمَا أَنَا–فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ– أَطْمَعُ وَلاَ أَنْ يَزُورَ المُقْلَتَيْنِ مَنَامُ
قَضِيبٌ – مِنَ الرَّيحَانِ – أَثْمَرَ بالبَدْرِ
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
وَدِيبَاجُ خَدَّيهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ
وَأَلْفَاظُه – فِي النُطْقِ – كَاللُّؤلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقُهُ – فِي الأُرْتِشَافِ – مُدَامُ
سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الأَغْصَانِ وُرْقُ الحَمَائِمِ
"بِقُرطُبَةَ" الغَرَّاءِ دَارِ المكارِمِ
بِلاَدٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِى وَأَنجَبَنِى قَوْمٌ – هُنَاكَ – كِرَامُ
فَكَمْ لِيَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ

---

* سنعمد إلى ذكر كل موشحة أو قصيدة معنونة بما سميت به عند محقق الديوان.

(١) انظر ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، ص ١٢٨–١٤٠، ١٥٢–١٦٣.

يُفَدِّمُ أَفْوَاهَ الْكئوسِ بِتُفَّاحِ

إذا طَلَعَتْ – فِي رَاحِهِ – أُنْجُمُ الرَّاحِ فَإِنَّـــا – لإعْظَـــامِ المـــدَامِ – قـــيَامُ

وَيَوْمٍ لَدَى "البُنْتِيِّ" فِى شَاطِىء النَّهْرِ

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ

وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سوَى يَانِعِ الزَّهْرِ

يَـدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الخَصْرِ بِفِـيه – مِـنَ الـثَّغْرِ الشَّـنِيبِ – نظَامُ

وَيَوْمٍ "بِجوفِيِّ الرُّصافَةِ" مُبْهِجِ

مَرَرْنَا برَوْضِ الأَقْحُوَانِ المُدَبَّجِ

وَقَابَلَنَا فِيهِ نسِيمُ الْبَنَفْسَجِ

وَلاَحَ لَـــنَا وَرْدٌ بِخَـــدٍّ مُضَـــرَّجِ تَـــرَاهُ أَمَـــامَ الـــنَّوْرِ وَهْـــوَ إِمَـــامُ

وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ العُقَابِ السَّوَالِفِ

وَلَهوْ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ المَعَاطِفِ

بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ

إِذَا رَفَلُـــوا فِى وَشْيِ تِلْكَ المَطَارِفِ فَلَـــيْسَ – عَلَـــى خَلْـــعِ العِذَارِ – مَلاَمُ

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِندَ "العَقِيقِ" وَجِسرِهِ

قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ

وَظَبْيٍ يُسَقِّينَا سُلاَفَةَ خَمْرِهِ

حَكى جَسَدِي – فِى السُّقْمِ – رِقَّةَ خَصرِهِ لوَاحِظُـــهُ – عِـــنْدَ الـــرُّنُوِّ – سِـــهَامُ

فَقُلْ لزَمَانٍ قَد تَوَلَّى نَعِيمُهُ

وَرَثَّتْ – عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي – رُسُومُهُ

وَكَمْ رَقَّ فِيهِ – بِالْعَشِيِّ – نَسِيمُهُ

وَلاَحَـــتْ لسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : عَلَـــيْكَ مِـــنْ الصَّـــبِّ المَشُـــوقِ سَلاَمُ

مواكب الذكريات (موشحة) (الطويل)

تَنَشَّقَ – مِنْ عَرْفِ الصَّبَا – مَا تَنَشَّقَا
وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا
وَمَا زَالَ لمْعُ الْبَرْقِ – لَمَّا تَأَلَّقَا
يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تدفَّقَا، وَهَلْ يملِك الدَّمْعَ المَشُوقُ المَصَبَّأُ
خَلِيلَيَّ – إنْ أَجْزَعْ فقَدْ وَضَحَ العُذْرُ
وإنْ أستَطِع صَبْراً فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ
وإن يَكُ رُزْءًا ماَ أَصَابَ بِه الدَّهْرُ
ففِي يَوْمِنَا خَمْرٌ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ وَلاَ عَجَبٌ، أنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ
رَمَتْنِي اللَّيَالي عِنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأَتْني مُرْسَلاَتُ المَصَائِبِ
أَقَضِّي نهَارِي بالأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَآوِي إلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلَأُ
أَقُرْطُبَةَ الغَرَّاء ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبُعْدِكِ تَنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟
إذِ الْحُسْنُ مَرْأىً فِيكِ وَاللَّهوُ مَسْمَعُ وَإذْ كَنَفُ الدُّنْيَا – لَدَيْكِ – مُوَطَّأُ
أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَشُطَّ النَّوى بِكِ ؟
فَأَحْيا كَأَنْ لَمْ أَنْشَ نَفْحَ جَنَابِكِ
وَلَمْ يَلْتَئِمْ شَعْبِي خِلاَلَ شِعَابِكِ
وَلَمْ يَكُ خَلْقِي بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي – مِنْ نَوَاحِيكِ – مَنْشَأُ
نَهَارُكِ وَضَّاحٌ، وَلَيْلُكِ ضحيان
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تَكْسِي، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ
وَرَيَّاكِ رَوْحٌ لِلنُّفُوسِ وَرَيْحَانُ وَحَسْبُ الأَمَانِي ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ
أَأَنْسَى زَمَاناً "بِالعُقَابِ" مُغَفَّلاً؟

وَعَيْشاً بأَكْنَافِ "الرُّصَافَةِ" دَغْفَلاً ؟

وَمَغْنىً – إزَاءَ "الجَعفرِيَّةِ" أَقْبَلاَ

لَـنِعْمَ مَـرَادُ الأُنْسِ رَوْضاً وجَدْوَلاَ وَنِعْـمَ مَحَـلُّ الصَّـبْوةِ المُتَـبَوَّأُ

وَيارُبَّ مَلْهىً "بِالعَقِيقِ" وَمَجْلِسٍ

لَدَى تُرْعَةٍ، ترنُو بأَحْدَاقِ نَرْجِسِ

بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْمِعِ الخَالِ مُوئِسِ

مَغِيمٍ – وَلَكنْ مِنْ سَنَا الرَّاحِ – مُشْمِسِ إذَ مَـا بَـدَتْ – فِـى كَأْسِـهَا – تَتَلأْلأُ

وَقَدْ ضَمَّنَا – مِنْ "عَيْنِ شُهْدَةَ" – مَشْهَدُ

بَدَأْنَا وَعْدُنَا فِيهِ، وَالعَوْدُ أَحْمَدُ

يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهْوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ

لَـهُ مَبْسِـمٌ عَـذْبٌ، وخَـدٌّ مُوَرَّدُ، وكَـفٌّ – بِحِـنَّاءِ المُـدَامِ – تُقَـنَّأُ

وَكَائِنْ عَدَوْنَا – مُصْعِدِينَ – عَلَى الجِسْرِ

إِلَى (الْجَوْسَقِ النَّصرِيِّ) بَيْنَ الرُّبَا الغُفْرِ

وَرُحْنَا إِلىَ الْوَعْسَاءِ مِنْ شَاطِىءِ النَّهْرِ

بِحَيْـثُ هُـبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةَ النشْرِ عَلَـى قُضُـبِ الـنُّوَارِ، فَهِـى تُكَفَّـأُ

وَأَحْسِنْ بِأَيَّامٍ – خَلَوْنَ – صَوَالِحٍ

(بِمَصْنَعَةِ الدُّولابِ)، أَوْ قَصْرِ (نَاصِحِ)

تَهُزُّ الصَّبَا – أَثناء تِلْكَ الأَبَاطِحِ

صَـفِيحَةَ سَلْسَـالِ المَـوارِدِ سَـائِحِ تَـرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ

وَ يَا حَبَّذَا "الزَّهْرَاءُ" بَهْجَةَ مَنْظَرِ

وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ، وَصِحَّةَ جَوْهَرِ

وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ

وَجَـنَّةِ عَـدْنٍ تَـطَّبِـيكَ وَكَوْثَـرِ بِمَـرْأَى يَـزِيدُ العُمْرَ – طِيباً – وَيَنْسَأُ

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا

أَغَضُّ– مِنَ الْوَرْدِ الجَنِيِّ – وَأَنْعَمَا

لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنمْنَا

وَقدْنَـــا إلىَ اللذَّاتِ – جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَـــهُ الأَمْـــنُ رِدْءٌ، وَالغَضَـــارَةُ مَـــرْبَأُ

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْىَ الخَمَائِلِ

وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضى الرِّيَاحِ البَلائِلِ

وَغَادَى بَنُوهَا العيْشَ حُلْوَ الشَمائل

وَلاَ زَالَ مِـــنَّا بِالضُّـــحَى والأَصَائِلِ سَـــلاَمٌ – عَلَـــى تِلْـــكَ المَيَادِينِ – يُقْرَأُ

أَإِخْوَانَنَا للوَارِدِينَ مَصَادِرُ

وَلاَ أَوَّلٌ إلاَّ سَيَتْلُوهُ آخِرُ

وَإِنِّي – لإِعْتَابِ الزَّمَانِ – لَنَاظِرُ

فَقَـــدْ يَسْـــتَقِيلُ الجَدُّ – والجَدُّ عَاثِرُ– وَتُحْمَـــدُ عُقْـــبَى الأَمْـــرِ مَـــا زَالَ يُشْنَأُ

ظَعَنْت، وَكَانَ الحُرُّ يُجْفى فَيَظْعَنُ

وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بالأُسى حِينَ أَحْزَنُ

وَقَرَّ – عَلَى اليَأْسِ – الفُؤَادُ الموَطَّنُ

وَ إِنَّ بِـــلاداً هُنْـــتُ فـــيهَا لأَهْـــوَنُ وَمَـــنْ رَامَ مِثْلِـــي بِالدَّنِـــيَّةِ أَدْنَـــأُ

وَلاَ يُعْبِطِ الأَعْدَاءَ كَوْنِيَ فِي السِّجْنِ

فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَمْس تُحْضَنُ بالدَّجْنِ

وَمَا كُنْتُ إلاَّ الصَّارِمَ العَضْبَ فِي جَفْن

أَو اللَّيْثَ فِي غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِي وَكْنِ أَوِ الْعِلْـــقَ يُخْفَـــى فِي الصِّوَانِ وَيُخْبَأُ

يَضِيقُ بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ مَذْهبي

إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ مِنْكُمْ مُهَذَّبِ

مَفَضَّضِ لأَلاَءِ الأَسَارِيرِ مُذْهَبِ

يُـــنَافِسُ مِـــنْهُ الـــبَدْرُ غُـــرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَـــا أَبْهَـــى سَـــنَاءً وَأَضْـــوَأُ

أَسِفْتُ، فَمَا أُرْتَاحُ – وَالرَّاحُ تَعْمَلُ –

وَلا أُسْعِفُ الأَوتَارَ – وَهِيَ تَرَسَّلُ –

وَلاَ أَرْعَوِى عَنْ زَفْرَةٍ – حِينَ أُعْذَلُ –

وَلاَ لِـيَ – مُـذْ فَارقْـتُكُمُ – مُتَعَلَّلُ سِـوىَ خبَرٍ مِنْكُمُ – عَلَى النَّأْيِ – يَطْرَأُ

حَمِدْتُمُ – مِنَ الأَيامِ – لِينَ خِلاَلِهَا
وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلاَلِهَا
مُؤمِّنةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلاَلِهَا

وَلا زَالَ مِـنْكُمْ لابِـسٌ مِـنْ ظِلاَلِهَا يُسَـوِّغُ أَبْكَـارَ المُـنَى وَيُهَـنَّأُ

مجالي الزهراء (البسيط)

إنِـي ذَكَـرْتُكِ "بالزَّهْـرَاءِ" مُشْـتَاقاً والأُفْقُ طَلْقٌ، وَمَرْأى الأَرْضِ قَدْ رَاقَا
وَلِلنَّسِـيمِ أَعْـتِلاَلٌ – فِـي أَصَـائِلِهِ كَأَنَّـهُ رَقَّ لِـي، فاعْـتَلَّ إِشْـفَاقا
والـرَّوْضُ–عَنْ مَائِهِ الفِضِيِّ – مُبْتَسِمٌ، كَمَـا شَقَقْتَ – عَنِ اللَّبَّاتِ – أَطْوَاقا
نَلْهُـو بِمَـا يَسْـتَمِيلُ العَيْـنَ مِنْ زَهَرٍ جَـالَ الـنَّدَى فِيهِ، حَتى مَالَ أَعْنَاقا
كَـأَنَّ أَعْيُـنَهُ – إِذْ عَايَنَـتْ أَرَقِـي – بَكَـتْ لِمَـا بِي، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقا
وَرْدٌ تَـأَلَّقَ – فِـي ضَـاحِي مَنَابِـتِهِ فازْدَادَ مِنْهُ الضُّحى في العَينِ إِشْرَاقا
سَـرَى يُـنَافِحُهُ نَـيْلُوفَرٌ عَـبِقٌ وَسَـنَانُ، نَـبَّهَ مِـنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقا
كُـلٌّ يَهِـيجُ لَـنَا ذِكْـرَى تُشَـوِّقُنَا إِلَـيْكِ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقا
لاَ سَـكَّنَ اللهُ قَلْـباً، عَـنَّ ذِكْـرُكُمُ فَلَـمْ يَطِـرْ بِجَـنَاحِ الشَّـوْقِ خَفَّاقا
لَو شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبحِ–حِينَ سَرَى– وافَـاكُمُ بِفَـتىً أَضْـنَاهُ مَـا لاَقَـى
يَـوْمٌ، كَأَيَّـامِ لَـذَّاتٍ لَـنَا أَنصَـرَمَتْ، بِتْـنَا لَهَا – حِينَ نَامَ الدَّهْرُ – سُرَّاقا
لَـوْ كَانَ وَفَّى المُنَى – فِي جَمْعِنَا بِكُمُ– لَكَـانَ مِـنْ أَكْـرَمِ الأَيَّـامِ أَخْلاَقَـا
يَـا عِلْقِـيَ الأَخْطَرَ الأَسْنَى الحَبِيبَ إِلى نَفْسِـي، إِذَا مَا أَقْتَنَى الأَحْبَابُ أَعْلاَقَا
كَانَ التَّجَازِي بِمَحْضِ الوُدِّ – مُذْ زَمَنٍ– مَـيْدَانَ أُنْـسٍ جَرَيْـنَا فِـيهِ أَطْلاَقَا
فَـالآنَ – أَحْمَـدَ مَـا كُـنَّا لِعَهْدِكُـمُ– سَـلَوتُمُ، وَبَقِيـنَا نَحْـنُ عُشَّـاقا

معاهد صبوات (الطويل)

عَلَـى (الثَّغْـبِ الشَّهْدِيِّ) مِنِّي تَحِيَّةٌ زَكَـتْ، وَعَلَـى (وَادِي العَقِـيقِ) سَلاَمُ
وَلاَ زَالَ نَوْرٌ (فِي الرُّصَافَةِ) ضَاحِكٌ بِأَرْجَائِهَـا يَـبْكِي عَلَـيهِ غَمَـامُ
مَعَـاهِدُ لَهْـوٍ لَـمْ نَزَلْ فِي ظِلاَلِهَا تُـدَارُ عَلَيْـنَا – لِلمُجُـونِ – مُـدَامُ
زَمَانَ: رِيَاضُ العَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ تَـرِفُّ، وَأَمْـوَاهُ السُّـرُورِ جِمَـامُ

فَـإنْ بَـانَ مِنِّـي عَهْدُهَـا، فَبِلَوْعَةٍ ... يُشَـبُّ لَهَـا – بيْـنَ الضُّلوعِ – ضِرَامُ

تَذَكَّـرْتُ أيَّامِـي بِهَـا، فَتَـبادَرَتْ ... دُمُـوعٌ، كَمَـا خَـانَ الْغَـرِيدَ نِظَـامُ

وَصُـحْبَةَ قَـوْمٍ كَالمَصَـابِيحِ، كُلُّهُمْ ... إذَا هُـزَّ لِلخَطْـبِ المُلِـمِّ – حُسَـامُ

إذَا طَـافَ بالـرَّاحِ المُدِيـرُ عَلَيْهِمُ ... أَطَـافَ بِـهِ بِـيضُ الوُجُـوهِ، كِـرَامُ

وَأَحْـوَرَ سَاجِي الطَّرْفِ، حث لونه ... سَـقَامٌ، بَـرَى الأَجْسَـامَ مِـنْهُ سِـقَامُ

تَخَـالُ قَضِيبَ البَانِ – في طَيِّ بُردِهِ ... – إذَا أهْـتَزَّ مِـنْهُ مِعْطَـفٌ وَقَـوَامُ

يُدِيرُ – عَلَى رَغْمِ العِدَا – مِنْ وَدَادِهِ ... سُـلاَفاً، كَـأنّ المِسْـكَ مِـنْهُ خِـتَامُ

فَمِـنْ أجْلِـهِ أدْعُـو لِقُرْطُبَةِ المُنَى ... بِسُـقْيَا ضَـعِيفِ الطَّـلِّ وَهْـوَ رِهَـامُ

مَحَـلٌّ غَنِيـنَا بالتَّصَـابِي خِلاَلَـهُ ... فأَسْـعَدَنَا، وَالحَادِثَـاتُ نِـيَامُ

فَمَـا لِحَقَـتْ تِلْـكَ اللَّيَالِـي مَلاَمَةٌ ... وَلاَ ذُمَّ مِـنْ ذَاكَ الحَبِيـبِ ذِمَـامُ

زفرة الشريد **(الرَجز)**

يَا دَمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أنْ تَصُوبَا

وَيَا فُؤَادِي آن أن تَذُوبَا

إذِ الرَّزَايَا أَصْبَحَتْ ضُرُوباً

لَمْ أَرَ لِي – في أَهْلِها – ضَرِيبَا

قَدْ مَلأَ الشَّوْقُ الحَشَا نُدُوبَا

في الغَرْبِ إذ رُحْتُ بِهِ غَرِيبَا

عَلِيلَ دَهْرٍ سَامَنِي تَعذِيبَا

أَدْنَى الضَّنَى إذْ أَبْعَدَ الطَّبِيبَا

***

لَيْتَ القَبُولَ أَحْدَثَتْ هُبُوبَا

رِيحٌ يَرُوحُ عَهْدُها قَرِيبَا

بالأُفُقِ المُهدِى إلَيْنَا طِيبَا

تَعَطَّرتْ منهُ الصَّبَا جُيُوبَا

يَبْرُدُ حَرَّ الكَبِدِ المَشْبُوبَا

***

يَا مُتْبِعاً إسْآدَهُ التَّأْوِيبَا
مُشَرِّقاً قَدْ سَئِمَ التَّغْرِيبَا
أَمَا سَمِعْتَ المَثَلَ المَضْرُوبَا :
"أَرْسِلْ حَكِيماً، وَاسْتَشِرْ لَبِيبَا"
***
إذَا أَتَيْتَ الْوَطَنَ الحَبِيبَا
وَالجَانِبَ المُستَوضَحَ العَجِيبَا
والحَاضِرَ المُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا
***
فَحيِّ مِنْهُ مَا رَأَى الجُنُوبَا
مَصَانِعٌ تُجَاذِبُ القُلُوبَا
حَيثُ أَلِفْتُ الرَّشَأَ الرَّبِيبَا
مُخَالِفاً فِي وَصْلِه الرَّقِيبَا
كَمْ بَاتَ يَدْرِي لَيْلَهُ الغِرْبِيبَا
لَمَّا أَنْثَنَى فِي سُكْرِه قَضِيبَا
تَشْدُو حَمَامُ حَلْيِه تَطْرِيبَا
هَصَرْتُهُ حُلْوَ الجَنَى رَطِيبَا
أَرْشُفُ مِنْهُ المَبْسِمَ الشَّنِيبَا
حَتَّى إذَا مَا أَعْتَنَّ لِي مُرِيبَا
شَبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا
بَادَرْتُ سَعْياً، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا
أَهَاجِرِي أَمْ مُوسِعِي تَأْنِيبَا
مَنْ لَمْ أَسِغْ مِنْ بَعْدِه مَشْرُوبَا ؟
مَاضَرَّهُ لَوْ قَالَ: لاَ تَثْرِيبَا
وَلاَ مَلاَمَ يَلْحَقُ القُلُوبَا
قَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمَ الذُّنُوبا
وَلَمْ يَدَعْ فِي العُذْرِ لِي نَصِيبَا
***
إنْ قَرَّتِ العَيْنُ بِأَنْ أَءُوبَا

لَمْ آلُ أنْ أسْتَرضِيَ الغَضُوبَا
حَسْبِيَ أنْ أُحَرِّمَ المَغِيبَا
قَدْ يَنْفَعُ المُذْنِبَ أنْ يَتُوبَا

أنَّة الطريد **(الطويل)**

خَلِيلَـيَّ لاَ فِطْـرٌ يَسُـرُّ وَلاَ أَضْـحى ... فَمَـا حَـالُ مَنْ أمْسى مَشوقاً كَمَا أضحى؟
لئِـنْ شـاقَني (شَـرْقُ العُقَابِ) فَلَم أزَلْ ... أُخَـصُّ بِمَمْحُـوضِ الْهَـوَى ذَلِـكَ السَّفْحَا
وَمَـا أنْفَـكَّ جُوفِيُّ (الرُّصافَةِ) مُشْعِرِي ... دَوَاعِـيَ ذِكْـرَى تُعْقِـبُ الأَسَـفَ البَرْحَا
وَيَهْـتَاجُ (قَصْـرُ الفَارِسِـيِّ) صَـبَابَةً ... لِقَلْـبِيَ، لاَ تَـأْلُوا زِنَـادَ الأَسَـى قَدْحَـا
وَلَـيْسَ ذَمِـيما عَهْـدُ (مَجْلِـس نَاصِح) ... فَأَقْـبَلَ فِـي فَـرْطِ الوَلُـوعِ بِـهِ نُصْـحَا
كَـأَنِّيَ لَـمْ أَشْـهَدْ لَـدى (عَيْنِ شهدَةٍ) ... نِـزَالَ عِـتَابٍ كَـانَ آخِـرُهُ الْفَـتْحَا
وَقَـائِعُ جَانِـيهَا التَّجَنِّـي، فَـإنْ مَشَـى ... سَـفِيرُ خُضُـوعٍ بَيْنَـنَا أَكَّـدَ الصُّـلْحَا
وَأَيَّـامُ وَصْـلٍ (بالعَقِـيقِ) أَقْتَضَـيْتُهُ ... فَـإلاَ يَكُـنْ مِـيعَادُهُ العِـيدَ فَالفِصْـحَا
وآصَـالُ لَهْـوٍ فِـي (مُسَـنَّاةِ مَـالِكٍ). ... مُعَاطَـاةَ نَدْمَـانٍ إذَا شِـئْتُ أوْ سَـبْحَا
لَـدَى رَاكِـدٍ تَصْـبِيكَ مِـنْ صَـفَحَاتِهِ ... قَوَارِيـرُ خُضْـرٌ خِلْـتَهَا مُـرِّدَتْ صَرْحَا
مَعَـاهِدُ لَـذَّاتٍ وَاوْطَـارُ صَـبْوَةٍ ... أَجَلْـتُ المُعَلَّـى فِـي الأَمَانِـي بِهَـا قِدحَا

*****

أَلاَهَـلْ إلَـى (الزَّهْـرَاءِ) أَوْبَةُ نَازِحٍ ... تَقَصَّـى تَنَائِـيهَا مَدَامِعَـهُ نَـزْحَا
مَقَاصِـيرُ مُلْـكٍ أَشْـرَقَتْ جَنَـبَاتُها ... فَخِلْـنَا العِشَـاءَ الجَـوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا
يُمَـثِّلُ قُرْطَـيْهَا لِـيَ الوَهْـمُ جَهْـرَةً ... فَقُبَّـتَهَا، فَالكَوْكَـبَ الرَّحْـبَ، فَالسَّطْحَا
مَحَـلُّ أُرْتِـيَاحٍ يُذْكِـرُ الخُلْـدَ طِيبُهُ ... إذَا عَزَّ أنْ يَصْدِيَ الفَتى فِيه أوْ يَضْحى
هُـنَاكَ الجِمَـامُ الـزُّرْقُ تُنْدَى حِفَافَهَا ... ظِـلاَلٌ عَهِـدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتىً سَمْحَا
تَعَوَّضْـتُ مِـنْ شَـدْوِ القِيَانِ خِلاَلَهَا ... صَـدَى فَلَـوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الكَرَى ضَبْحَا
وَمِـنْ حَمْلِـيَ الكَأْسَ المُفَدَّى مُدِيرُهَا ... تَقَحُّـمَ أَهْـوَالٍ حَمَلْـتُ لَهَـا الـرُّمْحَا
أَجَـلْ إنَّ لَـيْلِي فَـوْقَ شَاطِىءِ نِيطَةٍ ... لأَقْصَـرُ مِـنْ لَـيْلِي بِآنَـةَ فَالبَطْحَا

لا أهل ولا وطن **(البسيط)**

هَـلْ تَذْكُـرُونَ غَرِيـباً عَـادَهُ شَجَنُ ... مِـنْ ذِكْـرِكُمْ – وَجَفَا أجفانَهُ الوَسَنُ ؟
يُخْفِـي لَوَاعِجَـهُ وَالشَّـوْقُ يَفْضَـحُهُ ... فَقَـدْ تَسَـاوَى – لَدَيْـهِ – السِّرُّ وَالعَلَنُ
يَـا وَيْلَـتَاهُ، أيَـبْقَى فِـي جَوَانِحِـهِ ... فُـؤَادُهُ، وَهْـوَ بِـالأَطْلاَلِ مُرتَهَـنُ ؟
وَأَرَّقَ العَيْـنَ – وَالظَلْمَـاءُ عَاكِفَـةٌ – ... وَرَقَـاءُ، قَـدْ شَـفَّهَا، إذ شَفَّنِي – حَزَنُ
فَبِـتُّ أَشْـكُو وَتَشْـكُو فَـوْقَ أَيْكَتِهَا ... وَبَـاتَ يَهفُـو أَرْتِـيَاحاً بَيْنَـنَا الغُصُنُ

*****

يَـا هَـلْ أُجَـالِسُ أَقْوَامـاً أُحِـبُّهُمُ؟ ... كُـنَّا وَ كَانُوا – عَلَى عَهْدٍ – فَقَدْ ضَغِنُوا
أَوْ تَحْفَظُـونَ عُهُـوداً لاَ أُضَـيِّعُهَا ... إنَّ الكِـرَامَ – بحفْـظِ العَهْـدِ – تُمْتَحَنُ

ومنها:

إنْ كَـانَ عَـادَكُمُ عِـيدٌ، فَـرُبَّ فَتًى ... بِالشَّـوْقِ قَدْ عَادَهُ – مِنْ ذِكْرِكُمْ – حَزَنُ
وَأَفَـرَدَتْهُ اللَّيَالِـي مِـنْ أَحِبَّـتِهِ ... فَـبَاتَ يُنْشِـدُهَا – مِمَّـا جَنَى الزَّمَنُ –:
"بِـمَ الـتَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ! وَلاَ وَطَنٌ ! ... وَ لا نَدِيـم ! وَلاَ كَـأْسٌ ! وَ لاَ سَكَنُ !"

*** عند ابن شهيد[1]:**

رثاء قرطبة **(الكامل)**

مـا فِـي الطُّلُـولِ مِن الأَحِبَّةِ مُخْبِرُ ... فَمَـنِ الَّـذِي عَـن حالِهـا نَستَخْبِرُ ؟
لا تَسْـأَلَنَّ سِـوى الفِـراقِ فإنَّـهُ ... يُنْبِـيكَ عَـنهم أنْجَـدُوا أم أَغْـوَرُوا
جَـارَ الـزَّمانُ علَـيْهِمُ فَـتَفَرَّقُوا ... فِـي كُـلِّ ناحِـيَةٍ وبَـادَ الأَكْـثَرُ
جَـرَتِ الخُطُوبُ على محلِّ دِيارِهِم ... وعلَـيْهِمُ فَتَغَيَّـيرَتْ وتَغَـيَّرُوا
فَـدَعِ الـزَّمَانَ يصوغُ في عرصاتِهِم ... نُـوراً تكَـادُ له القُلُـوبُ تُـنَوَّرُ

---

(١) ديوان ابن شهيد، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٠٩-١١١، ١٢٧-١٥٤، ١٦٥-١٦٨.

فلمثلِ قُرْطُبةٍ يقلُّ بُكاءُ مَن ... يَبْكي بعَيْنٍ دَمْعُها متفجِّرُ

دارٌ أقالَ اللهُ عَثْرةَ أهْلِها، ... فتَبَرْبَرُوا وتَغَرَّبُوا وتَمَصَّرُوا

في كُلِّ ناحِيَةٍ فَريقٌ منهمُ ... مُتَفَطِّرٌ لفراقِها مُتَحَيِّرُ

عَهْدي بها والشملُ فيها جامِعٌ ... مِنْ أهْلِها والعَيْشُ فيها أخْضَرُ

ورياحُ زهْرَتِها تلوحُ عليْهِمُ ... بروائِحٍ يَفْتَرُّ منها العَنْبرُ

والدارُ قد ضَرَبَ الكَمالُ رِواقَهُ ... فيها وباعُ النقص فيها يَقْصُرُ

والقَوْمُ قد أمِنُوا تغيُّرَ حُسْنِها ... فَتَعَمَّمُوا بجَمالِها وتأزَّرُوا

يا طِيبَهُمْ بقُصُورِها وخُدُورِها ... وبُدُورُها بقُصُورِها تَتَخَدَّرُ

والقَصْرُ قَصْرُ بَني أُمَيَّةَ وافِرٌ ... من كُلِّ أمْرٍ والخِلافةُ أوْفَرُ

والزاهِريَّةُ بالمَراكِبِ تُزْهِرُ ... والعامِريَّةُ بالكَواكِبِ تُعْمَرُ

والجامِعُ الأعْلَى يغصُّ بكُلِّ مَن ... يتلو ويَسْمَعُ ما يَشاءُ ويَنْظُرُ

ومسالِكُ الأسْواقِ تشهد أنَّها ... لا يَسْتَقِلُّ بسالِكيها المَحْشَرُ

يا جَنَّةً عَصفَتْ بها وبأهْلِها ... رِيحُ النَّوى فتَدَمَّرتْ وتَدَمَّرُوا

آسَى عليْكِ مِن المَمات وَحَقَّ لي ... إذ لم نَزَلْ بكِ في حَياتِكِ نَفْخَرُ

كانَتْ عراصُكِ للمُيَمِّمِ مَكَّةً ... يأوِي إلَيْها الخائفُون فيُنْصَرُوا

يا مَنْزِلاً نَزَلَتْ به و بأهْلِه ... طَيْرُ النَّوى فتَغَيَّرُوا وتَنَكَّرُوا

جادَ الفُراتُ بساحَتَيْكِ ودِجْلَةٌ ... والنِّيلُ جادَ بها وجادَ الكَوْثَرُ

وسُقِيتِ مِن ماءِ الحَياةِ غمامةٌ ... تحيا بها منكِ الرِّياضُ وتُزْهِرُ

أسَفِي على دارٍ عَهِدْتُ ربوعَها ... وظِباؤُها بفنائِها تَتَبَخْتَرُ

أيّامَ كانَتْ عَيْنُ كُلِّ كَرامةٍ ... مِن كُلِّ ناحِيَةٍ إلَيْها تَنظُرُ

أيّامَ كانَ الأمْرُ فيها واحِداً ... لأمِيرِها وأمِيرِ مَن يتأمَّرُ

أيّامَ كانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلامةٍ ... تسمو إلَيْها بالسَّلامِ وتَبْدُرُ

حَزَنِي على سَرَواتِها ورُواتِها ... وثِقاتِها وحُماتِها يَتَكَرَّرُ

نَفْسِي على آلائِها وصفائِها ... وبَهائِها وسَنائِها تَتَحَسَّرُ

كَبِدِي على عُلَمائِها حُلَمائِها ... أُدَبائِها ظُرَفائِها تَتَفَطَّرُ

على باب اليهود

(المتقارب)

لقد أطْلَعُوا عِنْدَ بابِ اليَهُو ... دِشَمْساً أَبَى الحُسْنُ أنْ تُكْسَفَا

تَراهُ اليَهُودُ على بابِهَا ... أَميراً فَتَحْسَبُهُ يُوسُفَا

في نية الهروب إلى ما لقة

(الطويل)

أرى أعْيُناً تَرنُو إليّ كأنَّما ... تُسَاوِرُ منها جانبيَّ أراقِمْ

أدور فلا أعْتامُ غير مُحَارِبٍ ... وأسْعَى فلا أَلْقَى أمرءاً لي يُسالِمُ

ويجْلِبُ لي فَهْمِي ضُروباً مِن الأذَى ... وأَشْقَى أمْرِىءٍ في قَرْيَةِ الجهْلِ عالِمُ

وأَوْجَعُ مَظْلُومٍ لقَلْبٍ وذِي حِجىً ... فَتى عَربيٌّ تَزدريه أعاجِمُ

غَنِيتُمُ، على ما تزعمُونَ، عن الورى ... لقد سَفِهَتْ تِلْكَ الحُلُومُ الزَّوَاعِمْ

وهل يُقْدِمُ البازِي على الطَّيْرِ في الضُّحى ... إذا زالَ عن رِيشِ الجناحِ القَوادِمُ

سَلامٌ علَيْكُم لا تَحِيَّةَ شاكِرٍ ... ولَكِنْ شَجىً تَنْسَدُّ منه الحلاقِمْ

وما قُرِعَتْ سِنى علَيْكُم نَدامةً ... وأوشِكُ غَداً أنْ يَقْرعَ السِّنَّ نادِمُ

علَيْكُم بدارِي فاهْدِمُوها دعائِماً ... ففي الأرْضِ بَنَّاءُونَ لي ودَعائِمُ

لئِن أخْرجتْنى عنكُم شرٌّ عُصْبة ... ففي الأرْضِ إخْوانٌ علىّ أكارِمُ

وإنْ هَشَمَتْ حقِّى أُمِيَّةُ عِنْدها ... فهاتا على ظهْرِ المحجّةِ هاشِمُ

ولا غرو مِن تَرْكِ القَلانِسِ جانِباً ... إذا عرفَتْ حَقِّي هُناكَ العمائِمِ

ولمّا فَشا بالدَّمْعِ مِنْ سِرِّ وجْدِنا ... إلى كاشِحِينا ما القُلُوبُ كواتِمْ

أمَرْنا بإمْساكِ الدُّمُوعِ جُفُونَنا ... لِيَشْجى بما تطوِى عَذُولٌ ولائِمْ

فظَلَّتْ دُمُوعُ العيْنِ حيْرى كأنَّها ... خِلالَ مآقِينا لآلٍ توائِمِ

أبىَ دَمْعُنا يَجْرِى مَخافةَ شامِتٍ ... فَنَظَّمهُ بَيْنَ المحاجِرِ ناظِمْ

وراقَ الهَوى مِنَّا عُيُونٌ كَرِيمةٌ ... تَبسَّمْنَ حتى ما تَرُوقُ المباسِمْ

مديح عبد العزيز المؤتمن

(الكامل)

هاتِـيكَ دارُهُـمُ فقِـفْ بمَغَانِهـا ... تَجِـدِ الدُّمُـوعَ تَجِـدُّ فـي هَمَلانِهَـا
عُجْـنَا الـرِّكابَ بِهـا فَهَـيَّجَ وَجْدَنَا ... دمَـنٌ ذَعَـرْنَ السِّـرْبَ مِـن إدْمَانِهَـا
دارٌ عَهِـدْتُ بِهـا الصِّـبا لِي دَوْحَةً ... أَتفـيَّأُ الفَـرَحاتِ مِـن أَفْـنَانِهَا
أَرْعَـى علـى بَقَـرِ الأَنِيسِ بجَوِّها ... وأُحكِّـمُ الصَّـبَواتِ فـي غِـزْلانِهَا
وإذا تَهَـادَتْ بالشُّـمُوسِ نَوَاعِمـاً ... فـيها الغُصُـونُ جَنَيْـتُ مِـن رُمّانِهَـا
قَضَـتِ الـنَّوَى بذِيـادِ رُجَّحِ عِينِهِمْ ... ظُلْمـاً وكـانَ الدَّهْـرُ مِـن أَعْوَانِهَـا
زَجَـرُوا اغْـتِراباً مِن نَعِيبِ غُرابِهِمْ ... وقَضَـوا بِبَيْـنٍ مِـن مُغَـرِّدِ بانِهَـا
فـبَدا لهـم وَجْـهُ الفِـرَاقِ مُوَقَّحـاً ... آتٍ علـى خَـبَرِ الـنَّوَى بِعِـيانِهَا
يَقْذِفْـنَ دُرَّ الدَّمْـعِ فـي يَوْمِ النَّوَى ... عَـن جُمَّـةٍ لَعِـبَ الأَسَـى بجُمانِهَـا
وَدَّعْـتُهُمْ وزِنَـادُ قَـدْحٍ فـي الحَشَا ... دُونَ الضُّـلُوعِ يَشُـبُّ مِـن نِـيرانِها
وأَسَـلْتُهَا ذَوْبَ الجُفُـونِ كَأَنَّهَـا ... أَيْـدِي بَـنِي المَنْصُـورِ فـي سَـيَلانِهَا
يـا صـاحِبَيَّ إذا وَنَـى حادِيكُمَـا ... فَتَنَشَّـقَا الـنَّفَحَاتِ مِـن ظَـيَّانِهَا
وخُـذَا لمُرْتَـبَعِ الحِسَـانِ فـرُبَّمَا ... شَـفَعَ الشَّـبَابُ فصُـرْتُ مِـن أَخدانِهَا
عَـاوَدَتُ ذِكْرَ العَيْشِ فيه وما انْقَضَى ... مِـن صَـبْوَتِي، وطَوَيْـتُ مِـن أَزْمانِهَا
فَبَكَيْـتُ مِـن زَمَـنٍ قَطَعْتُ مَراحِلاً ... وشَـبِيبَةٍ أَخْلَقْـتُ مِـن رَيْعَانِهَـا
ورَعَيْـتُ مِـن وَجْـهِ السَّمَاءِ خَمِيلَةً ... خَضْـرَاءَ لاحَ الـبَدْرُ مِـن غُدْرانِهَـا
وكـأَنَّ نَـثْرَ الـنَّجْمِ ضَـأْنٌ وسْطَهَا ... وكأَنَّمَـا الجَـوْزاءُ راعِـي ضَـانِهَا
وكأَنَّمـا فـيه الـثُّرَيّا جوْهَـرٌ ... نَـثَرتْ فَـرَائِدَهُ يَـدا دبـرانِهَا
وكانَّمـا الشِّـعْرَى عقِـيلَةُ مَعْشَـرٍ ... نَزَلَـتْ بـأَعْلَى النَّسْـرِ مِـن وِلدانِهَـا
وكأَنَّمـا طُـرُقُ المَجَـرَّةِ مِـنْهَجٌ ... للعامِـرِيَّةِ ضَـاءَ مِـن فِيـنانِهَا
المعْجِلِيـن عِداتَهُـمْ بِـرِماحِهِمُ ... والجاعِلِيـن أَلْهَـامِ مِـن تِـيجانِهَا
أَسْـرَى لهـم بالخَـيْلِ حـتَّى خَيَّلُوا ... أَنَّ الجِـبالَ رِمَـتْهُمُ بِـرِعانِهَا
ورمَـى العِـدَى بكَتَائِبٍ مِلءَ الفَضا ... أَغْمَـدْنَ نَصْـلَ الصُّـبْحِ فـي رِهَجانِهَا
مِـن كُـلِّ سَـلْهَبَةٍ تَطِـيرُ بِـأَرْبَعٍ ... يُنْسِـيكَ مُؤْخَـرُهَا الْـتِماحَ لَـبانِهَا
نَشَـأُوا بزاهِـرَةِ المُلُـوكِ ومائِهَـا ... وكَـأَنَّهُمْ نَشَـأُوا علـى غَسَّـانِيَا
وأَرَتْهُـمُ العُـرْبُ الكِـرامُ مِصاعَهَا ... فَـتَعَلَّمُوا مِـن ضَـرْبِهَا وطِعانِهَـا

******

أنـا طَوْدُهَـا الرّاسِـي إذا مـا زَلْزَلَتْ ... أَيْـدِي الحـوادِثِ مِـن فُؤادِ جبانِهَا

وعلـى للصَّـبْرِ الجمِـيلِ مُفاضَـةٌ ... زَغْـفٌ أَفَّـلُ بهـا شَـباةَ سِـنانِهَا

وكأَنَّنِـي لمّـا كَرُمْـتُ وقـد شَـكَتْ ... أَرْضِـى الحوادِثَ غِبْتُ مِن حدثانِهَا

والـنَّفْسُ نَفْـسُ مِـن شُـهَيْد سِـنْخُها ... سِـنْخٌ غَـذَتْ مـنه العُـلا بلِـبانِهَا

مـا احْـولَّ نَحْـوِى لَحْظُ مُقْلَةِ ساخِطٍ ... إلاَّ وضَـعْتُ السَّـهْمَ فـي إنْسـانِهَا

ولَـوْ أَنَّـهُ نَطَـحَ الـنُّجُومَ بقَـرْنِهِ ... كُنْـتُ الزَّعِـيمَ له بـنَحْسِ قِـرانِهَا

وقَضَـتْ بعِـزِّ الـنَّفْسِ مِـنِّى دوْحَـةٌ ... مِـن عامِـرٍ أصْبَحْتُ مِن أَغْصانِهَا

يـا ابْـن الأَبـالِجِ مِـن مَعافِرَ والَّذِي ... أَرْبَـى يـزِيدُ علـى عُـلا بُنْـيانِهَا

أَعْلَـى كِـتَابُك فـي مُهِمِّـى حُرْمِـتى ... وجـلا جوابُـك مِن دُجى حِرْمانِهَا

فَلَيطْلُعـنَّ إلَـيْك مِـن زَهـرِ الحِجـا ... أَبْكَـارُ شُـكْرٍ لُحْـن فـي إبّانِهَـا

حُـرُّ القَوافِـى مـاجِدٌ فـي أَهْلِهَـا ... الشِّـعْرُ عـبْدٌ فـي بـنِى عُـبْدانِهَا

مـدح المُلُـوكَ وكـان أَيْضـاً مـنهُمُ ... ولقـد يُـرى والشِّـعْرُ مِن ذُؤبانِهَا

أَمْسـى الفَـرزْدَقُ كُفْؤَهـا فـي حوْكِهِ ... وجـرى القَضـاءُ لها على صَلَتَانِهَا

حُبُّه لقرطبة (المتقارب)

عجُـوزٌ لَعَمْـرُ الصِّـبا فانِـيهْ ... لهـا فـي الحشَـا صُـورةُ الغانِيهْ

زَنَـتْ بالـرِّجالِ علـى سِـنِّها ... فَياحَـبَّذَا هِـي مِـن زانِـيهْ

تُـريك العُقُـول علـى ضَـعْفِهَا ... تُـدارُ كمـا دارتِ السّـانِيهْ

فقـد عنِيـتْ بهَواهـا الحُلُـو ... مُ فهْـى براحَـتِهَا عانِـيهْ

تَقَاصَـرُ عـن طُولِهَـا قُونَكَـةٌ ... وتَـبْعُدُ عـن غُـنْجِهَا دانِـيهْ

تَردَّيْـتُ مِـن حُـزْنِ عيْشِـى بهـا ... غَـراماً فَـيا طُـول أَحْزَانِـيهْ

* وعند ابن أبي الخصال[1] (الطويل)

سـمتْ لَهُـم بـالغَوْرِ والشَّـمْلُ جامعُ بُـروقٌ بـأعلامِ العُذَيْـبِ لَوامِـعُ
فباحَـتْ بأسـرارِ القُلـوب المُدَامِـعُ ورُبَّ غَـرامٍ لـمْ تَـنَلْهُ المَسـامِعُ

أذاعَ به مُرفَضُّها المتصوّبُ

ألا فـي سَـبيل الشَّـوق قلـبٌ موكّلُ بركـبٍ إذا شَـامُوا البروقَ تَحَمَّلُوا
هـو المـوتُ إلاّ أنّنـي أتجَمَّـلُ إذ قلـتُ: هـذا مَـنْهَلٌ، عنَّ مَنْهَلُ

ورايةُ برقٍ نحوَها القلبُ يجنبُ

خُـذوا بِدَمـي ذاكَ الوميضَ المُضَرَّجا ورَوْضـاً لقـبضِ العاشِـقين تأرَّجا
عفـا الله عـنهُ قـاتلاً مـا تحـرَّجا تمشّـى الـرَّدى فـي نشرِه وتَدرّجا

وفي كُلِّ شَيْءٍ للمنيّة مَذْهَبُ !

أفـي الله، أمّـا كـلّ بعـد فثابـتُ وأمّـا دُنـوُّ الـدّارِ مـنهمْ ففائـتُ
ولا يلفـتُ البيـنَ المُصَـمِّمَ لافِـتُ ويـا رَبّ حـتّى الـبارقُ المتهافتُ

غرابٌ بتفريقِ الأحبَّةِ ينعَبُ!

سـقى اللهُ عهـداً قـد تقلَّـصَ ظلُّـه حـيا نضـرةٍ يُحْيـي الرُّبا مُسْتَهِلُّه
وحَـيّى بـه شَخْصـاً كـريماً أُجِلُّـه يُصِـحُّ فـؤادي تـارةً ويُعِلُّـه

ويلأَمهُ بالذّكر طوراً ويَشْعَبُ

رَمانـي علـى فـوتٍ بشـرخِ ذكائـه فأعشـتْ جُفونـي نظرةٌ من ذُكائِه
وغصّـت بـأدنى شُـعبةٍ مـن سَمائه شِـعابي وجـاءَ الـبحرُ في غُلوائِه

فكلُّ قَرِيٍّ ردع حدّيه يركبُ

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: الكاتب الفقيه أبو عبدالله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان، الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٥١٢-٥٢٢.

ألَـــم يأتـــه أنّـــي ركبـــتُ قَعُـــودا وأجمَعْـتُ عـــن وَفْـــدِ الكَلامِ قُعُودا
وأرْهقنـــي هـــذا الـــزّمانُ صَـــعُودا ولـــم أعتصـــر للذكـــر بعدك عودا

فرَبْعُ الذي بينَ الجَوانحِ سَبْسَبُ

علـــى تلـــكَ مـــن حـــالٍ دعوتُ سميعا وذكَّـــرْتُ رَوضـــاً بالعُقـــابِ مَرِيعا
وشَـــمْلاً بشـــعب المذحجـــيّ جمَـــيعا وسِـــرْباً بأكـــنافِ الرُّصـــافةِ ريعـــا

وأحداق عين بالحِمَامِ تَقَلَّبُ

ولم أنْس مَمْشانا لى "القَصْرِ ذي النُّخْلِ" بحيـــثُ تجافى الطُودُ عن دَمِثٍ سَهْلِ
وأشْـــرَف لا عـــن عُظْم قَدْرٍ ولا فضْلِ ولكـــنَّهُ للْمُلْـــكِ قـــامَ علـــى رِجْـــلِ

يقيهِ تَبَاريحَ الشّمال ويحجبُ

فكـــم مُوجـــعٍ ينـــتابُه برَسِيْســـهِ ومُعتـــبرٍ ألْقـــى بـــأرحُلِ عيسِـــهِ
يَـــرى أُمَّ عمـــرو فـــي بَقايـــا دَرِيســـهِ كسَـــحْقِ اليَمانِـــي مُعتلِـــيه نفيسِـــهِ

ورُقعتهُ تَسْبِي العيونَ وتُعجِبُ

ببيضـــاءَ للبـــيضِ البَهالـــيلِ تَعْـــتَزِي وتعـــتُز بالبانِـــي جَـــلالاً وتَنْـــتَزِي
ســـوى أنَّهـــا بعـــد الصَّـــنيع الْمُطَرَّزِ كسَـــاها الـــبِلى والثُّكل اسمالَ مُعْوِزِ

فتَبْكِي وتُبْكِي الزّائرين وتندبُ

وكـــم لـــكَ بالزَّهْـــراءِ مـــن مُـــتَرَدّدٍ ووقفـــةِ مُســـتَنٍّ الْمَدامـــعِ مُقْصَـــدِ
يُســـكّنُ مـــن خَفْـــقِ الْجَوانـــحِ بالـــيدِ ويهـــتكُ حُجْـــبَ النّاصـــرِ بن مُحَمَّدِ

ولا صَولة تُخشى هناكَ وتُرْهَبُ !

كـــأنْ لـــم يكن يُقْضى بها النَّهْيُ والأمْرُ ويُجبـــي إلـــى خُـــزّانِها البَرُّ والبَحْرُ
ويُسْـــفرُ مَخْفُـــوراً بذمّـــتها الفَجْـــرُ ويوسَـــمُ مَخْـــتُوماً بطينَـــتِها الدَّهْـــرُ

فأيّامُه تُعْزى إليها وتُنْسَبُ

لَـــنِعْمَ مقـــامُ الخاشِـــعِ الْمُتَنَسِّـــكِ وكانـــت محـــلَّ العَبْشَـــمِيِّ الْمُمَلَّـــكِ
مـــتى يُـــوردِ الـــنَّفْسَ العزيـــزةَ تُسفَكِ وإن يَسْـــم نحـــو الأبْلَقِ الْفَرْدِ يُمْلَكِ

وأيُّ مَرامٍ رامَهُ يتَصَعَّبُ ؟

أتاهـــا علـــى رَغـــمِ الجِـــبالِ الشَّواهِقِ وكُـــلِّ مُنـــيفٍ للـــنُّجومِ مُـــراهِقِ
وكـــمْ دَفعـــتْ بالصَّـــدرِ مـــنهُ بعـــائقٍ فـــأودِعَ فـــي أحشـــائِها والْمَفـــارقِ

حُساماً بأنْفاسِ الرِّياحِ يُذَرَّبُ

هـــي الْخَـــوْدُ مـــن قَرْنٍ إلى قَدَمٍ حُسْنا تناصَـــف أقْصاها جَمالاً مع الأدْنى
ودُرِّج كـــالأفلاكِ مَبْـــنىً علـــى مَبْـــنى تَوافَقْـــنَ في الإتقانِ واختلفَ الْمَعْنى

وأسبابُ هذا الْحُسْنِ قد تتشَعَّبُ

كـــم احتضَـــنَتْ فـــيها القِيانُ الْمَراهِرا وكـــم قَدْ أجابَ الطَّيْرَ فيها المَزامِرا
وكـــم فاوَحـــتْ فيها الرِّياضُ المَجامِرا وكـــم شَـــهِدَتْ فـــيها الفراقدُ سامِرا

عليهِمْ من الدُّنيا شُعاعٌ مُطَنَّبُ

فأيـــنَ الشُّـــموسُ الطالعـــاتُ بِهـــا لَيْلا وأيـــنَ الظِّـــباءُ السّـــاحباتُ بهـــا ذَيْلا
وأيـــنَ الغصـــون المائســـاتُ بها مَيْلاً وأيـــنَ الثَّرى رَجْلاً وأين الحَصى خَيْلا

فواعَجَباً لو أنّ من يتَعجَّبُ !

ومـــا لـــكَ عـــن ذاتِ القِسِيِّ النَّواضحِ وناصِـــحَةٍ تُعـــزى قَديمـــاً لناصِـــحِ
وذي أثَـــرٍ بـــاقٍ علـــى الدَّهْـــرِ واضحِ يُخَـــبِّرُ عـــن عَهْـــدِ هُـــنالِكَ صالحِ

ويَعْمُر ذِكرى الذّاهبينَ ويخربُ

تلاقـــى علـــيهِ فـــيضُ نهـــرٍ وجَـــدْوَلِ تصـــعَّد مـــن سُـــفل وأقبلَ من عَلِ
وهـــذا جُنوبـــيٌّ وذلـــكَ شَـــمْأَلِي ومـــا اتَّفقـــا إلاّ علـــى خَـــيْرِ مَنْزِلِ

وإلاّ فإنّ الفَضْلَ فيهِ مُجَرَّبُ !

كأنَّهُمـــا فـــي الطّيـــب كانَـــا تَـــنافَرا وســـارا إلـــى فَصْل القَضاءِ وسافَرا
فلَمّـــا تلاقـــى السّـــابقان تَـــناظَرا فقـــالَ ولِـــيُّ الحـــقّ: مَهْلاً تضَافرا

فَكُلّكما عَذْبُ المُجاجَةِ طَيّبُ

ألَـــم تعلمـــا أنّ اللّجـــاجَ هـــو المَقْـــتُ وأنَّ الّـــذي لا يقـــبل النَّصْفَ مُنبَتُّ
ومـــا مـــنكُما إلاّ لَـــهُ عـــندَنا وَقْـــتُ فلَمّـــا اسْـــتَبان القصدُ واتَّجَه السَّمْتُ

تَقشَّعَ عن نُور المودَّةِ غَيْهَبُ

وإنَّ لـــــنا بالعَامِـــــريِّ لَمَظْهَـــــرا ومُستَشْـــرفاً يُلْهِـــي العُيونَ ومَنْظَرا
ورَوْضـــاً علـــى شَطَّيْ خُضارة أخْضَر وجَوْسَـــقَ مُلْـــكٍ قـــد عَـــلا وتجَبَّرا

لَهُ ترَةٌ عندَ السِّماكين تُطْلَبُ

تَخـــيَّرَهُ مـــن عُـــنفوانِ المَـــوارِدِ وأثْبَـــتَهُ فـــي مُلْـــتَقى كُـــلِّ وارِدِ
وأبْـــرَزَهُ للأَريَحِـــيِّ المُجـــاهِدِ وكُـــلِّ فَـــتىً عـــن حَوْمَةِ الدّين ذائِدِ

حَفيظَتُهُ في صَدْرِهِ تَتَلَهَّبُ

تَقَـــدَّمَ عـــن قَصْـــرِ الخِلافَـــةِ فَرْسَـــخا وأصْـــحَرَ في الأرضِ الفَضاءِ لِيُصْرخا
فخالَـــتْهُ أرضُ الشِّـــركِ فـــيها مُـــنَوِّخا كذلـــك مـــن جـــاس الدّيـــارَ ودوَّخـــا

فرَوْعَتُهُ في الأرْضِ تَسْرِي وتَذْهَبُ

أُولـــئك قـــومٌ قـــد مَضـــوا وتصرَّعُوا قضَوْا ما قضَوْا من أمْرِهِم ثمّ وَدَّعُوا
فهـــلْ لَهـــمُ رُكـــنٌ يُحَـــسُّ ويُسْـــمَعُ تـــأمَّلْ، فهـــذا ظاهـــرُ الأرضِ بَلْقَعُ

ألا إنَّهُم في بَطْنِها حيثُ غُيِّبُوا !

ألسْـــتَ تَـــرى أنّ المُقـــامَ علـــى شَـــفا وأنّ بَـــياضَ الصُّـــبح ليس بذي خَفا
وكَـــم رَسْـــم دَارٍ للأحـــبَّةِ قـــد عَفَـــا وكـــانَ حديـــثاً للوفـــودِ مُعَـــرِّفا

فأصبحَ وحْشَ المُنتدى يُتجَنَّبُ

ولله فـــي الـــدَّارات ذاتِ المَصـــانعِ أخِـــلاَّءُ صِـــدْقٍ كالـــنُّجومِ الطَّوالِعِ
أُشَـــيِّعُ مِـــنهم كـــلَّ أبـــيضَ ناصِـــعٍ وأرجـــعُ حـــتَّى لســـتُ يوماً بِراجعِ

فيالَيْتَني في فُسْحَةٍ أتأهّبُ !

أقُرطُـــبَةٌ لـــم يَثْنِنـــي عـــنكِ ســـلوانُ ولا بَعْـــدَ إخوانـــي بمغـــناكِ إخْوانُ
وإنِّـــي إذْ لـــم أُسْـــقَ مـــاءَك ظمـــآنُ ولكـــنْ عَدانـــي عنكِ خَطْبٌ له شانُ

ومَوطِىءُ آثارٍ تُعَدّ وتُكتَبُ !

لـــكِ الحَـــقُّ والفضْـــلُ الذي ليسَ يُدْفَعُ وأنـــت لِشَـــمْسِ الدِّين والعِلْمِ مَطْلَعُ
ولـــولاكِ كـــان العِلْـــمُ بـــالجهل يُرفَعُ وكُـــلُّ الـــتُّقى والهَدْيِ والخيرِ أجمعُ

إليك تَناهى، والحسودُ مُعَذَّبُ !

ألـــم تَـــكُ خُصَّـــتْ باخْتِـــيار الخَلائِف ودانَـــتْ لَهُـــمْ فـــيها مُلوكُ الطَّوائف
وعَـــضَّ ثِقـــافُ المُلْـــكِ كُـــلَّ مَخالِفٍ بكـــلِّ حُســـامٍ مُـــرْهَفِ الحدِّ راعِف

به تُحقَنُ الآجالُ طَوْراً وتُسكَبُ

إلـــى مُلْكِهـــا انقـــادَ المُلـــوك وسَـــلَّمُوا وكَعْبَـــتَها زارَ الوُفـــودُ ويَمَّمُـــوا
ومـــنها اســـتَفادوا شَـــرْعَهُم وتعلَّمُـــوا وعـــاذُوا بهـــا من دَهْرِهِمْ وتحرَّمُوا

فنَكّب عَنْهُم صرفُهُ المُتَسَحِّب

علـــوتِ فَمـــا في الحُسْنِ فوقك مُرْتَقى هَـــواؤُك مخـــتارٌ وتُـــرْبُك مُنْـــتَقى
وجِسْـــرُك للدُّنـــيا وللدّيـــن مُلْـــتَقى وبيـــتُك مـــرفوعُ القَواعِـــدِ بالـــتُّقى

إلى فضْلِه الأكْبادُ تُنْضى وتُضْرَبُ

تَولّـــى خـــيار التَّابعيـــنَ بـــناءَهُ وخَطُّـــوا بأطـــرافِ العَوالـــي ثَناءَهُ
ومَـــدُّوا طويـــلاً صِـــيتَهُ وثَـــناءَهُ فـــلا خلـــعَ الإســـلامُ عـــنه بهـــاءَه

ولا زَالَ سعْيُ الكائِديهِ يُخَيَّبُ !

ألا لَيْتَ شِعري هل تَخُبُّ رِكابُ ... وهَل يتَقاضى النَّازحينَ إيابُ
وهَل لِلَّيالي المُذْنِباتِ مَتابُ ... ألا إنَّه بَعْدَ المَشيبِ شَبابُ

وعُمْرٌ إلى رأدِ الغَرارة يُقْلَبُ

وكنتَ على عَهْدِ الرِّضى والهوى مَعِي ... فيا صاحِي إن حانَ قَبْلَك مَصْرَعِي
وذَرْني فجارُ القَوْمِ غَيْرُ مُروَّعِ ... فخُطَّ بضاحِي ذلك التُّرْبِ مَضْجَعِي

فَعِنْدهمُ للجارِ أهْلٌ ومَرْحَبُ

رَعى اللهُ مَنْ يَرعَى العُهودَ على النَّوى ... ويبدو على القَوْلِ المُحبِّرِ ما نَوى
ولبَّيْهِ من مُستحكمِ الوُدِّ والهَوى ... يرى كلَّ وادٍ غَيْرَ واديهِ مُجْتَوى

وأهْدى سَبِيليهِ الَّذي يُتَنكَّبُ

وعند ابن دراج القسطلي: **(الكامل)**

قُلْ للرَّبيع اِسْحَبْ مُلاءَ سَحائِبِ ... فاجْزُرْ ذُيُولَكَ في مَجَرِّ ذَوائِبي
لا تُكْدِيَنَّ ومن ورائك أدْمُعي ... مَدَداً إلَيكَ بفَيضِ دمْع ساكبِ
وصَبابَةٌ أنفاسُها لَكَ أسْوةٌ ... إنْ ضَاقَ ذَرْعُكَ بالغَمامِ الصَّائِبِ
وامزِجْ بطيبِ تَحيتَّي غَدِقَ الحَيَا ... فاجْعَلْه سَقْيَ أحبَّتي وحَبائِبي
عَهْداً كَعَهْدِك من عِهادِ طالما ... كَسَتِ البُرُودَ معاهِدي ومَلاعِبي
واجْنَحْ لِقُرْطُبَةٍ فعَانِقْ تُرْبَها ... عَنِّي بِمِثْلِ جوانحي وتَرائِبي
حيثُ اسْتَكَانتْ للعَفَاءِ منازِلي ... وهَوَتْ بأفلاذِ الفُؤادِ نَجَائِبي
ذُلُلاً تَعَسَّفْنَ الدُّجى بأذِلَّةٍ ... ولواغِباً جُبْنَ الفَلاَ بلواغِبِ
وكواكِبٌ ناءَتْ بقِربَتِها النَّوى ... فقَضَتْ مدامعُها بنَوءِ الغَارِبِ
من كُلِّ مَفجُوعٍ بتُرْحةِ راحِلٍ ... لم يُسْلِهِ طَمَعٌ بفَرْحَةِ آيِبِ
كذَبَتْهُ بارِقَةُ المُنى عن صادِقٍ ... من ظَنِّهِ وصَدَقْنَهُ عن كاذِبِ
ظُعُنٌ سَرَيْنَ اللَّيلَ ضَرْبَةَ لازِمٍ ... وسَرَى إلَيها الهَمُّ ضَرْبَةَ لازِبِ
جَمَدَتْ عليهِنَّ القُلوبُ فأسْبَلَتْ ... فَوْقَ المحاجِرِ كُلَّ قَلْبٍ ذائِبِ

وتَخَازَرَتْ عنها العُيُونَ فأبْرَزَتْ ... عن أعْيُنٍ بدمَائِهِنَّ سَوَاكِبِ

وَتَقَطَّعَتْ أسبابُهُنَّ لِطِيَّةٍ ... وَصَلَتْ بِهِنَّ سباسباً بسباسِبِ

يَطْلُبْنَ شَأْوَ غرائبٍ لِيَ كُلَّمَا ... نأتِ البلادُ حَلَلْنَ غَيْرَ غَرَائِبِ

لَحِقَتْ بأسْبَابَ السَّمَاءِ فأُعْطِيَتْ ... فيها خُلُودَ أهلَّةٍ وكَوَاكِبِ

وأعَدَّتِ الأزْمَانُ مَاءَ شَبابِها ... لِحُنُوّ ظَهْرٍ أو لِرَأْسٍ شائِبِ

وعَقَدْنَ بالأبدِ الأبيدِ وإنْ نَأى ... حِلْفَيْنِ: حِلْفَ مُسَايِرٍ ومُعَاقِبِ

ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً وتقاذَفَتْ ... أمواجُه بشَمَائِلٍ وجَنَائِبِ

هَدَماً إلى هَدَمٍ وحِفْظَ دَمٍ دَماً ... حَدَبٌ بعَطْفِ مُشَاكِهٍ ومُنَاسِبِ

زُهْرٌ طوالِعُها لِكُلِّ غَدٍ غَدٍ ... وجَزاؤُها رَهْنٌ بأمْسِ الذَّاهِبِ

تَشْدُو بها خُضْرُ الحَمَامِ وَحَظُّها ... عَنْقَاءُ ريعَتْ بالغُرَابِ النَّاعِبِ

حَلَّيْتُهَا الأرْضَ الَّتي هِيَ فارِكِي ... وكَسَوْتُها الدَّهْرَ الذي هُوَ سالِبِي

ومَلأتُ منهنَّ العُقُولَ عَجَائِباً ... ولَنَقْصُ حَظِّي مِنْ تَمَامِ عَجَائِبِي

مَيْتُ الرَّغَائِبِ والمَسِيحُ مُوَرِّثِي ... إحْياءَ آثاري وخُلْدَ مَنَاقِبِي

بِشَوَارِدٍ في الأرْضِ غيرِ أو ابدِ ... وطوالِعٍ في الجَوِّ غَيْرِ غَوارِبِ

ولقد قَضَيْتُ من الصَّبابَةِ حَقَّها ... فَقَضَتْ من الأمَلِ البعيدِ مآربي

قَنَّعْتُها الصَّبْرَ الجَميلَ فَأسْفَرَتْ ... في آلِ "يَحْيى" عن جميلِ عواقِبِ

وشَدَدْتُ عَقْدَ خِتامِها فاسْتَفْحَتْ ... بمكارِمِ "المنصورِ" ضِيقَ مَذَاهِبِي

فَهَلَ انتَ يا زَمَنَ الرَّبِيعِ مُبَلِّغٌ ... بالمَغْرِبَيْنِ أحِبَّتِي وأقاربِي

أنَّ الرَّبِيْعَ لَدَيَّ شِيمةُ قاطِنٍ ... وحَيا الغمامِ عَلَيَّ ديمَةُ دائِبِ

من بعدِ ما غَمَّ الصَّباحُ لِناظِري ... واشْتَفَّ مِنِّي الجَبْرُ جَرْعَةَ شارِبِ

وأنِسْتُ بالأهْوَالِ حَتَّى لَمْ أُبَلْ ... أَلِقَاءُ أسْدٍ أمْ لقاءُ ثَعَالِبِ

كَمْ أنْشَبَتْ فِيَّ الخُطوبُ مخالِباً ... حتى انْثَنَتْ عَنِّي بغيرِ مخالِبِ

وشَفَيْتُ سُمَّ عَقَارِبٍ بأساوِدٍ ... ودَفَعْتُ سُمَّ أساوِدٍ بعقارِبِ

حتَّى نَزَفْنَ سُمومَهُنَّ فلَمْ يُرَعْ ... من نافِثاتِ السُّمِّ ليلَ الحاطِبِ

وسُدْكتُ بالغَمَرَاتِ حتى بَلَّدَتْ ... فَرَمَيْنَ حَبْلِيَ فوقَ ذِرْوَةِ غارِبِ

وتداركَتْنِي ذِمَّةٌ مِن يَعْرُبٍ ... مَطَرَتْ عَلَيَّ ثِمارَ جَنَّةِ مأرِبِ

فهـــناكَ أنْصَـــلْتُ الأسِـــنَّةَ وانْـــتَحى ... ســـيفي بهـــا مَسْـــحاً بسُـــوقِ ركائِبِـــي
ورفَعْـــتُ نـــاراً للعـــيونِ وقودُهـــا ... أقْـــتَابُ أحْداجِـــي وَوَقْـــرُ حقائِبِـــي
نِعَـــمٌ تكـــاد تَـــرُدُّ أيَّـــامَ الصِّـــبا ... وتُعـــيْد أزْمَـــانَ النَّعـــيمِ الذَّاهِـــبِ
أيَّـــامَ ألقـــى الصُّـــبْحَ تِـــزْبَ كواكِـــبٍ ... أدَبّـــاً وأُحَيـــي اللَّـــيْلَ خِلْـــبَ كواعِـــبِ
والمَكْـــرُمَاتُ منازِلـــي ومشـــاهِدِي ... والمُقْـــرَبَاتُ مراكِبـــي ومَرَاقِبـــي
إذْ أنْـــتَ يـــا زَمَـــنَ الرَّبِـــيعِ مُخَـــيِّمٌ ... فـــي ســـاحِلي ومُغَـــيِّمٌ مـــن جانِبِـــي
عـــبِقُ الـــرَّوائِحِ مِـــن نَثِـــيرِ غدائِرِي ... غَـــدقٌ السَّـــحائِبِ مِـــن فُضُول مشارِبِي
وتـــرُوحُ مُغْتَـــبِقاً شَـــمُولَ شـــمائِلِي ... وتعُـــودُ مُصْـــطَبِحاً ضَـــرِيبَ ضَرائِبِي
نَغْـــدُو فَتَسْـــتَمْلِيَ بديـــعَ محاسِـــني ... وتَـــرُوحُ تَسْـــتَقْرِي نفـــيسَ غرائِبِـــي
وتبيـــتُ تنشُـــرُ فـــي الأبَـــاطِحِ والرُّبى ... زَهْـــرَاً يُخَـــبِّرُ عـــنك أنَّـــكَ كاتِبِـــي
ممَّـــا تَـــرفُّ بِـــه ريَـــاضُ حدائِقـــي ... ويُفِـــيضُ جَوْهَـــرَهُ عُـــبابُ غواربِـــي
فَنَظَمْـــتُها فـــي كُـــلِّ أُفْـــقٍ نـــازِحٍ ... وبعَثْـــتَها مَـــعَ كُـــلِّ نَجْـــمٍ ثاقِـــبِ
ونَظَمْـــتُ يـــا "مَنصورُ" ذكْرَكَ وَسْطَها ... نَظْـــمَ العُقُـــودِ علـــى تَرَائِـــبِ كاعِـــبِ
ذِكْـــرٌ علـــى الأَلْـــبَابِ أكْـــرَمُ نـــازِلٍ ... وعَلـــى فِجـــاجِ الأرْضِ أوْضَـــحُ راكِبِ
سُـــوِّر لمَجْـــدِكَ رَفَّعَـــتْ آياتِهـــا ... أعْـــلامُ آدابـــي وذِكْـــرُ مناقِبـــي
بفواتِـــحٍ مِـــنْ كُـــلِّ مَـــدْحٍ ســـائِرٍ ... وخواتِـــمٍ مـــن كُـــلِّ حَمْـــدٍ ذاهِـــبِ
فاسْتَشْـــرَفَ الـــثَّقَلانِ أخْطَـــبَ شـــاعِرٍ ... وأصَـــاخَتِ الدُّنـــيا لأَشْـــعَرِ خاطِـــبِ
فَخَطَبْـــتُ والعَـــوَّاءُ بَغْـــضُ مَـــنَابِرِي ... وأممَـــتُ والجـــوزَاءُ بعـــضَ مَحَارِبِـــي
وكَتَبْـــتُ مـــنها لِلَّيَالـــي مُصْـــحَفاً ... تَـــتلُوهُ أَلْسِـــنَةُ الـــزَّمانِ الدَّائِـــبِ
حـــتى تركـــتُ سَـــناءَ مُلْكِـــكَ حاضِراً ... فـــي كُـــلِّ أُفْـــقٍ عـــن بـــلادِكَ غائِـــبِ
وجَلَـــوْتُ للدنـــيا مـــثالَك فـــي الوَغى ... تخـــتالُ بيـــن ذوابِـــلٍ وقَواضِـــبِ
وأرَيْـــتُكَ الأُمَـــمَ الخُلُـــوفَ مَـــتَوَّجاً ... بخوافِـــقٍ ومُكَلَّـــلاً بكتائِـــبِ
ورفَعْـــتُ سِـــتْرَ اللـــيلِ عـــنكَ لِغَابِـــرٍ ... ومُقَـــدَّمٍ ومُـــباعِدٍ ومُقَـــارِبِ
حـــتَّى أرَيْـــتَهُمُ السَّـــنا تحـــتَ الدُّجـــى ... وخـــيالَ سَـــارٍ فـــي مَخِـــيلَةِ ســـارِبِ
طَـــيَّار بارِقَـــةِ الوغـــى بمقَـــدِمٍ ... كَقَـــوادِمِ ومَوَاكِـــبٍ كمناكِـــبِ
حـــتَّى "ابـــنُ شَـــنْجٍ" يَوْمَ أمَّكَ خاضِعاً ... تَسْـــعى إلَـــيْكَ بِـــهِ نَدَامَـــةُ تائِـــبِ

مـنْ بَعْـدِ مَـا زَارَ الـبلادَ فَلَـمْ يَجِد ... فـي الأَرْض عـن مأواكَ مَهْرَبَ هارِبِ
ورأي الضَّـلاَلَ عَلَـيْكَ أَضْعَفَ ناصِرٍ ... ورأى الفِـرَارَ إِلَـيْكَ أَيْمَـنَ صـاحِبِ
ودعـاكَ مُعْـتَرِفاً بذلَّـةِ مُذْنِـبٍ ... وأَتَـاكَ مُشْـتَمِلاً بِلِبسَـةِ راهِـبِ
ولقـد تـراءَتْ فـي ذَرَاكَ مطالِعِـي ... حيـنَ اسْـتَبَدَّ تَغَرُّبُـي بِمغارِبِـي
فختَمْـتَ طُـولَ تَقَلُّبِـي بِتَقَلُّبِـي ... وجزَيْـتَ غُـرَّ غرائِبِـي برغائِـبِ
وأَجَرْتَنِـي مـنْ كُـلِّ خَطْـبٍ طارِقٍ ... حـتَّى مُـناجَاةِ الـرَّجاءِ الخائِـبِ
ووجَـدْتُ عـند يَدَيْـكَ سَـدَّ مفاقِـري ... وسُـلُوَّ أحزانـي وبُـرْءَ مصـائِبي
ولقـدَ تَجَلَّـى العـيدُ عَـنْكَ بِغُـرَّةٍ ... جَـلاءَةِ لِفَـوادِحٍ وغَياهِـبِ
يَـتْلُوكَ حاجِـبُكَ الـذي انْجَبْـتَهُ ... كالشَّـمسِ إِذْ ضَـرَبَتْ إِلَـيْكَ بحاجِـبِ
فـي مَشْـهدٍ بِسَـنا جبينِـكَ مشـرِقٍ ... شَـرِقٍ بآسـادٍ وجُـرْدٍ سَـلاَهِبِ
غُـرٌّ تَواعَـدُ للطِّعَـانِ صَـواهِلٍ ... تخـتالُ بَيْـنَ مُخاطِـبٍ ومُجـاوِبِ
حـتَّى ارْتَقَيْـتَ سـريرَ مُلْكِـكَ حَفَّـهُ ... نُـورُ السـرورِ جوانِـباً بجوانِـبِ
ومَـدَدْتَ للتقبـيلِ راحَـةَ مُـنْعِمٍ ... تَـنْهَلُّ انْمُلُهـا بحُـورَ مَوَاهِـبِ
وتكـادُ تهـتفُ عَـنكَ: هل منْ رَاغِبٍ ... أو راهِـبٍ أو خـائِفٍ أو طالِـبِ؟
فاسْـلَمْ وكُـنْ لـلأَرْضِ آخِـرَ عامِرٍ ... ولغالِـبِ الأعْـدَاءِ أَوَّلَ غالِـبِ

وعند ابن خفاجة[1]: **(لكامل)**

أَمُقَـامُ وَصْـلٍ أَمْ مَقَـامُ فِـرَاقِ ... فَالقُضْـبُ بَيْـنَ تَصَـافُحٍ وَعِـنَاقِ
خَفَّاقَـةٌ مَـا بَيْـنَ نَـوْحِ حَمَامَـةٍ ... هَتَفَـتْ وَدَمْـعِ غَمَامَـةٍ مُهْـرَاقِ
عَبِثَـتْ بِهِـنَّ يَـدُ الـنُّعَامَى سُـحْرَةً ... فَوَضَـعْنَ أَعْـنَاقاً عَلَـى أَعْـنَاقِ
أَنْسَـيْنَنِي خُلُـقَ الوَقَـارِ وَرُبَّمَـا ... أَذْكَرْنَنِـي بِمَوَاقِـفِ العُشَّـاقِ
ضَـمّاً وَلَـثْماً وَاسْـتِطَابَةَ نَفْحَـةٍ ... وَخُفُـوقَ أَحْشَـاءٍ وَفَـيْضَ مَـآقِ
فَلَـوَ أَنَّ سَـرْحَةَ بَطْـنِ وادٍ بـاللِّوَى ... حَيَّيْـتُهَا تُصْـغِي إِلَـى مُشْـتَاقِ
لَنَـثَرْتُ بالجَـرْعَاءِ عِقْـدَ مَدَامِعِـي ... فَفَضَضْـتُ خَـتْمَ الصَّبْرِ عَنْ أَغْلاَقِي
وَأَرَقْـتُ فَضْـلَ صُـبَابَةٍ لِصَـبَابَةٍ ... فَرَقَعْـتُ مَـا أَخْلَقْـتُ مِـنْ أَخْلاَقِي

---

(١) ديوان ابن خفاجة: تحقيق الدكتور سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م ص ١٥٨-١٦٠.

فَإلَـيْكَ يَـا نَفْـسَ الصَّـبَا فَلَطَالَمَـا ... أَذْكَـى نَـدَاكَ حَـرَارَةَ الأَشْـوَاقِ

هَـا إِنَّ بِـي لَمَمـاً يُـؤَرِّقُ نَاظِـرِي ... أَلَمـاً فَهَـلْ مِـنْ نَافِـثٍ أَوْ رَاقِ

سِـرْ وَادِعـاً لاَ تَسْـتَطِرْ قَلْـباً هَفَـا ... بِجَـنَاحِ شَـوْقٍ رِشْـتَهُ خَفَّـاقِ

وَإِذَا طَرَقْـتَ جَـنَابَ قُرْطُـبَةٍ فَقِـفْ ... فَكَفَـاكَ مِـنْ نَـاسٍ وَمِـنْ آفَـاقِ

وَالـثْمْ يَـدَ ابْنِ أَبِي الخِصَالِ عَنِ العُلَى ... مُتَشَـكِّراً وَاضْـمُمْهُ ضَـمَّ عِـنَاقِ

وَاْفـتُقْ بِـنَادِيهِ التَّحِـيَّةَ زَهْـرَةً ... نَفَّاحَـةً تُغْـنِي عَـنِ اسْتِنْشَـاقِ

كَالشَّـمْسِ يَـوْمَ الدَّجْـنِ تَـنْدَى مُجْتَنَى ... ظِـلٌّ وَتَحْسُـنُ مُجْـتَلَى إِشْـرَاقِ

وَاهْـزُزْ بِهَـا مِـنْ مَعْطِفَـيْهِ فَإِنَّمَـا ... شَعْشَـعْتَهَا كَأْسـاً بِيُمْـنَى سَـاقِ

وَالـنَّوْرُ يَـرْقُمُ مِـنْ بِسَـاطٍ بَسِـيطَةٍ ... وَالغَـيْمُ يَنْشُـرُ مِـنْ جَـنَاحِ رِوَاقِ

وَسُـمِ الحَمَامَـةَ أَنْ تُجِيـبَ تَغَنِّـيًا ... عَـنْ مَـنْطِقٍ مَـاضٍ بُلُـبِّيَ بَـاقِ

مُتَرَكِّـبٍ مِـنْ نَفْحَـةٍ فِـي لَفْحَـةٍ ... وَكَفَـاكَ مِـنْ كَـأْسٍ تُهَـزُّ دِهَـاقِ

وَخِطَـابِ بِـرِّ نَـابَ عَـنْهُ سِـفَارَةً ... إِنَّ الخِطَـابَ عَلَـى البِعَادِ وَتَـرَاقِ

يَـنْدَى عَلَـى كَـبِدِي لُدُونَـةَ مَـنْطِقٍ ... فَيَفِـي بِحُـرِّ تَرَائِـبٍ وَتَـرَاقِ

فَهُـنَاكَ أَرْوَعُ مِـلْءُ عَيْـنِ المُجْـتَلِي ... يَقْظَـانُ مُوثَـقُ عُقْـدَةِ المِيـثَاقِ

هَزَجَـتْ بِـهِ هَـزَجَ الحَمَـامِ مَحَـامِدٌ ... حَمَلَـتْ حُـلاَهُ مَحْمَـلَ الأَطْـوَاقِ

لَـدُنُ الحَوَاشِـي لَـوْ أَطَـلَّ غَمَامَـةً ... لَخَـلاَ مِـنَ الإِرْعَـادِ وَالإِبْـرَاقِ

شَـرُفَتْ بِـهِ فِقَـرُ الثَّـنَاءِ وَرُبَّمَـا ... تَتَشَـرَّفُ الأَطْـوَاقُ بِالأَعْـنَاقِ

جَـمُّ الْعُلَـى مَسَـحَتْ بِـهِ كَفُّ العُلَى ... عَـنْ حُـرِّ وَجْـهٍ مُطَهَّـمٍ سَـبَّاقِ

يُـزْهَى بِـأَعْلاَقِ المَعَالِـي أَنْفُـسُ الأَغْـلاَقِ ... إِنَّ المَعَالِـي أَنْفُـسُ الأَغْـلاَقِ

طَالَـتْ بِـهِ رُمْـحَ السِّـمَاكِ يَـرَاعَةٌ ... تَسْتَضْـعِفُ الجَـوْزَاءَ شَـدَّ نِطَـاقِ

مَـا خَـطَّ فِـي غُـرَرِ الحِسَانِ وَضَاءَةً ... حَـتَّى اسْـتَمَدَّ لَهَـا مِـنَ الأَحْـدَاقِ

مُغْـرًى بِأَغْـرَاضٍ تَهُـولُ بَـرَاعَةً ... وَرَفِـيفِ أَلْفَـاظٍ تَشُـوقُ رِقَـاقِ

تَهفُـو بِـهِ طَـوْراً قُدَامَـى بَـارِقٍ ... فِـيهَا وَآونَـةً جَـنَاحُ بُـرَاقِ

أَقْسَـمْتُ لَـوْ أَخَـذَ الْهِـلاَلُ كَمَالَـهُ ... عَـنْهُ لَـتَمَّ تَمَـامَ غَـيْرِ مَحَـاقِ

وَكَفَـاكَ مِـنْ غُصُـنٍ لِسَـطْرٍ بَلاَغَـةٍ ... مُتَسَـابِقِ الإِثْمَـارِ وَالأَيْـرَاقِ

مُسْـتَبْدِعٍ حُسْـناً فَمِـنْ مَعْـنىً لَـهُ ... حُـرٌّ وَمِـنْ لَفْـظٍ بِـهِ رَوَّاقِ

مُـــتَوَلِّدٍ عَـــنْ خَاطِـــرٍ مُـــتَوَقِّدٍ ... لَهَـــبَا وَطَـــبْعٍ سَلْسَـــلٍ دَفَّـــاقِ
لَـــوْ كَـــانَ أُرْهِـــفَ صَـــارِماً لَهَـــزَرْتَهُ ... فـــي مَـــاءِ إِفْـــرِنْدٍ لَـــهُ رَقْـــرَاقِ

ويقول[1]: **(الكامل)**

أَحْسِـــنْ بِقُرْطُـــبَةٍ وَقَـــدْ حَمَلَـــتْ بِـــهِ ... حُسْـــنَ الفَـــتَاةِ ولِيـــنَ خُلْـــقِ العَانِسِ
وَتَتَوَّجَـــتْ بِمَـــنَارِ عِلْـــمٍ سَـــاطِعٍ ... قَـــدْ قَـــامَ فَـــوْقَ قَـــرَارِ دِيـــنٍ آنِـــسِ
وتَخَايَلَـــتْ عِـــزّاً بِـــهِ فِـــي عِصْـــمَةٍ ... صَـــحَّتْ بِهَـــا مِـــنْ كُـــلِّ دَاءٍ نَاخِسِ
تُـــزْهَى بِـــرَيْطٍ لِلصَّـــبِيحَةِ أَبْـــيَضٍ ... يَـــنْدَى وبُـــرْدٍ لِلعَشِـــيَّةِ وَارِسِ

عند ابن حزم الأندلسي[2]: **(الطويل)**

ســـلامٌ علـــى دارٍ رَحَلْـــنا وغُـــودِرَت ... خـــلاءً مـــن الأهليـــن موحشـــةً قَفْرا
تـــراها كـــأن لـــم تغـــن بالأمْسِ بَلْقَعاً ... ولا عمـــرت مـــن أهلهـــا قبلنا دَهْرا
فـــيا دارُ لـــم يقفـــرك مـــنَّا اختـــيارُنا ... ولـــو أنَّـــنا نســـطيعُ كُنْـــتِ لـــنا قبراً
ولَكِـــنَّ أقـــداراً مـــن اللهِ أُنفِـــذَتْ ... تُدَمِّـــرُنا طَوعـــاً لمَـــا حـــلَّ أو قَهْرا
ويـــا خـــيرَ دارٍ قـــد تُركْـــتِ حمـــيدةً ... سَـــقَتْكِ الغـــوادي ما أَجلَّ وما أسرى
ويـــا مُجْـــتلى تلـــك البســـاتينِ حفَّهـــا ... ريـــاضُ قواريـــر غَـــدَتْ بَعْدَنا غبرا
ويـــا دهْـــرُ بَلِّـــغْ ســـاكِنِيها تَحِيَّتِـــي ... ولَو سكنوا المروين أو جاوزوا النَّهرا
فصـــبراً لسَـــطْوِ الدَّهْـــرِ فـــيهم وحُكْمِهِ ... وإن كـــان طعْـــمُ الصبرِ مستثقلاً مُرَّا
لئـــن كـــان أظْمَانـــا فقـــدَ طالَ ما سَقَى ... وإن ســـاءَنا فـــيها فقـــد طال ما سَرّا
وأيَّـــتها الـــدارُ الحبيـــبةُ لا يَـــرِمْ ... ربوعَك جَوْنُ المزْنِ يهمي بها القَطْرا
كـــأنَّك لـــم يســـكنْك غـــيدٌ أو انـــسٌ ... وصـــيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزَهْرا
تفـــانَوا وبـــادُوا واســـتمرَّت نواهُـــمُ ... لمـــثلِهِم أَســـكبت مقْلَتـــيَ العـــبرى

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ص ٢٣٠.

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي: الجزء الأول، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٣١٢-٣١٣.

سنصبرُ بعد اليُسر للعُسْر طاعةً ... لعلَّ جميلَ الصَّبر يعقبنا يُسْرا
وإني ولَوْ عَادَتْ وَعُدْنا لعَهْدها ... فكَيْف بمن مِن أهلها سكن القَبرا
ويا دَهْرَنا فيها متى أنت عائدٌ ... فنحمدَ منك العودَ إنْ عُدْتَ والكرَّا
فيا ربَّ يومٍ في ذراها وليلةٍ ... وصَلْنا هناك الشمسَ باللهو والبدرا
فواجْسيَ المضنَى وواقَلْبيَ المُغْرى ... ووانَفْسيَ الثكلى وواكبدي الحَرَّى
ويا هَمُّ ما أعدى، ويا شَجْوُ ما أبرا ... ويا وَجْدُ ما أشجى، ويا بَيْنُ ما أَفْرا
ويا دهرُ لا تبعَدْ، ويا عهدُ لا تحُلْ ... ويا دمعُ لا تجمَدْ، ويا سقم لا تَبْرا
سأندب ذاك العَهَدَ ما قامت الخَضْرا ... على الناس سقفاً واستقلّت بنا الغَبْرا

وعند ابن شرف القيرواني[1]: **(الوافر التام)**

فَيا أخَوَيَّ من أسَدٍ وسَعْدٍ ... أحيٌّ حيٌّ زُغْبَةَ أمْ دَفِينُ؟
فلا اشتَمَلَتْ مساكِنُها بشَمْلٍ ... ولا هَذَا القَرَارُ به سُكُونُ
ولا سَرَتِ الرِّياحُ على رِياحٍ ... لواقِحَ مُزْنَةٍ أنَّى تَكُونُ
فقَدْ دَارَتْ عَلَيْنَا مِنْ رَحَاهَا ... طَحُونٌ كلَّ ما لاقَتْ زَبُونُ
فَلاَ وَطَنٌ لَنَا إلاَّ المَطَايَا ... وإلاَّ المَاءُ طَوْراً والسَّفِينُ
لَعَلَّكَ أيُّهَا البَرْقُ اليَمَانِي ... إذَا كَشَّفْتَ عن خَبَرٍ تَبِينُ
أفِي وُكُنَاتِهَا عُقْبَانُ قَوْمٍ ... كَعهْدِي أمْ خَلَتْ مِنهَا الوُكُونُ
وبيْنَ قِبَابِ صَبْرَةَ والمُصَلَّى ... نُهَى ومَهًا وآسَادٌ وعِينُ
وأجبالٌ تمورُ بَهَا المَذَاكِي ... وأقمارٌ تَمِيسُ بَهَا الغُصُونُ
وقُرْطُبَةٌ أُعِيدَتْ قَيْرَوَاناً ... لَنا لَمَّا دَهَتْ تلكَ الفُتُونُ
وكيفَ يضِيعُ مِثْلِي في مكانٍ ... يكونُ بِهِ أبو الحَسَنِ الأمِينُ
أيُأمَنُ أن تكونَ النُّونَ رَاءً ... وقَدْ وَجَبَتْ لَهُ رَاءٌ ونُونُ

---

(١) ديوان ابن شرف القيرواني: أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني (٣٩٠-٤٦٠هـ)، تحقيق د. حسن ذكرى حسن، نشر مكتبة الكليّات بالأزهريّة، ص ١٠٦-١٠٧.

وعند الوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز[1]: (البسيط)

فـــي ذِمَّـــةِ المَجْـــدِ والعَلْـــياءِ مُـــرْتَحِلٌ ... فارَقْـــتُ صَـــبْرِيَ إذ فَارَقْتُ مَوْضِعَهُ

ضَـــاءَتْ بـــهِ بُـــرْهَةً أَرْجَـــاءُ قُرطُـــبَةٍ ... ثُـــمَّ اسْـــتَقَلَّ فَسَـــدَّ البَيْـــنُ مَطْلَعَـــهُ

وعند الوزير الكاتب أبي مُحَمدَّ بن الجُبَيْر[2] (ت ٥١٨هـ): (الوافر)

بـــدَارِ المُلْـــكِ مـــن صَـــرْفِ الـــزَّمانِ ... حـــــوادثُ تَجْتَلـــــيهَا الـــــنَّاظِران

تَبَدَّلَـــــتِ الحوافِـــــرُ مـــــن خـــــدودٍ ... وغُـــرُّ الخَـــيْلِ مِـــنْ غُـــرِّ الغَوَانـــي

مَطـــــالِعُ أَوْجُـــــهِ الغـــــيدِ الحِسَـــــانِ ... غُضِضْـــنَ بكُـــلِّ يَعْـــبُوبٍ حَصـــانِ

كـــــأَنَّ نُســـــورَ أَيْديهـــــنَّ فـــــيها ... يَطَـــأْنَ غُـــرابَ عَيْنـــي أَوْجَنَانـــي

وعند الفقيه الأستاذ أبي محمد عبدالله بن السيد البطليوسي[3]: (البسيط)

قُـــلْ للَّـــذي غـــاصَ في بَحْرٍ مِنَ الفِكْرِ ... بذِهْـــنِه فَحْـــوَى مـــا شَـــاءَ مِنْ دُرَرِ

لله عَـــذْراءُ زُفَّـــتْ مِـــنْكَ رَائِحَـــةٌ ... تَخْـــتَالُ مِـــنْ حَبْرِها المرقوم في حِبَرِ

صَـــدَاقُهَا الصِّـــدْقُ مِـــنْ وُدِّي، ومَنْزِلُها ... بَصِـــيرَتي وَسَـــوادُ القَلْـــبِ لا بَصَرِ

هَـــزَّتْ بَدائِعُهـــا عِطْفـــيَ مِـــنْ طَرَبٍ ... لِحُسْـــنِهَا هِـــزَّةَ المَشْـــغُوفِ للذِّكَـــرِ

كأَنَّمـــا خامَرَتْنـــي مِـــنْ بَشَاشَـــتِهَا ... رَاحٌ وسُـــكْرٌ بـــلا رَاحٍ ولا سَـــكَرِ

مـــا كُنْـــتُ أحســـبُ أنَّ النَّـــيِّراتِ غَدَتْ ... تَصـــيدها شَـــرَكُ الأوهـــامِ والفِكَـــرِ

ولا تَوَهَّمْـــتُ أيّـــامَ الرَّبـــيعِ تـــرى ... فـــي ناجِـــرٍ غَضَّـــةَ الأنْوارِ والزَّهَرِ

أمَّـــا الجـــزاءُ فَشَـــيءٌ لَسْـــتُ مُدْرِكَـــهُ ... ولَـــوْ بَـــدَرَتُ إلـــى التَّوْجِـــيه بالبِدَرِ

لكـــن جَزائـــي صَـــفَاءُ الـــوُدِّ أُضْمِرُهُ ... إذا القُلـــوبُ انْطَـــوَتْ مِـــنْهُ على كَدَرِ

جَـــارَاكَ ذِهْنَـــي فـــي مِضْمارِها، فكَبَا ... ذِهْنـــي، وفُزْتَ بخَصْلِ السَّبْقِ والظَّفَرِ

وهَـــلْ بَطَلْـــيَوْسُ فـــي نَظْـــمٍ مُـــنَاظِرَةً ... يَوْمـــاً لِقُرْطُـــبَةٍ فـــي حُكْمِ ذي نَظَرِ؟!

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ١-٢، ص ٤٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٣) المصدر نفسه، جزء ٣-٤، ص ٧١٨-٧١٩.

وعند الفقيه الحافظ القاضي أبي الفضل عياض بن موسى ابن عيان[1]: (الطويل)

أَقــولُ وَقَــدْ جَــدَّ ارْتحالــي وغَــرَّدتْ ... حُدَاتــي وزُمَّــتْ للفــراقِ رَكائبــي
وقَــدْ غَمضَــتْ مــنْ كَثْرةِ الدَّمع مُقْلَتي ... وصــارَتْ هــواءً من فُؤادي ترائبي
ولَــمْ تَــبْقَ إلاَّ وَقْفَــةٌ يَسْــتَحثُّها ... وَداعــيَ للأَحْــبابِ لا للحبائــبِ
رَعَــى اللهُ جــيراناً بقُرطُــبَةَ العُلَــى ... وَسَــقَّى رُبَاهــا بالعهــاد السَّــواكبِ
وَحــيَّا زمانــاً بَيْــنَهُمْ قَــدْ ألفْــتُهُ ... طلــيقَ المُحَــيَّا مُسْــتَلانَ الجوانــبِ
أَإخوانَــنَا بــاللهِ فــيها تَذَكَّــروا ... مَعَــاهِدَ جــارٍ أَوْ مَــوَدَّةَ صــاحبِ
غَــدَوْتُ بهِــمْ مِــنْ بــرّهمْ واحْــتفائهم ... كَأَنِّــيَ فــي أهْلــي وبَيْــنَ أقاربــي

وعند الأديب أبي القاسم بن العطار[2]: (الوافر)

كَتَبْــتُ إلــيك يــا ربِّ الكــتابَهْ ... حــروفاً خطَّهــا قلــم المَهَابَــهْ
وبَيْــنَ جَوانحــي للشَّــوْقِ نَــارٌ ... تجــوَّلُ بَيْــنَ أَجْفَانــي سَــحَابَهْ
لَئــنْ تَاهَــتْ بــكَ الدُّنْــيا بهــاءً ... لَقَــدْ هامَــتْ بــكَ العُلْــيَا صَــبَابَهْ
بقُرطُــبَةَ البَــيَانُ تَعُــبٌّ عــباً ... ولَــيْسَ بمِصْــرِنا مِــنْهُ بُابَــهْ
ولَــوْ رَفَعَــتْ عُــيونُ المَجْــدِ بَــنْداً ... تَلَقَّــى مِــنْكَ رايَــتَها عَــرابَهْ
عَــبَرْتَ إلــى المكــارمِ بَحْــرَ بِــيدٍ ... عَلَــى وَجْــناءَ ســاريةٍ سَــحابَهْ
وأَمَّــا حِمْــصُ مُــنْذُ رَحَلْــتَ عَــنْهَا ... فَــيَأْبَى وَجْهُهَــا إلاَّ كآبَــهْ

وعند الوزير أبي بكر بن القبطُرنَة عبد العزيز بن سعيد البطليوسي[3]: (الكامل)

يــا سَــيِّدي وأبــي، هُــدىً وجَلالَــةً ... ورَســولَ وُدِّي إنْ طَلَبْــتَ رَسُــولاَ
عَــرِّجْ بقُرطُــبةٍ إذا بُلِّغْــتَها ... بأَبــي الحســين ونَــادِهِ تَمْويــلا
وإذا ســعِدْتَ بــنَظْرَةٍ مِــنْ وَجْهِــهِ ... فَــاهْدِ السَّــلامَ لِكَفِّــهِ تَقْبِــيلا

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ٣-٤، ص ٦٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٨٣-٨٨٤.

(٣) ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، جزء ١-٢، ص ٤٣٨-٤٣٩. وانظر التلمساني: التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٦٣٤.

واذْكُـرْ لَـهُ شَـوْقي وشُـكْري مُجْمَلاً ... ولَـو اسْـتَطَعْتُ شَـرَحْتُهُ تَفْصـيلا

بتحـيَّةٍ تُهْـدَى إلـيه كأنَّمـا ... جَـرَّتْ علـى زَهْـرِ الرّياضِ ذُيولا

وَأُشِـمُّ مـنها المُصْـحَفِيَّ علـى النَّوى ... نَفَسـاً يُنَسِّـي السَّوْسَـنَ المَـبْلُولا

وإلـى أبـي مَـرْوانَ مـنها نَفْحَـةٌ ... تُهْـدي لَـهُ نَـوْرَ الـرُّبا مَطْلُـولا

وإذا لَقيـتَ الأخْطلـيَّ فَسَـقِّهِ ... مـن صَـفْوِ وُدّي قَـرْقَفَا وشَـمولا

وأَبـو علـيٍّ بُـلَّ مِـنْهُ رَبْعَـهُ ... مِسْـكاً بمـاءِ غَمَامـةٍ مَحْلُـولا

واذكُـرْ لهـم زَمَـناً يَهُـبُّ نَسـيمُهُ ... أُصُـلاً كَنَفْـثِ الرَّاقـيات علـيلا

مَوْلَـيَّ ومَوْلـي نِعْمَـةٍ وكَـرَامَةٍ ... وأخـا إخـاءٍ مُخْلِصَـاً وخَلـيلا

بالخَـيْرِ، لا عَبَسـتْ هُـنَاكَ غَمامَـةٌ ... إلاَّ تُضَـاحِكُ إذْخِـرَاً وجَلـيلا

يَوْمـاً ولَـيْلاً كـانَ ذلـك كُلُّـه ... سَـحَراً وهـذا بُكْـرَةً وأصـيلا

لا أدْرَكَـتْ تِلْـكَ الأهلَّـةَ دَهْـرَها ... نَقْصَـاً ولا تِلْـكَ النُّجومُ أُفُـولا

وقال يمدح أمير قرطبة الوليد بن جهور[1]: **(الطويل)**

سَـقَى القَصْـرَ فالمَـيْدَانَ أخْلافُ مُزْنَةٍ ... وراحَـتْ علَـى الدَّوحَاءِ منها أَفَاويقُ

علـى أنَّـهُ مَـرْمىً نَبَـتْ عَنْهُ أَسْهُمِي ... فـلا حـدَّ لِي في الأُفْقِ منه ولا فُوقُ

أُناديـهِ والـبحرُ المحـيطُ مُجـاوِبِي ... ودُونِـي خَلِـيجٌ مـنه أَفِـيحُ مَحْرُوقُ

وَقُرْطُـبةٌ ضَـمَّتْ إلَـيهَا جَوَانِحِـي ... كمـا ضَـمَّ مـن عَفْراءِ عُرْوَةَ تَعْنِيقُ

نزلـنا بِهـا لا نَبْـتَغِي السُّـوقُ عندَها ... فمـا كـانَ بُـدٌّ أنْ أُقِيمَـتْ لَنا سُوقُ

وأَحْـيَا ابـنُ يَحْـيَى مَيِّـتَاتُ خَوَاطِرِي ... وَفَسَّـحَ آمَـالِي وكـانَ بِهـا ضِـيْقُ

أَبَـا حَسَـنٍ أَحْسَـنْتَ بَـدْءًا وعَـوْدَةً ... وَلِلغُصْـنِ إثْمَـارٌ إذا كـانَ تَوْرِيـقُ

فَلَـمْ يُـرَ بُـؤْسٌ إذْ وَلِيـتَ أمورَهـا ... ولا كَسَـدَتْ سُـوقٌ إذ التَفَّتِ السُّوقُ

وكَـمْ لَقِيَـتْ حَـرْبُ الأزارِيـقِ منهُمُ ... وكـمء زَرَقَـتْ في جانِبَيها المَزَارِيقُ

---

(١) ديوان ابن شرف القيرواني: ص ٧٥-٧٦.

وعند أبي عيسى لبون بن عبد العزيز بن ليون[1] (موشحة):

لا شيء أحلَى مِن الوصالِ
لا سيّما حُلوْة الدَّلالِ
والرَّشْف للباردِ الزُّلالِ
مِن ثَغرِ مستظرَفِ اللآلي
وفاضِحِ الغصنِ النضيرِ بلا نظيرِ

هَويتُ حُوريّةَ المعانِى
لِذكرىَ الحُور في الجِنانِ
فحُسنُها آيةُ الحسانِ
وهي غِنًى لي عن الغوانى
حَظَى بها حظُّ الأميرِ من السرور

كيف يَلومُ العَذولُ فيهِ
والمسكُ والراحُ طعمُ فيه
وهْو عديمٌ بلا شبيهِ
قد لَحظ الشمسَ لحْظَ تِيهِ
وراش كالظبْيِ الغَريرِ سهمَ الفُتورِ

كم صدّها عنّى الحسودُ
فلم يكن صدّهُ يُفيدُ
أرادتْ للذى أريدُ
فحبُّها حيث لا مزيدُ
دانى المحَلِّ من ضميرِي بلاَ نكيرِ
غبَطْتُها قُرْب مَن تُجِلُّهْ

---

(١) ديوان الموشحات الأندلسية: تحقيق الدكتور سيد غازي، المجلد الأول، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩، ص ١٣٨-١٤٠.

في كل حينٍ ولا تَمَلُّهْ
بالمُكْثِ في مَوْضعٍ يَحُلُّهْ
فهْى تُغنّى بما تدلُّهْ
أقرطبة كان سديرِى ليّ الأميرِ

وعند أبي بكر محمد بن احمد الأبيض[1]:

مَن سقَى عينيك كاس المُدامِ
يا مُنَى المُستهامِ

رَشأٌ أسهرَني وْهو نائمْ
رَقّ لي والموتُ بين الحَيازمْ
عَجباً مِن دمعِه وْهو باسمْ
خَنِثٌ يَمزُج تحت اللثامِ
عَبرةً بابتسامِ

قلب دنياىَ اسقْى بِروَيدِ
نخبَ إحسانِ الوزيرِ ابن زيدِ
فأنا أربَعُ في خيرِ قَيدِ
بين برٍّ وعطايا جِسامِ
أخواتِ الغَمامِ

فائتُ الغَورِ بَعيدُ المسافَةْ
قد كفَى قرطبةً كلَّ آفَهْ
كم يدٍ أوْلَيتَ دارَ الخِلافَهْ
طُوِّقتْ جِيدَكَ طَوقَ الحَمامِ
في حُلِيّ الكِرامِ

---

(١) ديوان الموشحات الأندلسية: تحقيق سيد غازي، ٣٩١-٣٩٣.

بك يا مُشرِفُ صَحَّ اليقينُ
أنت صُبحُ المُشكِلاتِ المبُينُ
أيّ نَصلٍ سلَمَّه ما ... ن
مَلِكٌ شرَّفه في الأنامِ
حَمْلُ ذاك الحُسامِ
شرُف المُلكُ به حين حاطَهْ
فشدتْ وَجْداً به غَرناطَهْ
إذ توخَّى بسواها ارتباطَهْ
كلَّ يومْ أقْريكْ يا حِبُّ سلامى
ونَسِتَ أنتَ ذِمامى

وعند المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عبّاد[1]: **(البسيط)**

مَنْ للملوك بشَأْوِ الأَصْيَدِ البَطَلِ ... هَيْهَاتَ جاءتْكُمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ
خَطَبْتُ قُرْطُبَةَ الحسناءَ إذ مَنَعَتْ ... مَنْ جَاءَ يَخْطِبُهَا بالبيض والأَسَلِ
وكم غَدَتْ عاطلاً حتَّى عَرَضْتُ لها ... فأَصْبَحَتْ في سُرَى الحُلِيّ والحُلَلِ
عِرْسُ الملوكِ لنا في قَصْرِها عُرُسٌ ... كلُّ الملوك به في مَأْتَمِ الوَجَلِ
فَراقِبُوا عن قَريبٍ لا أَبَاً لَكُمُ ... هُجُومَ لَيْثٍ بدرعِ البَأْسِ مُشْتَمِلِ

وعند أبي عثمان بن إدريس[2]: **(الطويل)**

سيشهدُ ما أبقيتَ أنّك لم تَكُنْ ... مُضيعاً وقد مكَّنت للدين والدنيا
فبالجامع المَعْمُورُ للعلمِ والتّقى ... وبالزهرة الزهراء للمُلْك والعليا

---

(١) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص ٦٧. وانظر التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٦٢٥.

(٢) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٥٧٥.

وعند صاعد اللغوي[1]:

يـــا أيّهـــا الملـــكَ المَنْصُـــورُ مِنْ يمنٍ ... والمُبْتَنـــي نسَـــباً غَـــيرَ الـــذي انْتسبا
بغَـــزْوَة فـــي قُلـــوب الشِّـــركِ رائعـــة ... بيـــن المـــنَايا تناغـــي البِيُّمْرَ والقُضُبا
أمّـــا تَـــرى العينَ تجري فَوْقَ مَرْمَرِها ... هـــوىً فـــتُجري على أحفافها الطربا
أجْرَيْـــتها فَطَمَـــا الزّاهـــي بجريَـــتَها ... كمـــا طَمَـــوْتَ فسُـــدْتَ العُجْمَ والعربَا
تَخـــالُ فِـــيهِ جُـــنُودَ المـــاء رافِلَـــةً ... مُسْـــتلئمات تُـــريك الـــدّرْعَ واليَلَـــبَا
تَحفُهُـــا مـــن فُـــنون الأيـــكِ زاهـــرة ... قـــد أوْرَقَـــتْ فضّـــة إذ أورقت ذهبا
بَديعَـــة الملـــكِ مـــا يَـــنْفكّ ناظِـــرُها ... يـــتلُو علَـــى السّـــمع مـــنها آيةً عَجبَا
لا يُحْسِـــنُ الدهـــرُ أن يُنْشِـــي لها مَثَلاً ... ولَـــوْ تَغَنَّـــتَ فـــيها نَفْسَـــه طَلَـــبَا

وعند ابن عمّار[2]: **(الخفيف)**

كـــلُّ قَصْـــرٍ بعـــد الدمشـــق يُـــذَمُّ ... فـــيه طـــابَ الجَـــنى وفـــاح المشـــمُّ
مـــنظرٌ رائـــقٌ، ومـــاءٌ نمـــيرٌ ... وثـــرىً عاطـــرٌ، وقصـــر أشَـــمُّ
بِـــتُّ فـــيه واللـــيلُ والفجـــرُ عـــندي ... عَنْـــبرٌ أشـــهبٌ ومســـكٌ أحـــمُّ

وعند عبادة بن ماء السماء[3]:

ســـقى الله أيامـــي بقرطـــبةِ المـــنى ... ســـروراً كـــريّ المنتشـــي من شرابهِ
وكـــم مُزِجتْ لي الرّاحُ بالرّيق من يديْ ... أغـــرَّ يريـــني الحُسْـــنَ مـــلءَ ثيابه
أوان عـــذاري لـــم يَـــرُعْ بمشـــيبه ... شـــبابي ولـــم يُوحـــشْ مَطارُ غُرابه
تُعلّلُنـــي فـــيه الأمانـــي بوعدهـــا ... وهـــيهات أن أروَى بـــوردِ ســـرابه
سَـــلِ العَـــنَم الـــبادِي من السجف دانفاً ... لتعذيـــبِ قلبي هل دمي من خضابه؟

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٧٦.

(٢) التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الأول، ص ٦٧١.

(٣) الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤٧٣.

وقـــتلوا الـــرّجال كـــيف شـــاءوا وضـــاع دلـــوُ الدّيـــنِ والرّشـــاءُ
وإذ أطـــال القـــومُ أســـرى القَـــدرُ نحوهُـــمُ خســـفاً ومـــا إن شَـــعروا

دولة المرابطين بالأندلس (الرجز)

فـــإذا أرادَ اللهُ نَصْـــرَ الدّيـــنِ استصـــرخَ الـــنّاسُ ابـــنَ تاشـــفينِ
فجـــاءهُم كالصُّـــبحِ فـــي إثـــر غســـق مُســـتدركاً لمـــا تـــبقّى مـــن رَمَـــقْ
وافـــى أبـــو يعقـــوبَ كالعُقـــابِ فجـــرَّدَ الســـيفَ مـــن القِـــراب
وواصـــلَ الســـيرَ إلـــى الـــزّلاقةَ وســـاقَهُ لِـــيومِها مـــا ســـاقَه
لله دَرُّ مـــــثلها مِـــــن وَقعَـــــهْ قامَـــتْ بنصـــرِ الدّيـــنِ يـــومَ الجُمعة
وثُـــلَّ للشـــركِ هـــناكَ عَرشُـــهُ لـــم يُغْـــنِ عـــن يومـــه أذ فنشُـــهُ
فوجَـــبَ الخلـــعُ لـــذي الخلاعَـــه وصَـــرَّحوا ليوســـفٍ بالطّاعـــهَ
واتصَـــلَ الأمـــرُ علـــى نِظـــامِ وامـــتدَّ ظـــلُّ اللهِ للإســـلامِ
وانصـــرفَتْ علـــى العَـــدوّ الكـــرّهْ ورَجَـــع الجَمْـــعُ كـــأولى مَـــرّه
فـــتلك خـــيلُ الله فـــي العَـــدُوّ تَعيـــثُ فـــي الـــرّواحِ والغُـــدوّ
ثـــمَّ ولـــى علـــيٌّ بـــنُ يوســـفِ مُهـــتدياً حُكْـــمَ أبـــيهِ يَقتَفـــي